ابراهيم الوائلي



الشعر السياسي العراقي

في القرن التاسع عشر

١٩٦١

ساعدت جامعة بغداد على نشره



مطبعة العاني ـ بغداد

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الشعر السياسي العراقي

في القرن التاسع عشر

تاليف

ابراهيم الوائلي

المدرس بكلية الآداب ـ جامعة بغداد

مطبعة العاني ـ بغداد

١٣٨١هـ ١٩٦١م

مقدمة

قبل أن أتخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة كانت تدفعني رغبة ملحة الى معالجة الموضوعات الحديثة من الشعر العربي ، وكنت ـ على الرغم من اعتقادي بأننا لم ننته بعد من دراسة الادب القديم ـ أشعر بضرورة البحث في الادب الحديث وما جد في عصر النهضة التي ظهرت طلائعها في أول القرن التاسع عشر ، ولاحظت أن اشباع هذه الرغبة عمل صعب لا يسلم فيه المنهج من الالتواء ولا تأتي فيه الدراسة بأكثر من التأليف والجمع وبما قد يكون غير ذي جدوى من الاستنتاج والتحليل لذلك رأيت أن أقصر دراستي على الشعر السياسي في العراق خلال القرن التاسع عشر لتكون الدراسة أطوع للسلامة والوضوح ، وان شعوري بالحاجة الى استجلاء الحالة السياسية وغيرها في العراق أيام خضوعه للحكم العثماني ولو في فترة من الفترات والى معرفة الاثر الذي تركته في حياة السكان ومدى صلتها بالشعر وتأثيرها فيه كل ذلك قد دفعني الى اختيار هذا اللون من الشعر الذي قد يكون ضعيفا في كثير من خصائصه أو في ناحيته الموضوعية على الاقل ٠

وقبل أن أقدم على كتابة هذا الموضوع فكرت فيه من كل جوانبه فيمن يكون قد سبقني اليه فظهر لي أنه لا يزال غير مبحوث فيه بعناية واستقصاء وأنه يحتاج الى دراسة شاملة ، ومن ثم أخذت أتتبع مصادره ومراجعه وشرعت أتصفح ما يمكن الاعتماد عليه في تاريخ السياسة العثمانية ولاسيما التي تخص العراق ، ومكثت سنتين[1] في القاهرة كنت أرتاد فيهما دار الكتب وغيرها ثم أربع سنوات في العراق أبحث وأفتش حتى توفرت لدي المادة الكافية لعرض الجانب السياسي ولكن المصاعب التي لم تقف عند

---

(١) من صيف ١٩٤٩ ـ حتى صيف ١٩٥١م

حدود الاناة وبذل الوقت تلك التى حالت دون دراسة الحياة الاجتماعية في
العراق فلقد كانت الحالة الاجتماعية فى القرن التاسع عشر لم تأخذ في
بحوث التاريخ نصيبها من العناية الا القليل مما كتبه بعض العراقين والرحالة
الاجانب وقد استطعت أن آخذ من هذا القليل مفتاحا لدراسة لا تعدو الواقع
فى مجتمع متأخر آنذاك كالعراق ، ومثل هذا ما يقال عن الحالة العلمية فان
هـذه الناحية لم تظفر من الباحثين بدراسة موضوعية شاملة عـدا قليل من
المؤلفات التى ترجمت لبعض العلماء والادباء ولكنها لم تستقص وانما اكتفى
أصحابها بالفريق الذى ينتمون اليه وأهملوا ما سواه •

وكانت المصاعب فى دراسة الشعر لا تقل عن غيرهـا ولاسيما الشعر
الذى لا يزال قيد المخطوطات المتفرقة ومعظم هـذه المخطوطات مدفون فى
زوايا البيوت القديمة بعيد عمن يريد أن يقرأ أو يطلع •

وكان الى جانب هذا غموض المناسبات والحوادث التى أملت كثيرا من
الشعر سواء منه ما كان مطبوعا أم مخطوطا • ولعل هذا الغموض يرجع الى
جهل النساخ أو عدم اهتمامهم ـ على الاقل ـ بتدوين المناسبات • وقد يرجع
الى اغفـال الشعراء أنفسهم تلك المناسـبات لئلا يكون فى ذكرهـا شيء من
الغضاضة التى قـد تسيء الى سمعة الشـاعر أو تؤذى أبناءه وقد يكون من
أسـباب الاغفال اعتماد بعض الشعراء على شهرة المناسبة ومعرفة الناس
فلا يذكرونها حتى يمتد الزمن فيصير المعلوم مجهولا لدى الباحثين • على
بعض القصائد قد أهمل فيه ذكر المناسبة لا للاسباب المتقدمة بل للسياسة
كقصائد الاخرس فى الوالى (مدحة) فان الاشارة الى الممدوح قد حـ
عندما طبع الديوان فى الاستانة أيام السلطان عبدالحميد •

وقـد ذللت صعوبة الاطلاع بما أفدت من مكتبة الآثار ببغداد[٢] فقد
أغنتنى هذه المكتبة بما فيها من مطبوع ومخطوط يتصلان بموضوع البحث

(٢) من الحق أن اعترف بجميل الاستاذ كوركيس عواد أمين المكتبة
لما كان يبذله هو ومساعدوه من عناية فى تهيئة المراجع المطلوبة

وندت بمن آنست فيهم الاريحية والسماحة للوقوف على بعض القصائد التى لم أجدها فى مكتبة الآثار •

ثم ذللت صعوبة الغموض الذى أحاط بمناسبات بعض القصائد بتتبع الحوادث والاسماء والسنين ودراسة الشعر نفسه للاعتماد على ما فيه من قرائن زمنية ومكانية وما فيه من كلمات وأسماء ترتبط بالمناسبة والحادثة وتقف عندها وتستوحيها فجاءت الدراسة واضحة فى أكثر جوانبها •

أما المصادر والمراجع التى استعنت بها على هذه الدراسة فهى دواوين الشعراء والمجموعات الادبية من مطبوع ومخطوط مما استطعت أن أظفر به ولعل هـذا معظم ما يمكن الوصول اليه من مصادر الشعر التى كونت هذا البحث والى جانب هذه المصادر ما استعنت به من المراجع العربية والاجنبية المترجمة وغير المترجمة فى كتابة التمهيد ثم الفصول الثلاثة التى اشتمل عليها الباب الاول وقد وضع لكون مفسرا لبواعث الشعر مما اشتمل عله الباب الثانى • ولابد لى فى هذه المقدمة من الاعتراف بجهد الاستاذ عمر الدسوقى استاذ الادب الحديث بكلية دار العلوم فى وضع المنهج الذى سرت عليه فى كتابة هذه الرسالة وفيما أبداه من ارشاد قيم ، ولابد لى أيضا أن أسجل تقديرى لمناقشة الدكتورين الفاضلين عبدالرزاق حميدة وأحمد محمد فيه وفى وملاحظاتهما الدقيقة التى ساعدت على تنسيق بعض الموضوعات واختصار ما يجب اختصاره ولاسما ما يتصل بالحالة الاجتماعة فان الفصل الخاص بها قد كتب بتوسعة فى استعراض المظاهر العامة والعادات والتقاليد التى يمكن الاستغناء عن ذكر بعضها وعدم الاسهاب فى بعضها الآخر والاكتفاء بذكر مراجعها فى الهوامش ، وقد ساعدت هذه الملاحظات أيضا على كتابة تمهيد للباب الثانى يوضح معنى الشعر السياسى وتطوره ولم يكن هـذا التمهيد موجودا فى صلب الرسالة قبل المناقشة • أما ما حذفته من موضوع الشعر فهو جانب من الفصل الخامس من الباب الثانى يتصل بموازنة عقدتها بين الشعر فى العراق وبينه فى سوريا ولبنان ومصر خلال القرن التاسع عشر فقد بدا لى أن هذه الموازنة ـ على ما فيها من طرافة وجهد

وعلى ما فيها من صلة بالجانب الفنى والتاريخى ـ لم تكن من صلب البحث ويس فى حذفهـا ما يؤدى الى خلل فيه • فاذا كان ثمة شيء يستحق أن يضاف الى الدراسات الادبية فى هـذه الرسالة فهو كل ما أرجو من بحث استنفد كثيرا من الجهد والزمن ، وأنا ـ حين أقدم هذه الدراسة الى قراء الادب ـ انما أقدمها مع الاعتذار عمـا يمكن أن يروه فيهـا من الهنات التى لا يسلم منها أى باحث أو مؤلف •

ابراهيم حرج الوائلى

تمهيد

الحالة السياسية والأدبية في العراق

قبيل القرن التاسع عشر

الاستيلاء العثماني

اتسعت فتوحات العثمانيين فرسخت أقدامهم فى ثلاث قارات عدة قرون وخضع لسلطانهم الوطن العربى ، ولما كانت بغداد ذات أهمية تاريخية وسياسية فقد اتجه العثمانيون الى احتلالها وكانت اذ ذاك بيد الفرس الصفويين[1] ، وفى سنة ٩٤١هـ ١٥٣٤م استولى عليها السلطان سليمان القانونى وتعاقب فيها الولاة العثمانيون الذين حكموا العراق وهم بحاجة الى كثير من الفهم والمرونة فقد كان ظهورهم أمام القبائل بلغتهم وأخلاقهم الغريبة من عوامل الاشمئزاز الذى أدى الى كثير من الثورات القبلية ، وكان الانكشاريون ـ وهم المسهمون فى بناء الحكم المهزوز المستقلون بالاقطاعيات التى منحوها ـ لا يألون جهدا فى محاربة هذه القبائل .

واستمر العثمانيون يحكمون العراق حتى سنة ١٠٣٣هـ ١٦٢٣م اذ هوجمت بغداد من قبل الفرس أيام الشاه عباس حتى فتحها السلطان مراد سنة ١٠٤٨هـ ١٦٣٨م ودخلها على رأس جيش وهى تعانى مرارة جوع

---

(١) كان الصفويون قد احتلوا العراق سنة ٩١٤هـ ١٥٠٨م وقد سبقت حملة العثمانيين حروب طاحنة بين السلطان سليم والشاه اسماعيل وتبودلت بينهما رسائل شديدة اللهجة راجع رسالة سليم الى اسماعيل فى « تاريخ الاتراك العثمانيين » لحسين لبيب ص ٤١ ـ ٤٥ ج ١

شديد بعد أن دارت المعارك في أزقتها • وتعاقب الولاة المستبدون في بغداد والموصل طيلة القرن السابع عشر الذي انتهى دون استقرار وجاء القرن الثامن عشر فكان بداية عهد انحلال للدولة نفسها اذ انتقلت من سياسة الفتح الى سياسة السلام[٢] وكانت اوروبا قد استقظت بعد الثورة الفرنسية وأخذت تنظر الى الدولة العثمانية نظرة مصحوبة بالحسد والحقد فنشبت الحروب بين العثمانيين والروس الى جانب الحروب المستمرة مع الفرس وقد أدى هذا الانشغال بالحروب الى تسابق الدول ا لاخرى على استلاب ما يمكن استلابه فاحتل الفرنسيون مصر عام **١٧٩٨**م واتصلت بريطانيا بالخليج العربي ووطئت أقدامها بعض امارات الساحل •

وفي أواخر هذا القرن ظهرت بوادر الدعوة الوهابية ، وكان العراق خلال هذه الفترة يموج بحوادث بعضها امتداد للتاريخ وبعضها ايذان بتاريخ جديد ونعني بالاول استمرار الحكم الصارم الغريب على السكان والحوادث الداخلية التي كانت تزعج هؤلاء الحكام والثورات القبلية في الجنوب والشمال والغزو الايراني الذي تتابعت أحداثه على بغداد والموصل والبصرة ومناطق الشمال الكردية حتى منتصف القرن الثامن عشر لتعود مرة اخرى • ونعني بالثاني انتقال الحكم من الولاة العثمانيين الى مماليكهم من الكرج في منتصف القرن الثامن عشر بينما كانت القبائل في وسط العراق وجنوبه تسعى بكثير من الجهد الى تقوية زعاماتها ونفوذها •

بداية المماليك

كان حسن باشا الذي ولي بغداد سنة **١١١٦**هـ **١٧٠٤**م من أبرز الولاة فقد بقي في الحكم مدة عشرين سنة وهي مدة يحسد عليها وال مثله كان يعش في الجو الذي عاش فيه أسلافه ولم يكن سبب بقائه طيلة هذه المدة الا انشغال الدولة بنفسها عما يتبعها وكونه من الذين وقفوا في وجه الفرس بقوة وحزم وقد مات في حملته التي توجه بها الى ايران سنة **١٧٢٣**م[٣]

---

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٥ م ٥ الترجمة العربية

(٣) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث للونكريك ص ١٢٤ ط ٢ ترجمة جعفر خياط

فخلفه ابنه أحمد وكان كأبيه فى حروبه مع الفرس حتى مات فى صيف سنة ١٧٤٧م وكان يقود حملة لمحاربة البابانيين من زعماء الاكراد فى شمال العراق[٤] .

ان المدة التى قضاها حسن باشا فى الحكم قد دفعته الى أن يجعل من قصره بلاطا يشبه بلاط السلطان فى الاستانة وكان قد عرف ـ وهو مستخدم فى الباب العالى ـ كيف ينظم السلطان مستخدميه فأخذ يؤسس على غرار ذلك درجات مستخدميه فى بغداد[٥] وكان من هؤلاء طائفة من الارقاء جيء بهم صغارا من بلاد الكرج[٦] ثم تدرجوا فى الخدمة فاسندت اليهم الوظائف المختلفة من مدنية وعسكرية وكان من بين هؤلاء المملوك سلمان فقد أعتقه الوالى أحمد بن حسن حين أسندت اليه الولاية بعد أبيه وزوجه ابنته عادلة[٧] وجعله نائبا له (كتخذا) وبعد وفاة أحمد كان المماليك قد رسخت أقدامهم فى بغداد فلم يخضعوا للولاة الثلاثة الذين عينتهم الدولة بل شغبوا عليهم طيلة حكمهم الذى لم يتجاوز ثلاث سنوات[٨] وأثاروا الفوضى ضدهم حتى اضطرت الدولة الى تعيين سليمان المملوك المعتق واليا لبغداد سنة ١١٦٣هـ ١٧٥٠م[٩] وهو أول وال مملوك حكم هذه الولاية ثم أضفت اليه البصرة وماردين وبقى يحكم مدة اثنتى عشرة سنة كان فيها أهل بغداد

---

(٤) المصدر السابق ص ١٥٢

(٥) المصدر السابق ص ١٥٤ وتأريخ المماليك لسليمان فائق الورقة ٦ ترجمة نجيب ارمنازى

(٦) الكرج من شعوب الهند الجرمانية وتسمى بلادهم كرجستان وهم مشهورون بالجمال وقد دالت دولتهم سنة ١٨٠١م واستولت عليهم روسيا وحاضرتهم تفليس على ضفاف نهر (الكر) Kour ومنهم مماليك بغداد الذين عرفوا بالكوله من اى الاسراء راجع (لغة العرب) الجزء الاول من السنة الرابعة ـ تموز ١٩١٤ ـ بغداد

(٧) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٥٥ و
Baghdad the city of peace. by richard koke. p. 227. 2nd. London.

(٨) راجع (سالنامة) بغداد الدفعة ٢٢ سنة ١٣٢٩هـ و (تأريخ المماليك الورقة ٣

(٩) كان بعد وفاة سيده وصهره أحمد قد عين واليا لاطنه فذهب اليها ثم جاء به الى بغداد تعصب المماليك

راضين قانعين لانه كان يحميهم من غارات القبائل فى حين كان هو محكوما لزوجته ذات النفوذ القوى وفى حين كان سيل المماليك يتدفق من تفليس الى بغداد لتسلم أهم الوظائف والمناصب بينما كان يكفى المرء أن يكون بغداديا ليحد من طمعه فى الوظيفة[١٠] ٠

وتوفى سليمان سنة ١١٧٦هـ ١٧٦٢م فتعرضت بغداد ـ كعادتها ـ لشغب المتنافسين على الحكم من المماليك وكان هؤلاء سبعة من الضباط فأتيح لاحدهم وهو (على آغا) أن يكون واليا ووزيرا بعد سليمان ولكن أصله الفارسى وما قيل عن تشيعه كان من أسباب الفوضى التى عاقت استمراره فى الحكم فقتل[١١] وخلفه عمر زوج بنت أحمد الثانية[١٢] فقتل أيضا وخلفه عبدى ثم حسن ثم سليمان الكبير الذى ختم به القرن الثامن عشر واستمر بعده حكم المماليك فكان آخرهم داود الذى انتهى به حكم هؤلاء سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م ٠

أما الموصل فانها كانت خاضعة للاسرة الجليلية الموصلية وكان أبناء هذه الاسرة يتعاقبون على الحكم ولاة من قبل السلطان وأما مقاطعات الاكراد فهى خاضعة لزعماء القبائل الكردية التابعين للسلطان ، وكانت البصرة ونواحيها تابعة لوالى بغداد ٠

الحالة العامة :

ليس من السهل أن نسرد الحوادث مفصلة فى تمهيد قصير خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر فقد كانت عقابيل الطمع الايرانى تستدعى التحفظ والاستعداد لمنع تكرر الحوادث التى تعرضت لها بغداد والموصل والبصرة فى النصف الاول منه ، وكان خطر الحركات الوهابية قد تجاوز حدود نجد الى بادية العراق وأخذ يهدد سكان الضفة الغربية من

---

(١٠) Baghdad the city of peace. p. 229.

(١١) كان قتله على يد خلفه عمر الذى استعان ببعض متنفذى بغداد عليه ٠ وقد دافع رسول حاوى فى كتابه (دوحة الوزراء) عن على آغا هذا فى ص ٢٥٩ من الاصل التركى المخطوط فى مكتبة الآثار

(١٢) اسمها عائشة وهى أخت عادلة زوجة سليمان

نهر الفرات وقد بلغ التهديد درجة مخيفة فى نهاية القرن الثامن عشر فزحفت لمحاربة الوهابيين قبائل الجنوب من المنتفق وغيرهم ثم جيش مؤلف من معظم القبائل العراقية وجنود الدولة بقيادة الكتخدا (على) أيام ولاية سليمان الكبير وكان هذا الزحف سنة ١٢١٣هـ ١٧٩٨-١٧٩٩م وقد باءت كل هذه المحاولات بالخيبة ولم تجد نفعا •

وكانت اليد الاجنبية قد مدت أصابعها الى العراق فلبريطانيا وفرنسا ممثلون فى بغداد والبصرة[١٣] ولهؤلاء الممثلين صلة بولاة بغداد تبعتها مساعدات جمة لهم وكان الوالى عمر ممن ساعده الانكليز[١٤] وكان نفوذ وكلاء الشركة البريطانية[١٥] ونجاحهم مبعث حنق الفرنسيين وحسدهم فقد ظفرت هذه الشركة بعطف الوالى سليمان الكبير لانها ساعدته على ارتقاء المنصب وقد طلب بوساطتها بعض السلاح والعتاد من بومبىء وتكرر هذا الطلب مع استقدام مدربين اوروبيين من الهند • وكان تدخل المقيم البريطانى قد ساعد سليمان هذا على البقاء فى منصبه عندما شاع خبر تعيين سليمان الشاوى البغدادى واليا لبغداد سنة ١٢٠٢هـ ١٧٨٧-١٧٨٨م فقد كتب المقيم الى السفير البريطانى فى الاستانة ليساعد الوالى المملوك على بقائه فى الولاية[١٦] •

ولقد كانت الحياة العامة فى بغداد غير مستقرة ومثلها المدن الاخرى وكان الشغب الذى يثيره المماليك وحاشية الوالى طمعا بالمال والحكم عاملا هاما فى عدم الاستقرار وفى اثارة الهلع والخوف بين السكان • أما القبائل فقد كانت أشد اضطرابا وثوراتها تكاد تكون مستعصية على الحكومة ولكن الولاة لم يدخروا أى جهد لخضد شوكة الثائرين وقمع ثوراتهم •

---

(١٣) أول مقيمية اسستها بريطانيا فى البصرة كانت سنة ١٧٦٤م وفى بغداد سنة ١٧٩٨م راجع (العراق دراسة فى تطوره السياسى) لايرلاند ص ١٤ ترجمة جعفر خياط

(١٤) Baghdad the city of peace. p. 230.

(١٥) تأسست هذه الشركة فى البصرة سنة ١٧٥٥م

(١٦) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٢٤١

وقد كانت قبائل الفرات الاوسط تحمل راية التمرد على الحكم وتنتفض بين حين وآخر ساخطة متبرمة من ثقل الضرائب وفداحتها . ومثلها قبائل المنتفق فى الجنوب وقبائل جنوبى دجلة وكذلك شمر وعنزة فى الشمال الغربى ، والاكراد فى المناطق الجبلية غير انها كانت مبعثرة لا يجمعها هدف موحد ولكن ثورة واحدة يمكن أن تعبر عن هدف وتصميم وتوحى بأن هناك احساسا بوجوب طرد الولاة الاجانب وهذه الثورة كانت سنة ١٢٠١هـ ١٧٨٦–١٧٨٧م وقد بدأها سليمان الشاوى[١٧] فى بغداد فهدد هذه المدينة وما جاورها وامتدت ثورته الى أماكن اخرى وكاد ينتصر على الوالى سليمان الكبير لولا التخاذل الذى سبب انتكاس الثورة وهرب الشاوى[١٨] الى قبائل المنتفق ومن ثم حدث اتفاق ثلاثى جمع سليمان الشاوى وحمد بن حمود رئيس خزاعة وثوينى بن عبدالله شيخ المنتفق[١٩] وأدى هذا الاتفاق الى استلاء ثوينى على البصرة[٢٠] وطرد المتسلم العثمانى غير أن سياسة التفكيك والتقريب والتبعيد وعوامل قبلية وعنصرية يرافقها جهل يحول دون التنظيم الصحيح كانت تبدد هذه الثورات وتنكل بأهلها فقد كان الوالى يستعين بالاكراد لمحاربة العرب[٢١] وبحكام الموصل لمحاربة

---

(١٧) كان الشاوى قد شاهد مصرع أبيه عبدالله وعمه سلطان على يد الوالى المملوك عمر سنه ١١٨٣هـ ١٧٦٩ ـ ١٧٧٠م راجع (غاية المرام) لياسين العمرى الورقه ١٠٣

(١٨) مطالع السعود عثمان بن سند الورقتان و٥٦ وغاية المرام الورقتان ١٠٦ و١٠٧ وأربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ١٩١

(١٩) مطالع السعود الورقه ٥٧ ومن غريب أن هؤلاء الثلاثة كانوا على ميعاد فى الموت فقد قتل الشاوى سنه ١٢١هـ ٧٩٥ ـ ١٧٩٦م وقتل ثوينى سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٧ ـ ١٧٩٨م وتوفى حمد سنه ١٢١٤هـ ١٧٩٩ ـ ١٨٠٠م

(٢٠) مطالع السعود الورقة ٥٧ وغاية المرام الورقة ١٠٧ وأربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ١٩٢

(٢١) مطالع السعود الورقة ٥٧ وأربعة قرون ص ١٩٢ وخلاصة تأريخ الكرد وكردستان لمحمد أمين زكى ص ٢٣٢ من الترجمة العربية لمحمد على عونى

أهل الوسط والجنوب[٢٢] بل كان يستعين بالقريب على القريب[٢٣] وبهذه الوسائل قضى على الثورة الثلاثية •

ومهما يكن من شيء في سوء النتائج فان هذه الثورات الضخمة المتكررة في الشمال والجنوب وعلى الفرات ودجلة دليل واضح على عدم الاستقرار وبرهان جلي على فساد الحكم وعدم انسجامه مع المحكومين •

الثقافة العامة

لقد كان من نتيجة استيلاء المغول وتعاقب الحكومات الاجنبية على العراق أن هبطت الحركة العلمية عن مستواها في العصر العباسي وكان هذا الهبوط عاما شاملا في البلاد العربية ولا غرابة في أن تضعف الحركة العلمية ويخفت صوت الشعر وينتكس النثر الى أضعف درجاته فقد كانت هذه العصور المتأخرة لا ترى فيها حكاما على العراق غير الذين قذفت بهم مسارب الظلام من آفاق بعدة فجاؤا وهم لا يعرفون غير الرطانة الاعجمية وليس في أدمغتهم خميرة من علم أو معرفة ولا في نفوسهم أو نفوس الكثيرين منهم ميل الى العلم والمعرفة ولقد كان من الهين لو أنهم كانوا كحكام الدويلات التي تشققت في العصر العباسي اذ دفعتهم قوة الاستمرار الى تشجيع العلم والادب ولكن هؤلاء كانوا يتساقطون على العراق كما تتساقط الاخشاب الخاوية المتأكلة على أمثالها في بناء قد انهارت جوانبه وسقوفه فلا ترى الا الغبار الذي يملأ الخياشيم ويمنع نور الشمس أن يصل الى بقايا الاعشاب والبراعم • ولقد كان العصر العثماني من أشد العصور وبالا على العلم والادب لا في العراق وحده بل في جميع أنحاء الدولة العثمانية فالجهل عام في تركيا وفي كل بلد تابع لها وقد شمل كل

---

(٢٢) غاية المرام الورقة ١٠٧ وذكرى السعدون للشيخ على الشرقي ص ٣٥

(٢٣) كما حدث لحمود الثامر فقد انضم الى الوالي سليمان الكبير لمحاربة عمه ثويني بن عبدالله وجوزي بنصبه شيخا بدل عمه راجع مطالع السعود الورقة ٥٧ وأربعة قرون ص ١٩٢

الطبقات وكان تعصب العثمانيين قد حملهم على أن يجعلوا لغتهم التركية لغة رسمية في الدواوين ومجالس القضاء[٢٤] وقد أدى هذا الى أن يتعلم التركية من أراد التقرب الى الوالى وأن يعنى بها ويعلمها أبناءه . وكانت بغداد مركز هذا الزلزال المخيف الذى اهتزت له جوانب دجلة فيما حول بغداد . غير أن هذا السلطان الذى فرض على بغداد والمدن الكبرى لم يستطع أن يهيمن على المدن الجنوبية الصغيرة أو على القرى والارياف فقد كانت السلطة النافذة بيد زعماء القبائل ولم يكن لهؤلاء صلة بالدولة غير دفع الضرائب فى مواسم الدفع وغير مساعدة الوالى عندما يحتاج الى المساعدة وبسبب ذلك لم تتأثر عادات القبائل وسجاياهم الموروثة بعادات الاتراك وسجاياهم ولم تخضع خصائصهم العربية لهذا الذوبان الذى خضعت له بغداد بما غمرها من الاجناس المختلفة ، وبقيت اللغة العربية لغة التعليم فيما بقى من المعاهد القديمة فى بعض الحواضر كالحلة والنجف وكانت هذه المعاهد تحت اشراف رجال الدين تغذيها الاعانات التى يجمعها ذوو اليسار وهى — على علاتها وعلى ما فيها من اهمال — لها فضل كبير على رعاية التراث العربى الموروث وكان المتخرجون فى هذه المعاهد مغمورين بعطف الزعماء فى الارياف كزعماء خزاعة وربيعة وزبيد وبنى لام والمنتفق وغيرهم[٢٥] وكان فى هؤلاء الزعماء من يقدر رجال العلم والادب ويحسن الى الشعراء ، وكان فيهم من يأنس للشعر بل كان فى خزاعة — مثلا — من له المام بالادب ومحاسن الكلام[٢٦] . وليس معنى هذا أن اللغة الفصحى كانت شائعة فى الارياف وبين القبائل بل كانت العامية الدارجة أقوى منها نفوذا ان لم تكن هى السائدة آنذاك .

---

(٢٤) كان السلطان مراد قد فرض التركية لغة رسمية عندما احتل بغداد ومنع أن تكتب عريضة واحدة بغيرها جريدة (العرب) البغدادية العدد — ٥ — من السنة الاولى

(٢٥) من مقال للشيخ محمد رضا الشبيبى فى جريدة (الزمان) البغدادية ٢٩ نيسان ١٩٥٠م

(٢٦) مقدمة ديوان الشيخ صالح التميمى الورقة ٢ من النسخة الخطية والمسك الاذفر لمحمود شكرى الالوسى ص ١٤٨

أما الموصــل فقد تململت فى القرن الثامن عشــر واستعادت شيئا من نشاطها الموروث وكان فيها علماء وشعراء لا يقلون عن اخوانهم فى النجف والحلة ، وهذا لا يعنى أن بغــداد فى القرن الثامن عشر كانت راكدة كل الركود وان كانت معاهد العلم فيها تخضع لرعاية الدولة وأوقافها فقد كانت اسرة الشاوى أقوى دعامة للمحافظة على الخصائص العربية فى بغداد وكان للعلماء والشعراء نصيب من احترامهــا وتقديرها وكان سليمان الشاوى فى طليعة الزعماء الذين حفلت مجالسهم بالشعراء بل كان هو نفسه شاعرا وكان الشيخ كاظم الازرى المتوفى ســنة ١٢١١هـ ١٧٩٦-١٧٩٧م شاعره الخاص غير أن مكانة بغداد وشهرتها لا يناسبهما ما كانت عليه من علم وأدب كالذى كان فى الحلة والنجف •

الشعر والنثر فى هذه المرحلة

كان الشعر فى هذه الفترة يتلفت الى الماضى فى بعض المواطن فيحاول الشاعر أن يأخذ بأساليب القدماء ولكنه لا يستطيع أن يزاحم الصف ليأخذ مكانه منه بل كان يهدف الى ذلك باذلاء أقصى الجهد فى الاطلاع على الادب القديم والاستعانة بما بقى من المخطوطات واستظهار ما يمكن استظهاره من الشعر العربى القديم وتبــدو مظاهر هــذه المحاولات فى التعابير والاوزان وفى الابتعاد ـ جهــد المستطاع ـ عن المحسنات التى طمست معالم الاصالة فى الشعر خــلال الفترة المظلمة ولــكنه كان فى معظم المواطن لا يســتطيع التخلص من أساليب العصور المظلمة فتطغى عليه المحسنات وتؤخره الركاكة عن سير القافلة • وقــد شــاع فى هــذه الفترة فن التخميس والتشطير وما يشاكلهما من الفنون ذات الصبغة المصطنعة •

أما من الناحية الموضوعية فان الشعراء لم يجددوا فى شىء ولم يخرجوا عن نطاق الشعر القديم من غزل ومدح ورثاء وحكم وأمثال الى جانب الشعر الدينى الذى شاع فى التصوف ومدائح النبى وآل البيت ومراثيهم وقد نظم فى هذه المدائح والمراثى معظم شعراء العراق •

وهذا الشعر الذى لم يزد على الموضوعات المعروفة لم يجدد أو يطور

فى الموضوعات نفسها فلم يخرج بالغزل والرثاء والمدح وغيرها عما كانت عليه فى العصور القديمة •

أما الشكوى من الحياة والتذمر من الزمن فان له فى شعر هذه الفترة نصا غير قليل ولكن اللون السياسى كان ضعيفا من الوجهة السلبية فالخطرات التى نظمها الشعراء فى مناوأة الحكم العثمانى لا تؤلف مجموعة ذات دلالة قوية على مجابهة الحكم من قبل الشعراء كالسلبية التى كانت تظهر من مجموع الشعب العراقى بين حين وآخر •

ومن أمثلة هذا الشعر ـ لا على سبيل الاختيار ـ قول شاعر هذه الفترة الشيخ كاظم الازرى من قصدة يمدح بها سليمان الشاوى

ان رمت توطئة المرام الاصعب   فاركب من الاقدام أخشن مركب

لا تكثرن من الشباب وذكره   أنت ابن يومك لا ابن ماضي الاحقب

وتلاف من قبل الفوات فربما   أعياك غمز العود بعد تصلب

ومنها

لا تعجبا لفساد كل صحيحة   فالناس فى زمن كجلد الأجرب

ما لليالى حاجة فى عاجز   يأبى المعرس فى هجير السبسب[٢٧]

وقد ورد لمدوحه سليمان الشاوى شعر فه بعض الحكم وهو دون مستوى هذا الشعر[٢٨] •

وينظم الشيخ حسين العشارى فى مدح (سعيد) كاتب الوالى المملوك

---

(٢٧) راجع ديوان الازرى ص ١٧ ـ ٢١

(٢٨) راجع (غاية المرام) الورقة ١٠٨

عمر[٢٩] سنة ١١٨١هـ ١٧٦٧-١٧٦٨م فيقول

يا صاحب القلم الاعلى الذى سعدت به الملوك فأغناهم عن السمر

جعلته سيف مولانا الرضا عمر لذاك سميته بالصارم العمرى[٣٠]

ويمدح الامام عليا • وقد رأى قبته المذهبة عند زيارته النجف سنة ١١٨٣هـ ١٧٦٩-١٧٧٠م فيقول

لقبة مولانا على أشعة تغشى على الابصار والأعين الدعج

فما هى الا برج فضل وقد بدا محيا أبى السبطين من ذلك البرج[٣١]

وللسيد أحمد فخرى الموصلى[٣٢] شعر فيه كثير من الاتجاهات الدينية ومنه قوله فى مدح الامام علىّ • ولعله قد زار النجف كما يظهر من القصيدة

لوينا عنان اليعملات لمشهد به قد ثوى كنز المكارم والفخر

أبو الحسنين الليث من آل غالب وغالب فرسان بأسيافه البتر

هو المرتضى للمصطفى وابن عمه وصاحبه والصنو فى العسر واليسر[٣٣]

---

(٢٩) راجع الهامش ١٧ من هذا التمهيد

(٣٠) ديوان العشارى ، الورقتان ٢٧ و٢٨

(٣١) المصدر السابق الورقة ١٧

(٣٢) كان مفتيا للموصل وقد توفى سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٥م

(٣٣) غاية المرام الورقة ٢٠٠

ومن شعر المدح ما قاله يحى بن مراد العمرى فى الوالى أحمد ابن حسن عندما قضى على بعض الثورات القبلية فى الشمال والجنوب

ألم تعلم الاعراب وقع سيوفكم	وفى كل قفر موحش لكم قبر
فمنتفق لمـــا أبـــدت نفاقهـــم	وفرقتهم فى البيد صرعى لهم عفر
وشمر لما شمروا الساق فى الوغى	غدوا ككلاب حين يلحقهم ذعر
وأمـا (بنــو لام) فكل يلومهـم	لما نابهم قتـل وحاق بهم أمر[٣٤]

ولا أرى حاجة للتعليق على لغة هذه الابيات وضعف نسجها وما فيها من تحامل على القبائل العربية من شاعر عربى فهى لغة بعض الشعراء ـ أو كثير منهم ـ فى العصر العثمانى •

ومن الشعر السـياسى المناوىء للحكم العثمانى قول مصطفى الغلامى الموصلى مستخدما بعض الالفاظ التركية

مـا قولـكم يا علمـا (أدرنـه)	فى زمن لا يشبه الازمنـــه
ترعـــد من أنفاســـه ركبتى	ويقشـعر الجلــد منـه سنه
هـــذا وذو كركـين أو ثالث	يقول (بوقيش صاو چقتر كنه)
والترك ان تدن لهـــم يبعدوا	يصحوا فى غلمانهـــم (قاوسنه)
وان أعـــزوك بألفاظهـــــم	كانت ـ وربالبيت ـ مستهجنه[٣٥]

(٣٤) شمامة العنبر لمحمد مصطفى الغلامى الورقة ٣٠

(٣٥) راجع هذه القصيدة فى (شمامة العنبر) الورقة ٥١ ــ ٥٢ وفى تأريخ الموصل لسليمان صائغ ص ١٣٣ و١٣٤ ج ٢ وقد حذفنا منها بعض الابيات

أما النثر فانه كان أحط من الشعر ، واذا استثنينا النثر الذى كتبت به
عموم الدينية فاننا لا نجد نثرا أدبيا يستطيع أن ينهض الى مسامات النثر
قديم فى أدنى عصوره فان مقدمات الكتب والرسائل ونثر الكتب التاريخية
بصا كان كل ذلك مثلا من أمثلة التهافت على اللفظ لا المعنى ، والعناية
بألوان البديعية المتكلفة السقمة ، ومن صور ذلك ما جاء للشيخ عبدالرحمن
سويدى[٣٦] فى (حديقة الزوراء)[٣٧] وهو يستعرض تاريخ فترة من
فترات القرن السابع عشر . قال تحت عنوان « فصل فى بيان عزوة
زبيد »[٣٨] .

« ... وهذه الغزوة تحتاج فى البيان الى بسط مقدمة وافية الايضاح
والبيان ... وهو أن هؤلاء الاشقياء ومن والاهم من أهل الفساد فى تلك
البيداء كآل جحيش وآل سعيد وآل عامر وآل خالد وآل دليم وآل نوفل
أظهروا الاعتزال وخرجوا على طاعة العمال ... »[٣٩] .

وقال فى ثورة خزاعة سنة ١١٠٥هـ ١٦٩٣م

كان صاحب المشورة على البغى والعصيان والمحرض للاعراب

---

(٣٦) توفى سنة ١٢٠٠هـ ١٧٨٦م
(٣٧) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا فى بضع نسخ توجد فى بغداد
(٣٨) كانت سنة ١١٠٦هـ ١٦٩٤هـ
(٣٩) على هامش العراق بين احتلالين للحاج وادى العطية ، ص ٩ .

على الفساد والطغيان والمحزب للاحزاب الخزعلى سلمان ... »[٤٠] .

هـذا النثر واضح فى ركته التى تلائم عصر المؤلف أما موضوعه فانه استعداء سافر على القبائل واتهام لهـا بالمروق والفسـاد على حـكام الدولة العثمانية الجائرين وليس هـذا بغريب على بعض رجال الدين الذين كانوا يؤيدون الولاة فى أعمالهم ومحاربتهم القبائل .

(٤٠) المصدر السابق ص ١٣ و١٤

الباب الأول

عوامل الشعر السياسى

فى القرن التاسع عشر

١ ـ الحالة السياسية في الدولة العثمانية عامة وفي العراق خاصة

٢ ـ الحالة الاجتماعية في العراق

٣ ـ الحالة العلمية ...

الفصل الاول

الحالة السياسية

القسم الأول

الحالة السياسية في الدولة العثمانية

السلاطين ونظام الحكم

بدأ القرن التاسع عشر وسلطان الدولة العثمانية سليم الثالث ، وانتهى حكمه بالقتل بعد الخلع سنة ١٢٢٢هـ ١٨٠٧م فخلفه مصطفى الرابع وكانت نهايته القتل أيضا سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م وجاء بعده محمود الثانى وانتهى حكمه سنة ١٢٥٥هـ ١٨٣٩م فتلاه عبدالمجيد ومات سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م وجاء بعده عبدالعزيز وخلع ومات سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م واسند الحكم الى مراد ولكن هذا لم يبق فى الحكم سوى بضعة أشهر فخلع وبويع بعده السلطان عبدالحميد الثانى .

سبعة سلاطين تداولوا الحكم العثمانى فى قرن واحد كان من أحفل القرون بالتطور فى العالم الغربى . ومن أشدها حركة ويقظة فى العالم الاسلامى فى حين كان جهاز الحكم فى الدولة العثمانية لا يتحرك الا ببطء وقد يتحرك يوما ولكنه يقف سنين .

سبعة سلاطين ليسوا على مثال واحد فى الحكم والتفكير ، بعضهم كان يميل الى العلم والعمل والاصلاح ، وبعضهم كان جامد الفكر تستحوذ عليه الرجعية المتعصبة ، فالسلطان سليم الثالث حاول الاصلاح وأرسل البعوث وشجع الطباعة وأسس المدارس وحدد مدة حكم الوالى فى أية ولاية بثلاث سنوات ولكن أعماله كانت تصطدم برجعية جامحة .

ومصطفى الرابع كان يسير فى ركاب الرجعيين الذين رفعوه الى العرش ثم قتلوه كما قتلوا سليما قبله .

ومحمود الثانى قضى على (الينيچرية) وغير زى الرأس بالطربوش

وأنشأ سفنا حربية ومسرحا يشرف عليه ايطاليون وأراد القضاء على الحركات الوهابية فلم ينجده غير الجيش المصرى وصمم على ابادة المماليك فى بغداد فتم له ذلك على يد جيوش معظمها من الارناؤود وحلب والموصل فى حين أضاع الصرب واليونان وأتاح للدول الاجنبية أن تتدخل فى شؤون حكومته وفسح المجال لتابعه محمد على والى مصر أن يحارب الدولة ثم مات نتيجة لادمانه الخمر(١) •

وأما عبدالمجيد فقد أعلن المساواة فى الحقوق بين المسلمين وغيرهم عام ١٨٣٩م ثم عام ١٨٥٦م ولكن ذلك كله لم يكن أكثر من كلام مسطور اذ كانت المساواة مفقودة حتى بين المسلمين أنفسهم وقد دفعته الحاجة الى الاقتراض من اوروبا •

وعبدالعزيز كان مبذرا متلافا أعطى الاجانب حرية التملك فى الدولة وانصرف الى اللهو والبذخ وحشد النساء فى القصر والاكثار من المغنيات والخدم والحواشى(٢) وألقى الدولة تحت عبء ثقيل من الديون(٣) • ولم يكن مراد سوى سلطان مختل العقل لا قدرة له على ادارة شؤون نفسه فضلا عن ادارة شؤون الدولة فلم يمكث فى الحكم أكثر من ثلاثة أشهر •

وداهية الدواهى عبدالحميد كان مستبدا موسوسا أعلن الدستور ثم طواه وحارب المفكرين والاحرار وأضاع سادة الدولة على الصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الاسود وقبرص ومعظم مقدونيا ، واستفحل فى عصره شأن الجاسوسية ، وأخمد كل جذوة من جذوات الحرية ثم غلف سلطانه بغلالة شفافة هى غلالة الجامعة الاسلامية يهدد بها خصومه فى الداخل والخارج وحشد لها حشدا كبيرا من الزعماء ومشايخ الطرق فى الحجاز والشام والعراق ونجد واليمن ومصر وطرابلس وتونس والمغرب وبعض زعماء

---

(١) تأريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣١ ج ٤ الترجمة العربية لنبيه أمين فارس ومنير البعلبكى

(٢) عبدالحميد من ولاية العهد الى المنفى لجلال نورى ص ٣٤ و٣٥ الترجمة العربية لابراهيم سليم النجار

(٣) مذكرات مدحة ص ٥٧ الترجمة العربية ليوسف كمال حتاته

الاكراد والارناؤود حتى صير الاستانة مكة ثانية[٤] في حين كان قصره حافلا بمئات الجوارى ، وكانت بطانته من الجواسيس والمنجمين[٥] ويده لا ترفع عن اغتصاب المزارع والمقاطعات وتسجيلها باسمه وتفويضها الى مقربيه[٦] ، ونفسه لا تنكمش من السماح لليهود بالتملك في العراق[٧] وأصابعه ـ وهى أصابع خليفة المسلمين ـ لا تتورع عن العزف[٨] ، وسجونه ومنافيه تضم بين جدرانها مئات من المفكرين المناوئين لسياسته .

فاذا تركنا السلاطين الى غيرهم فاننا لا نجد سوى أنماط وأشكال من الموظفين الذين لا هم لهم سوى جمع المال . الصدور هم الصدور والوزراء هم الوزراء ، والولاة هم الولاة لم يختلفوا عمن سبقهم في الجهل والنفاق .. وفي شراء المناصب ونهب الناس وسرقة الدولة ولا زجر ولا عقاب أكثر من النقل من مكان الى آخر ، والى جانب هؤلاء جنود يحملون البنادق للارهاب ، وجباة لا يحمى الناس منهم قانون ، وقضاة يعبثون وينهبون[٩] ويشيدون الدور من أموال الارامل واليتامى .

وقد بلغ التزاحم على الوظائف أشده وصار الموظفون من كبيرهم الى صغيرهم يأكل بعضهم بعضا وينافق بعضهم على بعض ينهبون ويرتشون ثم يقدمون ما نهبوا لموظفي الباب العالي طمعا في منصب أعلى أو وظيفة كبرى . وكانت الابواب مفتحة لكل من يقدم أكثر من غيره ولو كان جاهلا أميا حتى

---

(٤) حاضر العالم الاسلامي تأليف لوثروب ستودار ص ٣٠٩ الجزء الاول من الترجمة العربية لعجاج نويهض

(٥) كان للمنجمين رئيس راجع (الزوراء) العدد ٦٠٥ السنة السابعة

(٦) أخذ مقاطعة كبيرة في شمال العراق وفوضها الى أحد اليونان راجع جريدة (اليقظة) البغدادية العدد ٧٥٤ الصادر بتأريخ ١٩ـ٢ـ١٩٥٠م

(٧) بواعث الحرب العالمية الاولى في الشرق الادنى لجان بيشون ص ١١٩ من الترجمة العربية لمحمد عزة دروزة

(٨) كان مغرما بالبيانو الذى اهدى اليه من امبراطور ألمانيا راجع (الانقلاب العثماني) لجرجي زيدان ص ٥٨ طبعة ١٩٥٠

(٩) غرائب الاغراب لابى الثناء الالوسى ص ٤٢٢ ومطالع السعود الورقة ١٠٠

صار لكل ولاية خمسة ولاة أربعة معزولون يقبضون مرتب العزل وواحد فى وظيفته ينتظر نهايته ليخلفه صاحب القرعة ، ومثلهم المتصرفون ومن دونهم حتى امتلأت خانات الاستانة وفنادقها بالمعزولين وطلاب الوظائف ، وصار من المألوف فى الدولة ـ من اليمن الى إزمير ـ أن يتبدل شكل الحكم مرة أو مرتين فى العام حتى فى القرية الواحدة[١٠] . والمحكومون غارقون فى الجهل والذل يؤدون ما عليهم ولو كان ببيع القدر والاناء والزاد والراحلة ، وصار الحاكم يظلم بلا وازع ، والمحكوم يُظلم وليس له من شفيع وقد سدت أبواب الشكوى دونه[١١] فاذا ثار أحد أو طالب بالحق قوبل بالسيف والنار والتدمير والخراب[١٢] ، وأشباه الامين ممن سموا أنفسهم رجال دين يتنافسون على الالقاب والرتب والاوسمة ويمالئون السلطان ويسبون من لم يعلن له الطاعة والخضوع ، والتكايا[١٣] والربط وزوايا المتصوفين ومشايخ الطرق كأنها أوكار البوم ومساكن النمل يزحف بعضها فوق بعض ولا هم لها غير التخدير والتنويم وبيع الوظائف لمن يثق بالطوالع والنجوم[١٤] وما أكثر هؤلاء فى الدولة حتى زهد الناس فى العمل وانصرفوا الى الخمول واعتادوا العطالة والجوع ، وعبارات مصطنعة من التفخيم والملق والعبودية تطغى على ألسنة المتملقين من رجال الدين والكتاب والشعراء والسماسرة الذين لا يحسنون غير الكذب والدجل[١٥] وسلطان لا يحترم موظفيه ، وموظفون ينحنون أمام السلطان ولكنهم يحقر بعضهم بعضا وينحني بعضهم لبعض على اختلاف درجاتهم ومراكزهم . وحروب فى الداخل والخارج عرضت الدولة للتمزيق والتقسيم فى أوروبا وآسيا

---

(١٠) مذكرات مدحة ص ٢٣٤

(١١) من أمير الى سلطان لمصطفى فاضل ص ١١ من الترجمة العربية لاحمد فتحى زغلول

(١٢) مذكرات مدحة ص ٢٣٤

(١٣) كان فى الاستانة وحدها ٢٦٠ تكية راجع حاضر العالم الاسلامى ص ٢٢٩ ج ١

(١٤) راجع غرائب الاغتراب ص ١٨٨

(١٥) راجع مذكرات مدحة ص ٢١٦

وافريقيا ، وفتن وثورات فى كل مكان ، وتحريض للعناصر والطوائف بعضها على بعض وضرب العربى بالتركى والارمنى بالكردى[١٦] والعربى بالارناؤودى ، والرومى بالكاثوليكى ، والمسلم بالنصرانى، والشيعى بالسنى[١٧] ، والعربى بالعربى بل ضرب السورى بالسورى والعراقى بالعراقى . وكانت حروب الدولة فى الخارج مع روسيا والنمسا وغيرهما وهى لا ترى سلاحا تحارب به هذه الدول غير التهديد بالجامعة الاسلامية وما الجامعة الاسلامية الا وبال على المسلمين فقد تقاسمتهم بسببها انكلترا وفرنسا وايطاليا وروسيا ولم يستفد المسلمون من هذه الدولة شيئا حتى يساعدوها فى كل حادثة وان ساعدوها فى أكثر الحوادث[١٨] .

وقد أدى هذا الفساد المستشرى الى ثورات عارمة فى كل أنحاء الدولة كما أدى الى ظهور مفكرين مصلحين فى البلاد التركية نفسها وفى الشرق العربى ولكن صيحات هؤلاء كانت أخف من طنين الذباب على مسمع السلطان وبطانته ، وقد استمرت الرجعية فى سطوتها وقوتها غير مكترثة بالنذر حتى هبت العاصفة الطورانية وقضت على الجامعتين الاسلامية والعثمانية[١٩] .

أهم الحروب والحوادث

تعرضت الدولة العثمانية لمشكلات خطيرة فى القرن التاسع عشر وواجهت حروبا وحوادث لم تكن هينة سهلة ، وكانت لهذه المشكلات والحروب والحوادث أسباب وعوامل ليس من السهل استقصاؤها بل ليس

---

(١٦) أنشأ عبدالحميد كتيبة من الاكراد ليحارب بها الارمن

(١٧) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ص ٥٠٥ ج ٢

(١٨) المصدر السابق ص ٥١٣

(١٩) الجامعة العثمانية يشترك فيها كل أتباع الدولة ورعاياها وهى نافعة لها فى حروبها الداخلية اما الطورانية فهى اعتزاز بالتركية لغة وجنسا وقد صارت مقابلة للجامعة الاسلامية النافعة للسلطان راجع جريدة (الاساس) القاهرية العدد ٩١٣ من السنة الثالثة الصادر بتأريخ ١٩ـ٥ـ١٩٥٠م من مقال لعباس محمود العقاد

من السهل استقصاء تلك الحروب والحوادث جميعها فى بحث أدبى لا يتعرض للتاريخ الا فى حدود ما يتصل به ولا يتناول الحوادث السياسية الا بمقدار ما تدعو الحاجة اليه ، ومحاولة الربط بين الاثنين هنا لا تعنى أكثر من عرض أهم الحوادث التى استجاب لها الشعر وتناولها شعراء العراق فقد كان من حروب الدولة وحوادثها ما له صلة بالشعر العراقى ولكنها صلة لا تسمى انعكاسا لتلك الحروب والحوادث أو أثرا لها ، ومنها ما كان ذا أثر واضح فى الشعر وتوجيه الشعراء ، ويعود السبب فى الناحية الاولى الى بعد تلك الحروب والحوادث عن العراقيين ، وفى الثانية الى احتكاك بعض الحروب والحوادث بالعراق نفسه •

الحرب مع روسيا

سجلت بداية القرن التاسع عشر حربا مع روسا سنة **١٨٠٩-١٨١٢م** ثم تجددت الحرب سنة **١٨٢٨م** بسبب ثورة اليونان التى ناصرتها روسا وانتهت هذه الحرب بمعاهدة (أدرنة) سنة **١٨٢٩م** • وكانت حرب القرم سنة **١٢٧١هـ ١٨٥٥م** من أشهر الحروب بين الدولة العثمانية وروسيا ولعل من أسبابها الهامة تنافس روسيا وفرنسا على الحماية الدينية فى القدس فقد كانت الاولى تدعم الارثوذكس ، والثانية تحمى الكاثوليك الذين تؤيدهم الدولة العثمانية ، ولهذا السبب تدخلت انكلترا وفرسا الى جانب الدولة العثمانية خوفا من زحف الروس ، وقد هوجم الجيش الروسى فى شبه جزيرة (القرم) واندحر أمام أساطيل انكلترا وفرنسا بعد أن كاد يصل الى الاستانة ، وسقطت قلعة (سواستيبول) بيد الدولة العثمانية وحلفائها فى السنة نفسها[٢٠] • ولكن روسيا لم تبق صامتة فقد عادت الى الحرب سنة **١٨٧٧م** واشتركت معها رومانيا التى أعلنت استقلالها التام عن الدولة العثمانية آنذاك • وانتهت هذه الحرب بعقد الهدنة فى (أدرنة) سنة **١٨٧٨م** •

وقد نتج عن هذه الحروب المستمرة انفصال كثير من أجزاء الدولة

(٢٠) تأريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٥ ج ٤

العثمانية كبلغاريا ورومانيا والجبل الاسود والصرب واليونان • وجعل البوسنة والهرسك تحت اشراف النمسا وقد احتلتهما بجيوشها بعد ذلك •

مع اليونان وجيرانهم :

كانت ثورة اليونان سنة ١٨٢١م من الثورات التى كلفت الدولة جهودا شاقة فقابلتها بالسلاح مدة طويلة ، وكانت الدول الاوروبية ولاسيما روسيا تشجع اليونان على هذه الثورة[٢١] التى استمرت بحروبها وحوادثها ومن أشهرها حرب (المورة) سنة ١٨٢٦م وقد أسهمت بها الجيوش المصرية وساعدت باسطولها أساطيل الدولة العثمانية وحوصر الثوار وسقطت أثينا بيد الجيش العثمانى فى حزيران سنة ١٨٢٧م ولكن الحلف الثلاثى الذى عقدته انكلترا وروسيا وبروسيا فى السنة نفسها لتحرير الشعب اليونانى حال بين القوة المصرية وبين أى عمل عسكرى جديد وقد دمرت أساطيل هذا الحلف اسطول الدولة العثمانية تدميرا كاملا[٢٢] • ثم أعقبه اعلان روسيا الحرب على الدولة سنة ١٨٢٨م انتصارا لليونان حتى نالتا ستقلالها سنة ١٨٣٠م • غير أن اليونان لم تهدأ وانما أخذت تحرض جيرانها على الثورة فوقعت بينها وبين الدولة العثمانية معارك اخرى ومن أهمها ما حدث سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٧م وكان سبب هذه الحرب تحريض اليونان لسكان (كريد) فى السنة نفسها بسبب ضغط الدول الاوروبية فعين أحد الامراء اليونانيين حاكما عليها[٢٣] •

مع محمد على الكبير

لم تكن ثورة محمد على والى مصر على السلطان المتبوع ثورة انفصالية مجردة وانما كانت تهدف الى أكثر من ذلك حين اندفعت جيوش مصر

---

(٢١) كان بعض شعراء الغرب وكتابه أمثال (بيرون) الشاعر الانكليزى و (فيكتور هوغو) الشاعر الفرنسى من المؤيدين لهذه الثورة باشعارهما الحماسية

(٢٢) تأريخ الشعوب الاسلامية ص ٨ ج ٤

(٢٣) راجع تأريخ الاتراك العثمانيين ص ٦٣ ج ٣

لاحتلال السواحل السورية سنة ١٨٣٢م وعبرت الأرض السورية فاحتلت (قونية) وبلغت (كوتاهية) حتى اضطر السلطان محمود الثانى الى الاستنجاد بالعدو التقليدى وهو روسيا ، ووصل الاسطول الروسى الى (البسفور) غير أن هذا العمل استفز انكلترا وفرنسا والنمسا وعقدت اتفاقية (كوتاهية) بين الدولة العثمانية وبين محمد على بالحاح من هذه الدول لتعود قوة روسيا من حيث أتت[٢٤] ولكن الحرب عادت بين التابع والمتبوع سنة ١٨٣٩م ووقفت فرنسا الى جانب مصر التى احتل جيشها (نصيبين) فى السنة نفسها ثم وقفت الحرب بسبب تدخل انكلترا وعقد مؤتمر (لندن) سنة ١٢٥٦هـ ١٨٤٠م فأكرهت الجيوش المصرية على الخروج من سوريا[٢٥] .

مع الوهابين

كانت نجد خلال الاحتلال العثمانى للاقطار العربية لم تخضع الخضوع المطلق للحكام والسلاطين من الاتراك[٢٦] لذلك بقيت شبه مستقلة ولكنها مع هذا الاستقلال الذى يتعهده شيوخ البدو الرحل ورؤساء القبائل كانت مسرحا للفتن والحروب القبلية والغزو والنهب وكل ما تفرضه الحياة البدوية ، وكانت الى جانب خصائصها الموروثة من صدق وكرم ونجدة مرتعا خصبا للخرافات والعقائد الفاسدة كغيرها من الاقطار الاسلامية ، فالتبرك بالاحجار والاشجار والقبور والنذر لهذه كلها ، والاستعاذة بالجن والذبح لهم من أجل شفاء المرضى ، وعدم التسمية على ما يذبح ليتم الشفاء[٢٧] وما الى ذلك من الخرافات كان كله شائعا فى هذا القطر العربى الذى انتشر فيه الجهل كما انتشر فى غيره من الاقطار العربية . وفى هذه القطر ظهرت

---

(٢٤) المسألة الشرقية لمصطفى كامل ص ٩٠ ـ ٩١

(٢٥) تأريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥ ـ٣٦ ج ٤

(٢٦) لم يستطع العثمانيون بسط سلطانهم ونفوذهم الا على الاماكن المقدسة فى الحجاز

(٢٧) عنوان المجد لعثمان بن بشر ص ٦ ـ ٧ ج ١ و (جزيرة العرب فى القرن العشرين) لحافظ وهبه ص ٣٣٦ الطبعة الاولى .

الدعوة الوهابية التى لم تكن جديدة على الدين الاسلامى ولكنها كانت جديدة على الدولة العثمانية وعلى السلطان نفسه •

ظهرت هذه الدعوة فلم يلتفت اليهـا فى بادىء الامر ولكنها تطورت فاستفزت الدولة استفزازا شديدا[٢٨] وأقلقت السلطان فاستنفر لها جيوشه وأتباعه وألب عليها رجال الدين واستثار عليهـا جميع المسلمين من مختلف العناصر والاجناس حتى وقعت الحروب الكثيرة وأريقت الدماء من العرب سنين عدة •

مؤسس الدعوة الوهابية ومبادئه :

كان رأس هذه الدعوة محمد بن عبدالوهاب النجدى[٢٩] وقـد بدأ حياته العلمية فى تنقل بين نجد والحجاز والعراق وايران • وقرأ على أبيه الفقه الحنبلى ودافع بشدة عن مـبدأ الاخذ بالحديث والاعتماد عليه مناوئا الاخذ بالرأى ، ودرس مؤلفات ابن تيمة وانتهت به الدراسة الى الاعتقاد بأن الاسلام فى عصره مشوب بالمساوىء[٣٠] ، وقد جمع خلاصة دعوته فى مؤلفاته العدة ومنها (كتاب التوحيد)[٣١] و (تفسير القرآن) و (كشف الشبهات) وغير ذلك من الفتاوى والرسائل التى ضمنهـا آراءه ومعتقداته من وجوب العودة الى القرآن والسنة ، وهدم القبور وتحريم زيارتها والذبح لها ، والتوسل بالاولياء والصالحين الذين يعتقد المسلمون بقداستهم ، وكان يعتقد كفر من يفعـل ذلك • فالتوجه الى الصالحين بالدعـاء شرك أكبر ، والتسمية بما عبد لغير الله حرام ، وتعليق التمـمة شرك ، وان كلمة (لا اله الا الله) وحدها لا تحرم المال والدم من قائلها ما لم يقل بكفر من كفرهم

---

(٢٨) كانت التقارير قد وصلت الى الدولة من شريف مكة سـنة ١١٦٢هـ ١٧٤٩م وهى أول ما وصل الدولة عن هذا المذهب راجع (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩١ المجلد الاول

(٢٩) ولد عام ١١١٥هـ ١٧٠٣م فى بلدة العيينة وتوفى عام ١٢٠٦هـ ١٧٩٢م •

(٣٠) راجع تأريخ الشعوب الاسلامية ص ١٨ و١٩ ج ٤

(٣١) طبع هذا الـكتاب أكثر من مرة

هو[٣٢] فمن أطاع فقد سلم ومن أبى فقد حل دمه وماله[٣٣] .

اتصل محمد بن عبدالوهاب ببعض الرؤساء ودعاهم الى تأييده فلم يستجيبوا له فاتجه الى (الدرعية) واتصل بمحمد بن سعود فأيده وتزوج ابنته[٣٤] . ثم كتب الى رؤساء نجد وقضاتها أن يطيعوه فمنهم من أجاب ومنهم من سخر به واستهزأ ولكنه مع ذلك بقى المشير الاكبر لابن سعود ، ولما مات محمد بن سعود سنة **١١٧٩هـ ١٧٦٥م** تولى قيادة الدعوة عبدالعزيز ابن محمد ولم تكد تمر بضع سنوات حتى كانت الغارات الوهابية تشن على أنحاء نجد وغيرها وتغنم كل ما وقعت عليه يدها من أموال المغلوبين وأمتعتهم ومواشيهم حتى ملئت الدرعية بالغنائم الكثيرة وصارت تباع فى سوقها خلال مواسم البيع[٣٥] .

الحرب فى المرحلة الاولى :[٣٦]

ان أول حرب قام بها الوهابيون خارج ديارهم ـ بعد تأسيس الحكم ـ كانت مع بنى خالد فى الاحساء[٣٧] بعد أن استولوا على الرياض وحريملا . وكانت المعركة الكبيرة مع بنى خالد سنة **١٢٠٧هـ ١٧٩٣م** وفيها انتصر سعود ابن عبدالعزيز على بنى خالد وخضع له أهل الاحساء .

وأخذت الغزوات الوهابية تشتد على العراق والحجاز وكان شرفاء

---

(٣٢) راجع (كتاب التوحيد) لمحمد بن عبدالوهاب ص ١٠ و١٤ و١٥ و١٦ و٤١ و٧٣ طبعة دار الكتب العربية ومطبعتها بمصر
(٣٣) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٤١
(٣٤) Baghdad the city of peace. p. 234.
(٣٥) راجع عنوان المجد لابن بشر ص ١٣ ج ١
(٣٦) ينقسم الحكم السعودى الى ثلاث مراحل الاولى تبدأ بتأسيس الحكم فى الدرعية الى هجوم الجيش المصرى ، والثانية تبدأ باسترداد تركى وفيصل الحكم وجعل الرياض عاصمة وتنتهى بغزو ابن رشيد سنة ١٨٩٦م والثانية تبدأ من سنة ١٩٠٢م
(٣٧) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٢٠١

مكة يحاربون من جانب[٣٨] وقبائل العراق تحارب من جانب آخر[٣٩] وسهول نجد تتحرك بين الحين والحين •

ولقد شق على الدولة هجوم الوهابيين على كربلاء سنة ١٨٠٢م وهجومهم على المدينة سنة ١٨٠٣م لما تخلل هاتين الحادثتين من قتل ونهب واعتداء على الاضرحة المقدسة وانتزاع ما عليها من الذخائر والتحف • وكانت حادثة الهجوم على المدينة أشد تأثيرا على البلاد الاسلامية لما فيها من تجاوز على المرقد النبوى[٤٠] •

ولم تقف الحوادث الوهابية عند هذا الحد ولم يؤثر فيها مقتل عبدالعزيز بن محمد[٤١] ، فقد ولى الامر من بعده ابنه سعود وأخذ يوجه الحملات ذات اليمين وذات الشمال فى نجد والحجاز والعراق وجنوب سوريا ، وكانت أهم حادثة وقعت فى أيامه فشقت على الدولة هدم القباب فى المدينة[٤٢] عام ١٢٢٠هـ ١٨٠٨م ولما تفاقم خطر الوهابيين اهتمت الدولة أيما اهتمام للقضاء على هذا الخطر ، وفى سنة ١٢٢٦هـ ١٨١٢م طلبت من محمد على الكبير[٤٣] والى مصر أن يستعد لمحاربة الوهابيين وأن يجهز جيشا كافيا لذلك •

---

(٣٨) حدثت معارك متكررة بين شرفاء مكة والوهابيين • منها ما حدث سنة ١٧٩٠م ومنها سنة ١٢١٠هـ ١٧٩٦م • وأهمها ما حدث سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٨م وقد شارك الشرفاء كثير من المصريين والمغاربة الى جانب أهل الحجاز

(٣٩) سيأتى فى القسم الثانى تفصيل ما يتصل بالعراق من هذه الحوادث

(٤٠) راجع تأريخ الشعوب الاسلامية – ص ٢١ ج ٤ ودائرة المعارف الاسلامية ج ٥ م ٥

(٤١) كان قتله فى رجب سنة ١٢١٨هـ ١٨٠٣م راجع (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٢٣ – ١٢٤ ج ١

(٤٢) راجع – عنوان المجد – لابن بشر ص ١٣٥ ج ١

(٤٣) كان الامر قد تم لمحمدعلى سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٧م وقد أقره السلطان على ولاية مصر

الحملة المصرية :

توجه جيش مصرى بقيادة أحمد طوسون[٤٤] وابراهيم ولدى محمد على ووصل الى الحجاز فاحتـل مكة والمدينة بين سنتى ١٢٢٧هـ و١٢٢٨هـ وارسـلت مفاتيح الحجرة النبوية الى الاسـتانة وخرج السـلطان وحاشيته لاسـتقبالها[٤٥] وسـافر محمد على بنفسـه الى مكة[٤٦] ليشـــهد زحف قواته • وفى سنة ١٢٢٩هـ توفى سـعود بن عبدالعزيز فخلفه ابنــه عبدالله وقاد الجيوش بنفسه غير أن المعارك الطاحنة كانت تنكشف دائما عن انتصار المصريين • وانتهى المطاف الى احتلال الدرعية عاصمة السعوديين آنذاك وما كادت سنة ١٢٣٣هـ ١٨١٨م تنتهى حتى كان عبدالله بن سعود قد طلب الصلح فحمل الى مصر ثم الى الاستانة حيث شنق[٤٧] •

المرحلة الثانية

بعد أن تم الانتصار للجيش المصرى أمر جميع آل سعود وأبناء الشيخ محمد بن عبدالوهاب أن يرتحلوا بأهلهم الى مصر ولم يهرب منهم الا القليل ومن هؤلاء الهاربين تركى بن عبدالله[٤٨] وقد اغتنم هـذا فرصة انسحاب الجيش المصرى من الحجاز ونجد فجمع قواه واحتل الرياض وأقام فيهـا

---

(٤٤) فى الخامس من صفر سنة ١٢٢٦هـ قلـــد طوسون السيف المرسل اليه من السلطان لهذه الغاية راجع ـ (التوفيقات الالهامية) لمحمد مختار ص ٦١٣ الطبعة الاولى

(٤٥) مطالع السعود ـ الورقة ٩٦ وجاء فى (مباحث عراقية) ليعقوب سركيس ص ٢٢ من الجزء الاول ما يلى « فى الخامس والعشرين من رجب سنة ١٢٢٨هـ ١٨١٣م قرىء فى البصرة فرمان بانتصار محمدعلى والي مصـــر على الوهابى ودعى للسلطان محمود واقيمت الافراح ســـبعة أيام »

(٤٦) كان سفره فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٢٨هـ ٢٥ آب (أغسطس) ١٨١٣م

(٤٧) كان شنقه هو ومن معه فى ١٧ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٨١٨م راجع ـ (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩٤ من المجلد الاول

(٤٨) تركى بن عبدالله بن محمد بن سعود وابوه عبدالله شقيق عبدالعزيز بن محمد

حتى قتل سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٤م[٤٩] وكان ابنه فيصل في القطيف فلما سمع بقتل أبيه عاد الى الرياض واحتلها وقتل قاتل أبيه • ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى وافاه جيش مصري بقيادة اسماعيل آغا وخالد بن سعود وكان هذا منفيا في مصر مع المنفيين فاحتل الجيش الرياض وسيق فيصل بن تركي الى مصر سنة ١٢٥٤هـ[٥٠] ولكنه استطاع أن يهرب سنة ١٢٥٩هـ من مصر ليعود الى الرياض فاستقر فيها وكتب الى البلدان المجاورة يدعو أهلها الى الطاعة[٥١] واعترف بسيادة الاتراك وفاوض الانكليز سنة ١٨٦٢م لتوطيد صلات المودة والصداقة[٥٢] بين البلدين وتوفي سنة ١٢٨٢هـ ١٨٦٦م وترك أربعة أولاد منهم سعود وعبدالله ولكن هذين الاخوين اختلفا في طريقة الحكم فقد كان عبدالله يريد استرجاع النفوذ السعودي بدون مناوأة الدولة العثمانية وكان معتدلا في أعماله لا يرى حاجة الى نشر الدعوة الوهابية بمثل ما دعا اليها أسلافه[٥٣] ، غير أن أخاه سعودا كان لا يرى هذا الرأي فهرب الى عسير خوفا من أخيه ثم عاد بقوة كبيرة في سنة ١٢٨٦هـ ١٨٦٩م وحارب أخاه عبدالله وانتصر عليه داخل قلاع الاحساء والقطيف[٥٤] ثم اتجه الى الرياض مقر أخيه فلم يجد هذا وسيلة غير طلب النجدة من والي بغداد وكان يومئذ (مدحة) فكتب هذا الى الدولة أيام السلطان عبدالعزيز وجاءه الرد بأن يحارب سعودا فسير حملة كبرى في سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م واحتل الاحساء والقطيف وفر سعود مع أعوانه[٥٥] •

---

(٤٩) قتله ابن اخته مشاري بن عبدالرحمن (عنوان المجد) لابن بشر ص ٤٨ ج ٢

(٥٠) المصدر السابق ص ٨٤

(٥١) راجع كتابه في ص ١٠٣ ـ ١٠٥ من عنوان المجد لابن بشر ج ٢

(٥٢) كانت مفاوضته مع (بيلي) المقيم السياسي في بوشير راجع (جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٢٦٢

(٥٣) مذكرات مدحة ص ١٧٣

(٥٤) راجع المصدر السابق والصفحة نفسها وفيها اشارة الى ان سعودا ذهب الى الهند للاستعانة بالانكليز

(٥٥) ستأتي تفاصيل هذه الحملة في القسم الثاني

لم تكتف الدولة العثمانية بحملاتها العسكرية لمحاربة الوهابيين بل استعانت بحملات دينية ضخمة قامت فى وجه الدعوة الوهابية وقد استمرت هذه الحملات طوال القرن التاسع عشر وكان بعضها مراعاة لشعور السلطان (٥٦) وبعضها عن عقيدة خالصة ، وكان من الطبيعى أن يثور رجال الدين فى وجه هذه الدعوة التى زيفت العقائد وحرمت من الاعمال ما اعتاده المسلمون معتقدين مشروعيته •

وكان من الطبيعى أن يثور هؤلاء حين يرون الايدى الوهابية تمتد الى الاضرحة والقبور فتهدم وتأخذ الحلى والنفائس وأن تزيل ما على قبر الرسول الكريم من تحف وقناديل وأن يمنع الوهابيون زيارة القبور ويكفروا من لم يكفر الزوار(٥٧) ويعدوا جميع من يقدسون النبى وآل البيت والاولياء والصالحين فى عداد المارقين غير المؤمنين(٥٨) •

ولهذه الاسباب كانت الحملات الدينة ترد الكيل بمثله ، وقد بدأ الهجوم الشيخ سليمان بن عبدالوهاب شقيق صاحب الدعوة ، وتبعه آخرون فى الاحساء والعراق وغيرهما • وكان أبو الثناء الالوسى فى بغداد يرى فى الدعوة الوهابية أنها بدعة تسود القلوب(٥٩) ، كما تصدى لها علماء الشيعة بالرد والطعن ، وكانت ثورة القبائل ضدها لا تقل عن أية ثورة سياسية أو دينية •

---

(٥٦) لقد شق على السلطان ان تبطل الخطبة باسمه وشق عليه أيضا ان يمنع الحجاج القادمون من البلاد العثمانية وفيهم احدى قريباته من دخول مكة راجع (دائرة المعارف الاسلامية) ص ١٩٢ من المجلد الاول و (جزيرة العرب فى القرن العشرين) ص ٢٥٢

(٥٧) راجع (الصواعق الالهية فى الرد على الوهابية) للشيخ سليمان بن عبدالوهاب ص ١٠ الطبعة الثانية

(٥٨) Modern trends in islam. by A. R. gibb. p. 26—31. 2 *nd*

(٥٩) راجع (غرائب الاغتراب) ص ١٤

القسم الثاني

الحالة السياسية في العراق

كان العراق فى القرن التاسع عشر ينقسم الى ثلاث ولايات هى بغداد والموصل والبصرة • ولكن هذا التقسيم لم يكن مستمرا فيما عدا بغداد ثم استقر فى الربع الاخير حتى نهاية الاتراك • ولقد مر على هـذه الولايات الثلاث طوران من أطوار الحـكم لا يفترقان فى شيء من خصائصه ولكنهما يختلفان فى نوع الحكام وتباينهم من حيث الاجناس والشعوب • فقد كانت بغـداد تخضع لحكم امتدادى وهو حكم المماليك الذى ابتـدأ فى منتصف القرن الثامن عشر ثم انتهى سنة ١٨٣١م وارجعت بغداد الى الحكم التركى المباشر ولكنها لم تحكم من قبل وال عراقى قط •

وكانت الموصل تخضع لحكم امتدادى أيضا وهو حكم الاسرة الجليلية الموصلية[٦٠] ثم انتهى هـذا الحكم سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م وأخضعت للحكم التركى المباشر[٦١] • أما البصرة فقد استقبلت القرن التاسع عشر بموظفين من المماليك تابعين لوالى بغداد وبقيت تابعة بعد نهاية المماليك ثم تحولت الى مركز ولايـة سـنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م ومرت بأطوار مختلفـة من الصعود والهبوط فى شكل الحكم[٦٢] •

---

(٦٠) تنتسب هذه الاسرة الى عبدالجليل وهو من ديار بكر وأول من ولى الموصل فيها اسماعيل بن عبدالجليل سنة ١١٣٩هـ ١٧٢٦م

(٦١) بقيت الموصل ولاية حتى سنة ١٨٥٠م فانزلت الى درجـة متصرفية تابعة لبغداد ثم عادت الى مركز ولاية سنة ١٨٧٩م والحقت بها السليمانية مقر امارة البابانيين وكان هؤلاء قد انتهى نفوذهم سنة ١٨٥٠م

(٦٢) هبطت الى درجة متصرفية سنة ١٢٧٩م ١٨٦٢م ثم عادت الى مركز ولاية فى سنة ١٢٩١هـ ١٨٧٥م ثم هبطت الى درجة متصرفية حتى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٤م فاعيدت الى مركز ولاية وبقيت كذلك حتى نهاية الحـكم التركى

الولاية الكبرى والمماليك :

لقد تعمدت أن أسمى بغداد بالولاية الكبرى لانها محور الدائرة وبؤرة العدسة ، ولانها حافظت على مركزها الرسمى من صفة الولاية ونفوذ الولاة على بقية الحكام فى العراق • ولعل تاريخها السياسى والاحداث التى مرت بها أوضح صورة لاستجلاء الحكم العثمانى فى العراق ومعرفة أساليبه وألوانه • وليس معنى ذلك أن ما عداها غير واضح فى مباحث التاريخ لكنها ــ وهى مركز الثقل ــ كانت أكثر نصيبا من عناية المؤرخين • لذلك رأيت أن أتخذ هذه الولاية أهم موضوع لبحث الحالة السياسية فى العراق ابان القرن التاسع عشر •

شاهدت بغداد فى القرن التاسع عشر ولاة لم يكن من الهين على العراق أن يغفر للزمن خطأه فى فرضهم وتسليطهم ، اذ لم تكن لهؤلاء الولاة صفة الحاكم الذى ينسجم مع المحكومين وطباعهم وعاداتهم ، ولم تكن لهؤلاء الولاة حسنات ذات شأن فى العد والحساب الى جانب السيئات التى ضاق بها التاريخ ، وحين يتسلسل المرء مع هؤلاء الولاة من بداية القرن الى نهايته لا يلبث أن يقول ما يريد فى وصف الحكم حين يصل الى أدنى مظاهره وأحطها ، ولعله قد يعثر بما يرضيه من بعضهم أو قد يعجب ببعض ما يقرأ من أعمال نافعة قام بها بعضهم ولكنه سيحد من رضاه ومن اعجابه اذا عرف أن هؤلاء الولاة لم يكونوا سوى مماليك أو أتراك أو من أجناس أخر ليست من العرب والعراق • وأنهم لم ينصرفوا الا الى جمع المال لانفسهم وأهليهم ومقربيهم ، وتوزيع الارضين الزراعية على من يتصل بهم من ذوى الحظوة والقوة •

وكان المماليك أوضح صورة لهذا النوع من الحكم الى جانب ما انفردوا به من القتل والاغتيال وسوء السير وفساد الاخلاق • فقد كان بعضهم يقتل بعضا طمعا بالحكم وشغفا بالمناصب حتى تعبوا وأتعبوا العراق معهم ، وانتهوا كما تنتهى العاصفة لا ليعقبها هدوء بل لتخلفها عاصفة اخرى مثلها !!

واذا كانت ولاية بغداد فى بداية القرن المذكور تمتد من منطقة الاكراد فيما وراء ماردين شمالا الى مصب شط العرب فى جنوب البصرة فان من الطبيعى أن تكون مطمح هؤلاء ومسرح فتنهم وحروبهم فيما بينهم •

وكانت بغداد نفسها قد ألفت ـ مكرهة ـ هذه الفتن والحروب الداخلة بين المماليك وأنصارهم ، ولم يكد يمر عام من الاعوام دون فتنة وخوف وذعر ومجاعة بسبب هذه الفتن التى كان يسببها الطمع والتهالك على المناصب • واذا كان سليمان الكبير المملوك قد مات موتا فى سنة ١٨٠٢م فان الولاة الذين جاؤا بعده قد انتهت حياتهم بالقتل[٦٣] ولم يسلم منهم الا داود المملوك الاخير •

وكانت قلعة بغداد هدف الطامحين الى منصب الولاية فاذا أحس أحد المماليك من نفسه القدرة على الوصول الى الحكم جمع أنصاره من المماليك والعرب وهجم على القلعة وقتل من فيها ثم تتبع الوالى الحاكم فقتله واستقر فى مكانه ، وقد يستعين بالمال يرسله الى السلطان ليقره فى منصبه أو يجمع تركة من سبقه ويبعث بها الى الدولة ، وقد يستعين بالمقيم البريطانى فى بغداد ليتوسط له لدى الباب العالى لاقراره فى منصب الولاية ، وقد حدث هذا كله للكتخدا (على) الذى خلف سليمان الكبير[٦٤] • أما داود المملوك الاخير فقد استفاد من صيرفى يهودى فى الوصول الى منصب الولاية[٦٥] •

وبمثل هذه الاساليب كان المماليك يصلون الى الحكم الذى وطدوه بالقوة والسلاح وباستخدام الاجانب فى تدريب الجنود[٦٦] ، على أن بعضهم

(٦٣) حين مات سليمان الكبير ولى الحكم بعده صهره الكتخدا على اثر فتنة كبيرة ثم قتل سنة ١٢٢٢هـ ٧ ـ ١٨٠٨م وخلفه صهره سليمان الصغير وقتل سنة ١٨١٠م ثم عبدالله وقتل سنة ١٨١٣م ثم سعيد بن سليمان وقتل على يد كتخداه داود سنة ١٢٣٢هـ ١٨١٧م

(٦٤) راجع (المماليك فى العراق ، لاحمد على الصوفى ص ٨٩ ـ ٩١

(٦٥) راجع التفاصيل فى (تأريخ المماليك) لسليمان فائق الورقة ١٣ و Baghdad the city of peace. p. 245.

(٦٦) كان داود باشا قد استعان بضابط فرنسى من ضباط نابليون اسمه (دى قو) راجع المصدرين السابقين الورقة ١٥ و ص ٢٥٤

كان أميـا لا يحسن شيئا سوى اعتماده على صداقة المقيم البريطانى[٦٧] وكان بعضهم مأخوذا بالنساء والملذات والبطانة المستهترة أمثال الشاب النزق الضعيف سعد بن سليمان الكبير الذى أخفق فى الحـكم بسبب استهتاره واعتماده على أمه فى تدبير الحكم[٦٨] فحل محله داود باشا •

واذا كان بعض المماليك قد انفرد بصفات خاصة فان أكثرهم قد تتشابه فى أهم الصفات من حب الغطرسة والاستعانة بأنصار من المجانين المتعصبين والبذخ والاسـراف والظهور بمظهر الملوك والامراء لذلك أحاطوا أنفسهم بقواد ومساعدين وكتاب وخدم وغلمان من المماليك وقصروا الوظائف على أنفسهم غير مبالين بمن حولهم من أبناء العراق اذ ليس باستطاعة أى عراقى أن يطمح الى منصب من المنـاصب الكبيرة فى بغـداد بل مـا دون الكبيرة أيضا[٦٩] •

وكانت قصور هؤلاء الولاة ملأى بالجوارى الناعمات والغلمان الذين يغدون ويروحون بملابسهم المذهـة الثمينة وهم من (الـكرج) الصباح الوجوه ، بل لقد كان هؤلاء الغلمان من المدربين على وظائف القصر واستقبال الزائرين من الاجانب وغيرهم ، أما موائد الطعام فى قصر الوالى فقد كانت حافلة بأوانى الذهب والفضة من الاطباق والملاعق والاباريق الى الكؤوس والمباخر الثمينة المزخرفة[٧٠] ، ولقد كانت مواكب الولاة لا تقل عن موكب السلطان حين يخرج الى صلاة أو نزهة فلا يدخل الوالى أو يخرج الا وهو مسبوق بفصيلة من الفرسان من عبيده وخلفه فصيلة اخرى من الرجالة وهم بملابسهم العسكرية وبنادقهم الانكليزية وموسيقاهم التى تتألف من الطبول

---

(٦٧) هو عبدالله الذى قتل سنة ١٨١٣م

(٦٨) راجع (تأريخ المماليك) الورقة ١٢

(٦٩) اسند فى هذه الفترة بعض الوظائف فى الـكتابة والديوان الى عراقيين ولـكنهم قليلون جدا ومنهم عبدالباقى العمرى الشاعر

(٧٠) راجع (رحلة بورتر) ص ٢٤٩ من الجزء الثانى ـ الاصـل الانكليزى

والمزامير • وكانت هذه المواكب المصطنعة ذات أثر في نفوس المشاهدين فقد كانوا يشعرون ازاءها بالرهبة فيقف من كان ماشيا ويقوم من كان جالسا ولا تدخين ولا شرب ولا حديث بل انحناءة للسلام من بعضهم ورفع يد الى الشفة والجبهة والصدر من بعضهم الآخر ، والوالى يرد التحيات بايماءة خفيفة دون أن يحول اتجاهه الى أحد[٧١] • ولم يكن موكب نائب الوالى (الكتخدا) بأقل أبهة من مواكب الوالى نفسه[٧٢] •

ان هذه الحياة كان لابد لها من موارد تغذيها وتسد نهم الوالى ونهم حاشته وخدمه وعبيده ونسائه وجواريه ولم تكن هذه الموارد سوى الضرائب التى لا حصر لها ولا عد والتى كانت تفرض دون نظام أو قيد فقد كانت تجبى ولا تسجل ، وتؤخذ ولا يعطى بها مستند ، وتزداد كلما ازدادت الحاجة الى المال • وكانت لا تجبى الا من الطبقات الفقيرة كالفلاحين والكسبة والتجار الصغار ، أما الطبقة العليا من زعماء واقطاعيين فقد كانت غير خاضعة لاية ضريبة الا ما ندر ، وانما كان هؤلاء عرضة للطرد ومصادرة الاموال والمقاطعات حين يغضب الوالى على أحد وكثيرا ما يغضب •

ولقد كانت هذه الضرائب المختلفة المتعددة لا تستند الى شرع ولا تتصل بعدل وكثيرا ما يلتزمها المتنفذون و (الاغوات) وشيوخ العشائر وكثيرا ما يضيف هؤلاء ضرائب اخرى غير ضرائب الوالى وقد يعجز السكان عن دفعها ــ وكثيرا ما يعجزون ــ فلا تجبى الا بالقوة والسلاح ولا تنتهى الجباية الا بخراب البيوت وبيع الاثاث البالى والماشية •

وكان لابد أن يقابل هذا الظلم المسرف بالثورات وبالتذمر غير أن هذه الثورات كانت تقابل بالشدة ويقضى عليها بالسلاح ويستخدم لها بعض العشائر أنفسهم الى جانب الاغوات والمماليك •

وكان الولاة لا يكتفون من الثائرين على هذه الضرائب أو أى ظلم

---

(٧١) راجع (رحلة بكنغهام) ص ٥٠٦ و٥٠٧ ــ الاصل الانكليزى
(٧٢) راجع (تأريخ جودة) ص ٢٠٦ ج ٨

بالقمع والقتل بل كانت لديهم وسائل اخرى من التعذيب هى أبشع ما يتخيله الانسان فى عصور الوحشية والهمجية • وكان أيسر وسائل التعذيب الضرب بالسياط حتى تنفجر الدماء • ورش الزيت المغلى على وجه المتهم وعينيه حتى يموت • أو كى صدغيه وبعض المواضع الحساسة من جسده ، وقد يوضع على وتد يدخل فى أسفله ويمزق أحشاءه • أما الخنق فهو أيسر ما يكون ، وأما الاغراق فلم يكن سرا من أسرار دجلة •

وكان كل شىء ينظر فيه الوالى واذا حكم فحكمه قطعى نافذ ، ولا شرع ولا قانون بل كان هو الشرع والقانون !! وماذا يصنع بالشرع ورجال الدين معه وفى خدمته فاذا شاء جعلوه من رجال الدين وفى طليعة العلماء!![73] ولقد كانت الدولة تعد هؤلاء الولاة لصوصا وسراقا فاذا مات أحدهم عمدت الى مصادرة تركته اما بارسال موظف من قبلها أو بتكليف من يرشح نفسه لمنصب الولاية ، وقد احتال بعض هؤلاء على انقاذ تركاتهم من مصادرة السلطان اياها فعمدوا الى طريقة الوقف وذلك بأن يبنى الوالى مسجدا أو أكثر ويسمى ذلك باسمه ويقف عليه كل ما اغتصبه وصادره ونهبه وكل ما جمع من الضرائب والرشا ويشترط فى وثيقة الوقف أن تكون التولية لابنائه وأحفاده فاذا انقرضوا فلرجال الدين • وكان داود من أكثر هؤلاء أوقافا[74] وهى لكثرتها ولكونها فى أكثر من مدينة واحدة من مدن العراق

---

(٧٣) ممن اتصف بهذه الصفة المملوك داود فانه بعد أن اعتق وأسلم درس شيئا من مبادىء العلوم فأجازوه وصيروه عالما كبيرا ومن أجازوه الشيخ على السويدى وقد جاء فى اجازته قوله أمرنى من تجب طاعته ولا يمكننى مخالفته الا وهو الدستور الاشهر ذو الفضل الفاخر الخطير حضرة الوزير الاكبر داود باشا أن أحرر لحضرته السامية الحديث المسلسل »

راجع هذه الاجازة وغيرها فى (مطالع السعود) الورقة ـ ١٦٢ ـ ١٦٥

(٧٤) ترك داود أوقافا كثيرة فى بغداد والكاظمية وكربلاء والحلة والنجف وخلف أكثر من ثلاثين ولدا ذكرا وانثى وادخل نساءه الكثيرات فى الاستفادة من الوقف راجع تفاصيل الوقفية فى جريدة (الشعب) البغدادية بتأريخ ٢٩ـ٥ـ١٩٥٥م

تدعو الى الشك القوى فى ملكيته اياها[٧٥] .

بعد المماليك :

شاء القدر ـ جريا عى سنته ـ أن يعصف بالمماليك فتم له ذلك على يد السلطان محمود الثانى الذى أراد أن ينهى حكم الولاة المتمردين أو الذين يحاولون الاستقلال المطلق فانتدب لذلك واليه فى حلب وهو الحاج محمد على رضا اللاظ وجهز هذا الوالى جيشا واتجه الى العراق وانضم اليه جشن من الموصل وسار الجميع الى بغداد ليحتلوها ويخضعوا (أمير الامراء) كما سمته الدولة و (شيخ الوزراء) كما سماه العراقيون واستعد الوالى داود من جانبه للدفاع وأذعنت بغداد لظلم البشر وقسوة الطبيعة ، وفى أشهر قليلة من أواخر سنة ١٢٤٦هـ وأوائل سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م كانت العاصفة الجامحة تعوى فى شواطىء دجلة وتزمجر فى جانبى بغداد ، معارك بين الزاحفين والوالى داود وطاعون فتاك يحصد الارواح بلا عد ولا حساب وطوفان من الماء يغمر المدينة فيهدم ويجتاح المبانى والبيوت .

وانتهى الطاعون والفيضان وانتهى معهما عصر المماليك فى بغداد وأشرقت شمس الصف على مدينة خربة خاوية قد بعثر سكانها[٧٦] فى الحفر وانحدروا مع الامواج ، وانتشرت بيوتها منهارة على الجانبين ، ودخل جشن اللاظ فاتحا منتصرا فلم ير الا اطلالا وجثثا ، واستسلم داود[٧٧] بعد

---

(٧٥) نقل المؤرخ الفاضل الاستاذ عباس العزاوى وصفا مسهبا لظلم داود وحيفه وبخله وكثرة الضرائب التى فرضها على السكان وجاء فى الوصف ما يشير الى الشك فى اسلامه لشدة ظلمه راجع (العراق بين احتلالين) ص ٣٣٠ و٣٣١ من الجزء السادس

(٧٦) انتهى عصر المماليك وبغداد لا يتجاوز عدد سكانها عشرين ألفا

(٧٧) ارسل داود مع من بقى من أهله الى الاستانة ووجه على رضا كتابا يطلب فيه من السلطان أن يصدر عفوه عن هذا الوالى رعاية لشيخوخته ومكانته ثم قضى أواخر أيامه فى المدينة المنورة وتوفى فيها سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥١م راجع مضمون رسالة على رضا فى العدد الاول من جريدة (تقويم وقائع) التركية بتأريخ ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧هـ ٢١ تشرين الاول سنة ١٨٣١م

جلجلة المدافع ودوىّ الرصاص وبعد أن أخذت المعركة نصيبها من النفوس وقتل فيها عدد غير قليل[٧٨] .

واستقر على رضا فى بغداد ليبدأ الحكم المباشر وتعاقب بعده ولاة الاتراك تعينهم الاستانة وتنقلهم وتعزلهم متى شاءت .

ولقد كانت سياسة هؤلاء الولاة لا تختلف عمن سبقهم الا بالارتباط المباشر بالدولة ، اما شراء المناصب وارهاق السكان بالضرائب المختلفة وأخذ الرشوة والتفرقة بين المواطنين فذلك أيسر ما كان يفعله هؤلاء . واذا أحصينا عدد الولاة الذين تعاقبوا على بغداد والموصل والبصرة[٧٩] أدركنا بسهولة نوع الحكم الذى كان يسود العراق فقد كان عدم الاستقرار وتكرر الثورات فى الشمال والجنوب من أبرز مظاهر الحياة العامة فى العراق اذ لم يكن لهؤلاء الولاة أدنى ميل الى الاصلاح ـ ما عدا القليل منهم ـ وكان تعصبهم لدولتهم ولجنسهم سببا فى نفور السكان منهم فلم يكونوا يعرفون من أمر البلاد شيئا الا فى مواسم الضرائب .

أما الفتن والحروب والثورات وتحريض القبائل بعضها على بعض فذلك من الامور التى اعتاد عليها العراق ومن الصفات التى لازمته فى ظل تلك السياسة المنحطة .

ولقد مرت على بغداد ظروف قاسية بحيث « لا يستطيع الطير أن يطير ولا الاسد الوثاب أن يسير ما بين باب حلتها وبصرتها[٨٠] بل ما بين كرخها ومقبرتها ، وتعذر على الساعى الخريت الذهاب من باب الكاظم الى هيت أو

---

(٧٨) بعد أن استولى على رضا جمع المماليك فى القصر بحجة أنه سيقرأ عليهم بيانا من السلطان ثم أمر جنوده بقتلهم فقتلوهم ولم يسلم منهم الا من لم يحضر أو من فر من بغداد

(٧٩) كان عدد الولاة الذين حكموا بغداد طيلة القرن التاسع عشر ٣١ واليا وحكم البصرة أكثر من هذا العدد ومثلها الموصل راجع سالنامة بغداد) الدفعة ٢٢ سنة ١٣٢٩هـ و (سالنامة البصرة) الدفعة ـنية سنة ١٣٠٩هـ و (سالنامة الموصل) سنة ١٣٣٠هـ ١٩١٢م

(٨٠) كانت لبغداد أبواب يسمى كل باب باسم المدينة التى يتجه اليها

تكريت حيث كثر القتل والنهب فى جهاتها الاربع »[٨١] •

وكان التعصب التركى واضحا فى سلوك بعض الولاة مع السكان[٨٢] • وكان بعضهم يفرض الضرائب باستمرار ويجبيها بعنف وشدة ليرضى سيده السلطان[٨٣] • حتى وصل العراق الى درجة خطيرة من اضطراب الحالة السياسية فيه وتردى الحياة العامة وحتى « خلقت ثيابه بل أنتن لحمه وشحمه واهابه ، فغدا جيفة يشق نشق ريحها المرائر ويصعد الى أقصى الجو فصدع رأس النسر الطائر ، قد تصدر فيه كل خب سفيه ، واستولى عليه من يأبى أن يلوكه القلم بشدقيه »[٨٤] •

وقد بلغ من تردى الحالة أن العاقل لا يستطيع أن يقول كلمة الحق خوفا من الظلم والبطش[٨٥] بينما كان المنافقون من سكان بغداد يتمرغون على أعتاب الولاة ويطيعونهم طاعة عمياء أقرب ما تكون الى التأليه والعبادة[٨٦] وكان فى طلعة هؤلاء بعض رجال الدين والوعاظ والخطباء والشعراء والمرتزقة ورجال التجارة من مسلمين ويهود •

ولم يخفف من حدة الفساد السياسى غير الوالى (مدحة)[٨٧] فقد جاء بمثال جديد من الحكم كان من الممكن أن ينفع به العراق لو قدر له أن يقضى فى الولاية أكثر من السنوات الثلاث التى لم تخل من متاعب

---

(٨١) كان هذا فى أيام الوالى محمد نامق (١٢٦٧هـ ١٨٥٠م) راجع (نشوة المدام) لابى الثناء الالوسى ص ٤٩ وقد ذكرت هنا النص المسجوع للتأكيد على الحالة

(٨٢) اشتهر بالتعصب التركى الوالى محمد نجيب وقد ولى بعد على رضا سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م

(٨٣) كان محمد نامق يفعل ذلك ولاسيما فى ولايته سنة ١٢٧٨هـ ١٨٦١م ليرضى السلطان عبدالعزيز راجع (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) ص ٢٧٠

(٨٤) هذا النص المسجوع من مقامات الالوسى ص ١٣

(٨٥) نشوة الشمول للالوسى ص ٨

(٨٦) مقامات الالوسى ص ١٦

(٨٧) دخل بغداد واليا فى ١٨ محرم سنة ١٢٨٦هـ ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٨٦٩م ونقل منها فى أول صفر سنة ١٢٨٩هـ ١٨٧٢م

داخلية وخارجية ، وكان من الممكن أن يستفيد الفلاحون من النظـام الذى سنه لتمليك الارضين الزراعية ولـكن خيبة الامل ما لبثت أن عادت بعـده فرجع الظلم والفساد وعمت الرشوة جميع طبقات الموظفين • وملكت الارض للزعماء والتجار وذوى النفوذ والمال من اليهود وغيرهم وكان نصيب من يدفع الرشوة الدسـمة أوفر الانصبـاء فملك فى الفرات الاوسط كثير من تجار اليهود وغيرهم من سكان بغداد ، وملك أراضى المنتفق أسرة آل السعدون ، وحرم معظم العشائر لانهم لا يستطيعون دفع الاثمان المطلوبة أو الرشوة التى لابد منها لمن يشرف على تسجيل المستندات والوثائق •

وتسافلت أخـلاق الموظفين أكثر من ذى قبـل وازدادت التفرقة بين السكان ، والنفرة بين الطوائف وبخاصة فى أيام السـلطان عبدالحميد فقد استأثر هـذا بكثير من المقاطعات الخصة وسـجلها باسمه وسماها (الاملاك السنية) وعين لها الموظفين وأعفاها من الرسوم والضرائب واختص بالاوقاف فكانت وارداتها ترسل اله ، وكان من الطبعى أن يكون هـذا العمل قدوة سئة للموظفين •

وقد استخدم هذا السلطان العقيدة السنة لمناوأة الشيعة وجهز لها علماء الدين وقضـاة الشـرع من الاكراد والاتراك وبعض العـرب • وفُرض الموظفون الذين لا يحسنون اللغة العربيـة وأنشئت المحـاكم لتحاكم الناس بقوانين سقمة ولم تكن لغة المرافعات سوى اللغة التركية التى يجهلها المدعى والمدعى عليه ، فعزف معظم الناس عن الشـكاوى لضياع حقوقهم فى مثل هذه المحاكم ولكثرة الرشا التى لا يفى بها أى حق يدعى من أجله ، وعين القضاة ليحكموا على مذهب الدولة[٨٨] فى المدن الشيعية فكان اولئك القضاة

---

(٨٨) كان لـكل مدينة قاض من الاتراك وكانت مدة بقائه لا تتجاوز السنتين ونصف السنة ثم ينقل الى مكان آخر وهو لا يقضى بغير المذهب الحنفى حتى فى المدن الشيعية وقد ضربت نشرات الدولة الرسمية أمثلة كثيرة لاختلاف الحـكام والمحكومين فقالت (سالنامة البصرة) فى دفعتها الاولى سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩١م ان ثلاثين بالمائة من سكان البصرة سنة وخمسين شيعة والباقى يهود ونصارى وسكان أبى الخصيب عشرون =

يدخلون ويخرجون وهم لم ينظروا فى دعوى ولم يستمعوا الى مرافعة الا ما ندر وقل مما يجبر عله السكان • وكان باستطاعة أى قاض أن تظهر عليه علامات الثروة فى أيسر مدة[٨٩] • أما المفتون والوعاظ والخطباء فلا نصح منهم لوال ولا ارشاد لحاكم سوى الدعاء للسلطان والدولة ، والتملق للولاة وسائر الموظفين والطعن بالديانات والمذاهب الأخر

ولم تكن هذه المظاهر التى يسخر منها التاريخ الا لفرض السلطة شكلا واشعار السكان بهيبة الدولة وعظمتها ، وليس بين الموظفين من الوالى الى أصغر موظف أحد من أبناء العرب سوى المفتين وبعض القضاة ومن تترك وذل فكان نصيبه ما حقر وصغر من الوظائف •

وكان باستطاعة أى تركى أو مستترك أن يقدم رجله للوظيفة وان كان جاهلا أميا بشرط أن يدفع الثمن ، وقد يتجاوز هذا الثمن مجموع المرتبات السنوية ولكنه بأسرع وقت يستعد أكثر مما دفع • بل كان كثير من طلاب الوظائف لا يتورع فى طلب الوظيفة عن سلوك أحقر السبل وأحطها[٩٠] • وقد اشتد التهافت على الوظائف والنفاق والملق من أجلها حتى عند من يتصدى لوظيفة الافتاء والوعظ !! بل كان المتنافسون على وظيفة الفتيايشى بعضهم ببعض ويدس أحدهم على الآخر[٩١] ويتزلفون للدولة والسلطان والولاة طمعا بها حتى أصبحت لا قيمة لها[٩٢] سوى الوجاهة وقبض المرتب !!

= بالمائة سنة والباقى شيعة وسكان مدينة الناصرية كلهم جعفريون شيعة ولسانهم عربى ما عدا المأمورين وكذلك سكان سوق الشيوخ والشطرة والحى وقلعة سكر أما لواء العمارة فلسان أهله على الاطلاق عربى ومذهبهم جعفرى ما عدا المأمورين »

وقالت فى الدفعة الثانية الصادرة فى سنة ١٣٠٩هـ ١٨٩٢م (ان كثيرا من الموظفين الصغار فى ولاية البصرة من أهالى كركوك)

(٨٩) العراق ـ دراسة فى تطوره السياسى ص ٤٩ من الترجمة العربية

(٩٠) مقامات الالوسى ص ٨٧ و٨٨ وفيها تفصيل للسبل المخزية

(٩١) الزوراء ـ العدد ٢٢٦ من السنة الثالثة

(٩٢) مقامات الالوسى ص ٥٢

وكانت مهزلة الوظائف والموظفين جميعا من أكبر المهازل التى مثلت فى العراق ، واذا كان تعيين الموظف يجرى من غير ضابط ولا نظام فان المرتبات الضئيلة التى كانت تدفع قد تتأخر أشهرا كثيرة[٩٣] ، وكان تأخير دفعها من أسباب تفشى الظلم والرشوة والنهب ولا جزاء ولا عقاب ، واذا كان الموظفون قد تعودوا الملق والنفاق لاولياء الامور الكبار فان انغماسهم بالملذات وأنواع اللهو كان من أبرز صفاتهم[٩٤] .

واذا كان المحكومون من الفلاحين وغيرهم قد أرهقوا بهذا الحكم المتفسخ وأغرقوا بالضرائب[٩٥] التى كانت تجبى بقوة الجند من غير رحمة ولا شفقة[٩٦] فانهم قد كانوا عرضة لاعمال اخرى ليس لها حدود كالعمل بالاكراه وبدون أجرة[٩٧] وقد كان هذا الاكراه من أيسر ما يأمر به الموظف التركى مدنيا أو عسكريا وكثيرا ما يصحب الامر عنف وشدة فيسرع المأمورون الى تلبية الامر وينجزون العمل بأجسامهم الهزيلة وقد لا يكتفى منهم بذلك بل يؤمرون بجمع المال ووسائل العمل .

أما الجندية التى فرضت على السكان[٩٨] فقد كانت موردا خصبا للموظفين والدولة ، فللدولة البدل المرهق ممن لا يرغب فى الجندية وللموظفين الرشوة لكى يتسامحوا مع المكلفين ولاسيما الاغنياء منهم ، أما

---

(٩٣) قد يتأخر دفع المرتب عشرين شهرا (الزوراء) العدد ٥٤٢ من السنة السابعة

(٩٤) الزوراء ــ العدد ٥٥٥ من السنة السابعة

(٩٥) من أغرب هذه الضرائب ما كان يفرض على سكان بيوت الشعر فقد كان على كل بيت ضريبة سنوية وقد تدفع مكررة اذا ضاع المستند وكثيرا ما يضيع أو لم يعط من قبل الجابى راجع (الزوراء) العدد ٥١٦ من السنة السادسة ١٤ محرم ١٢٩٢هـ

(٩٦) مجلة (لغة العرب) الجزء الثانى من السنة الثالثة (شباط) ١٩١٤

(٩٧) كان هذا العمل يسمى (سخرة) والعمال مسخرين راجع عنه (الزوراء) العدد ٥٥٢ السنة السابعة

(٩٨) بدأ التجنيد الالزامى فى العراق سنة ١٨٣٥م وطبق فى الموصل من غير رحمة . ولكنه لم يطبق فى الجنوب قبل سنة ــ ١٢٨٧هـ ١٨٧٠م

الفقراء فقد كانوا يضطرون الى بيع الماشية والبقرة ومتاع البيت لكى ينقذوا أنفسهم .

وكانت القوة المنوط بهـا حفظ الامن منحطة لا نظام لها وكان الذين يديرون شؤونها ضباطا أميين متفسخى الاخلاق ولم تكن وظائفهم فى الغالب سوى جباية الضرائب وخدمة الموظفين الكبار[٩٩] .

وكانت السجون أحقر ما ينظر اليه المرء من مبانى الحكومة ، وكان المسـاجين لا يعتمدون على غير أهليهم فى الطعـام ، وكان كل موظف فى السجن من الحاكم الى الحارس ، يبيع الامتيازات للمسـاجين حتى اطلاق الحرية[١٠٠] . بل كان لا يسمح لاقرباء السـجين بزيارتـه دون تقـديم رشـوة .

الـكذب على السكان

واستغل الولاة سذاجة السكان وجهلهم والعاطفة الاسلامية فيهم فكانوا يستأجرون بعض الاقلام الخاوية لحشد الكلمات المفككة الهزيلة فى مدح السـلطان والولاة ولاسيما فى أعيـاد الجلوس التى كانت تقـام فى بغداد وغيرها ، وكانت النشرات الرسمية تواصل مثل هذا الملق بين حين وآخر لتوهم الناس بالبـاطل أو لتوهم من كان يقرأ على الاقل ، والذين يقرؤون كانوا من ذوى الزلفى والتأثير على السكان ، وكانت أساليب الكذب المقصود تختلف باختـلاف المناسـبات وقوة السـلاطين والخوف منهم ، فالسـلطان عبدالعزيز

« مؤسس العـدالة وبانى مبانى المدنيـة والسـعادة ولى نعمتنا بلا منة متبوعنا الافخم الاعظم السلطان ابن السلطان حضرة أفندينا عبدالعزيز خان أدامه الله تعالى على (التخت) العالى العثمانى الى آخر الدوران »[١٠١] .

---

(٩٩) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ـ ص ٢٩٩
(١٠٠) المصدر السابق ص ٣٠١
(١٠١) جريدة (الزوراء) العدد ٤٥٦ من السنة السادسة

أما السلطان عبدالحميد فانه حامى حماة كافة العالم سلطان البرين وخاقان البحرين أمين الله وخليفة رسول الله وأمير المؤمنين وحامى حمى الدين الذى ليس له ند ولا مدانى ... السلطان عبدالحميد الثانى »(١٠٢) .

ولعل هذا قليل من كثير مما كان ينشر فى صحف الدولة وتقاويمها الرسمية . ولا شك أن مثل هذه الاساليب كان يؤثر فى السكان ويدفعهم الى مؤازرة الدولة فى كل حرب تقع لها مع الاجانب ، وفى كل كارثة تصيبها وتحل بها فيعثون بالشباب الى ميادين القتال(١٠٣) أينما كانت ، ويجمعون الهبات والاموال الكثيرة لدعم الجيش أو لمساعدة مدينة أو قرية نكبت بفيضان أو حريق أو أى شيء .

وكانت الدولة اذا أعلنت حربا أو حلت بها كارثة تتملق السكان وتثير فيهم الاريحية العربية أو العاطفة الاسلامية أو الشعور العثمانى العام حسب درجاتهم وطوائفهم فينسون الجراح والآلام ويساندون الدولة ، على أن كثيرا من الولاة كانوا يفرضون ما تحتاجه الدولة فرضا ويجمعون المال بالاكراه كما كانوا يجندون الشباب بالقوة والسلاح .

الموصل والبصرة :

لعل هذا الذى قدمته عن وصف الحالة السياسة فى ولاية بغداد كاف فى تفسير الحالة نفسها فى ولايتى الموصل والبصرة وليس من شك فى أن ما يحدث فى بغداد كان يحدث مثله فى هاتين الولايتين ، فقد كان حكام الموصل من الاسرة الجليلة صورة لما كان عليه حكام بغداد اذ استأثرت هذه الاسرة بالقسط الاوفر من خيرات الولاية واقتنت وبنت لنفسها وعرضت مدينة

---

(١٠٢) سالنامة البصرة (التقويم السنوى) الدفعة الاولى سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩١م

(١٠٣) من أمثلة ذلك ان العراق أرسل عشرة آلاف جندى عدا المتطوعين فى حرب الدولة مع روسيا سنة ١٢٩٣هـ ١٨٧٧م وذهب هؤلاء الجنود الى قفقاسيا وبعد فشل الدولة لم يعد منهم غير نفر قليل راجع (مختصر تأريخ بغداد) لعلى ظريف الاعظمى ص ٢٤٥

الموصل وما يتبعهـا من القرى والارياف لثورات كثيرة وتمرد لا يفسر في الغالب الا بكونه رد فعل للقسوة وفرض الضرائب التى كان السكان ينوؤن بحملهـا ولاسيما الفلاحون وأرباب الحرف •ولقد كان الشغب بين أفراد الاسرة الجليلية لأجل الحكم شيئا مألوفا قد تسنده سياسة بغداد أحيانا(١٠٤) •

وكان تصرف الحاكمين فيها تصرفا قاسيا تصحبه القوة وتقابله الثورات التى يعقبها القتل والتشريد والنفى ومصادرة أموال الثائرين وأملاكهم وقد تؤدى الثورات الى قتل الوالى الجليلى نفسه(١٠٥) •

ولما انتهى حكم الجليليين سنة ١٨٣٤م أخذ الولاة الاتراك يتعاقبون على الموصل والقليل منهم من تجاوز بقاؤه سنة واحدة(١٠٦) • وكان من الطبيعى ألا يعملوا شيئا أكثر مما يعمله ولاة بغداد •

أما البصرة فقد حكمها خلال القرن التاسع عشر ما يزيد على الاربعين من ولاة ومتصرفين وكان العراقى الوحيـد من بينهم ناصر السعدون ، أما جميع هؤلاء فقد كانوا من طراز ولاة بغـداد أو ولاة الدولة على الاطلاق فلم تسلم البصرة من ظلمهم وظلم مأموريهم من كبير وصغير ، بل لم تسلم حتى من ظلم ناصر السعدون نفسه اذ استغل منصبه ومكانة أسرته فاستأثر بكثير من الاملاك والمقاطعات ومنح كثيرا من أفراد أسرته بساتين من النخل وضياعا زراعية فى جنوب العراق وكان هو وأخوه منصور سيفين من سيوف الدولة تضرب بهما من تشاء من العرب فى داخل العراق وفى الاحساء •

وأما مناطق الاكراد فقد كانت خاضعة لنفوذ زعمائها فى بداية القرن التاسع عشر وكان هؤلاء الزعماء ألعوبة بيـد الحكومة الايرانية من جانب

---

(١٠٤) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٢١٣

(١٠٥) فى سنة ١٨٢٨م ثار أهـل الموصـل على الوالى عبدالرحمن الجليلى فاغتالوه هو وأخاه محمدا راجع (المماليك فى العراق) ص ١٨٧

(١٠٦) كان عدد من حكم الموصل من ولاة ومتصرفين اثنين وأربعين من بداية القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٠٠م (سالنامة الموصل) الصادرة بتاريخ ١٩١١ ـ ١٩١٢

وولاة بغداد من جانب آخر ثم انهار حكمهم بسبب نزاعهم المستمر وقسمت
المناطق الكردية بين ولايتي بغداد والموصل .

الاجانب في العراق

ازداد نفوذ الانكليز والفرنسيين أيام المماليك وبلغ من القوة حدا لا
يستهان به وقد كثر عدد السياح والمبشرين يتنقلون بين الموصل وبغداد
والبصرة وكان لانكلترا وفرنسا ممثلون في العراق وكان ممثل انكلترا في
بغداد يسمى (مقيما) ولهذا المقيم شأن ليس أقل من شأن الوالي نفسه ،
وداره من أفخم الدور وأحسنها في بغداد ، وكان فيها ـ أيام المقيم (ريج)
سنة ١٨٠٨-١٨٢١م ـ استعداد تام لان تكون شيئا منظورا من قبل السكان
والحكومة ففيها جراح انكليزي وأمين سر طلياني ، وعدد من المترجمين
والموظفين والخدم والسواس ولم يكن هؤلاء من جنس واحد ففيهم
الارمني والعربي والتركي والانكشاري والجورجي والفارسي والهندي ،
وكان حرس المقيم من الهنود الطوال Sepoys وكانت طول هؤلاء
وأبواقهم ترسل أصواتها بانتظام عند بدء العمل وختامه ، وفي دار المقيم
فصيلة من الفرسان الاوروبيين وله (يخت) معد للرحلات النهرية يشرف
عليه الهنود وكان كل شيء في هذه الدار أعد ليلقي الهيبة في نفوس السكان
الذين كانوا يشعرون بأن المقيم أقوى شخص بعد الوالي ، بل كان بعضهم
يظن أن الوالي لم يستبد كل الاحيان برأيه دون أن يستشير المقيم[١٠٧] ،
وقد مر بنا أن بعض ولاة المماليك كان يستعين بالمقيم في الترشيح لمنصب
الولاية وفي التجهيز بالسلاح والمدربين وملابس الجنود . ولم يكن عمل
المقيم في حدود رعاية المصالح البريطانية في البواخر والتجارة والتنقيب
الاثري حسب بل كان يتجاوز ذلك الى التدخل في شؤون البلاد واجتذاب
قلوب الناس واستمالة بعض الزعماء[١٠٨] . وكانت داره ملتقى أكبر

---

(١٠٧) راجع رحلة (بنكغهام) ص ٣٩٠ الاصل الانكليزي
(١٠٨) كان المقيم (كلوديوس جيمس ريج) صديق البابانيين من
زعماء الاكراد وقد ذكر ذلك في رحلته المطبوعة في لندن سنة ١٨٣٦م

الموظفين والاشراف ، ومرتادا للضيوف ، وكان أدنى اعتراض على سلوكه السياسي والاجتماعي من أي وال قد يسبب تعكير الجو السياسي بين الدولتين[109] .

وكانت شركة (لنج) النهرية تتمتع بامتياز تسيير البواخر بين بغداد والبصرة وقد أسست سنة ١٨٣٤م وازداد عدد بواخرها أيام السلطان عبدالحميد بفضل الهدايا والرشا التي كانت تقدمها للدولة .

وقد ربطت بعض المقيمين البريطانيين رابطة الزواج ببعض الاسر المسيحية العراقية[110] .

ولم يكن النفوذ الفرنسي ضعيفا وان كان أقل من نفوذ الانكليز ، فقد كان المبشرون الكرمليون من دعاة فرنسا في العراق ولهم مؤسسات دينية كما كان للايطاليين مثلها . وكان اسقف بابل يشغل أحيانا الاسقفية ووظيفة القنصل الفرنسي معا . وكان للقنصل الفرنسي بالبصرة اتصال أو بعض الاتصال بوجوه المدينة ورؤساء القبائل[111] .

وكان الكاثوليك من أشد الناس عطفا على فرنسا فقد كانوا يفرحون لفرحها ويألمون لما يصيبها من أذى . ولم يخفوا مظاهر فرحهم في عودة أسرة آل (بوربون) الى العرش الفرنسي فقد أقاموا في اليوم الخامس والعشرين من آب سنة ١٨١٦م قداسا في الكنيسة الكاثوليكية ببغداد على روح لويس السادس عشر وأنشدت التراتيل بمناسبة عودة آل بوربون الى العرش[112] .

ومهما يكن من شيء فان النفوذ الانكليزي كان أقوى وقد ظل محافظا على قوته طيلة القرن التاسع عشر وصار لبريطانيا وكيل سياسي في بغداد

(١٠٩) راجع أربعة قرون ــ ص ٢٤٢ و٢٤٣

(١١٠) كان المقيم البريطاني في البصرة (١٨١٠ ــ ١٨٢٤م) مانستي متزوجا بمسيحية عراقية راجع (رحلة المنشى) ص ٧ من مقدمة الناشر

(١١١) أربعة قرون ــ ص ٢٤٠ ــ ٢٤١

(١١٢) رحلة (بكنغهام) ص ٥٤١

ومساعد له وقنصل فى البصرة ونائب قنصل فى الموصل وكان لهـا دوائر بريد فى بغداد والبصرة وقد انشئت هذه الدوائر عام ١٨٦٨م بموافقة والى بغـداد[١١٣] بينمـا لم تؤسس الدولـة أيـة دائرة بريـد فى العراق الا بعد سنوات[١١٤] •

وفى أواخر القرن التاسع عشر لم يقتصر التمثيل الاجنبى على بريطانيا وفرنسـا فقط بل كان لكل من المانـا وروسيا والولايـات المتحدة وكيـل فى بغـداد •

ايران والعراق :

تعرض العراق فى القرن التاسع عشر لحروب وحوادث كثيرة كانت تقع بينه وبين ايران فتهدد وتنذر وبينه وبين الوهابيين فتستفز وتثير ولعل سرد هذه الحوادث ليس من أهداف هـذا البحث غير أن علاقتهـا بالشعر وتأثيرها فيه يقتضى أن يشار اليها على وجه الاجمال •

ان الحروب الايرانية مع دولة الاتراك ـ أو حروب الدولة مع ايران ـ كانت أقدم من هذا العصر الذى نبحث فيه ـ كمـا أشرنا اليه فى التمهيد ـ وقد كان العراق من أهم الميادين التى تقابل فيها الخصمان مرارا ، وكانت الخصومات الساسة والمذهبيـة من أبرز العوامل فى اثارة هـذه الحروب التى لم تكن الا وبالا على العراق وشرا على حياة أهله ومعيشتهم واستقرارهم ، وقد شهد النصف الاول من القرن التاسع عشر صورا عدة من الاستفزاز الايرانى وتعاقب الجيوش التى كانت تستهدف بغداد والبصرة وكان انقسام الاكراد بين العراق وايران عاملا مشـجعا لتدخـل الايرانيين فقد كان من السهل على أى زعيم كردى يطرد أو يحارب من قبل الدولة العثمانية أو يريد السيطرة أن يستعين بالحكومة الايرانية لترده الى مركزه أو تبنى له مركزا

---

(١١٣) كان يومئذ نقى الدين

(١١٤) راجع التفصيل فى أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ ص ٣٠٣

جديدا ، وقد حدث مثل ذلك فى سنة **١٨٠٥**م اذ تدخل الجيش الايرانى لمصلحة زعيم السليمانية عبدالرحمن بابان وأعاده الى مقره بعد أن كان مندحرا أمام جيش بغداد[١١٥] • وفى سنة **١٢٢٧**هـ **١٨١٢**م تجدد مثل هذا الحادث فقوبل بقوة السلاح • وفى سنة **١٢٣٧**هـ **١٨٢١**م تعرضت بغداد لتهديد القوات الايرانية وازداد الخطر المزعج حتى أدى الى اعلان الحرب على ايران من قبل السلطان نفسه ، وانتهت هذه الحرب بالصلح الذى توسطه رجال الدين من الشيعة والسنة ، بينما كان الجيش الايرانى على مسافة يوم واحد من بغداد ولولا الصلح وتفشى مرض (الهيضة) بالجيش الايرانى لكانت حياة سكان بغداد معرضة لاكثر من الهرب الذى لاذ به مئات الناس •

وفى السنة التالية استجمع الايرانيون قواهم وعاودوا الكرة فقابلهم جش بغداد فى الشمال[١١٦] ولكن ضباط هذا الجيش ــ وأكثرهم من المماليك ــ عقدوا مؤتمرا قرروا فيه الانسحاب وتركوا الجيش الايرانى وشأنه حتى تصدت له بعض القبائل العربية وبددته ورجع ما بقى منه الى ايران[١١٧] •

وقد تعرضت البصرة لمثل هذه الحوادث التى كانت استمرارا لما سبق فى القرن الثامن عشر ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر خفت الحوادث بين العراق وايران وبقيت لها ذيول متقطعة انتهت بنهاية القرن •

الحوادث الوهابية

مر فى القسم الاول من هذا الفصل عرض وايضاح لقيام الدعوة الوهابية وحروبها وحروب الدولة معها فى الحجاز ونجد وقد بقى من ذلك

---

(١١٥) كن هذا يدفع الى الحكومة الايرانية اتاوة قدرها عشرة آلاف (تومان) فى السنة راجع ــ تأريخ جودة ــ ص ١٠٧ من المجلد العاشر ط ٢

(١١٦) جاء فى الورقة ١٣٣ من مطالع السعود ان السلطان محمودا وجه جيشا بقيادة محمد أمين رؤوف والى ديار بكر ووجه معه عساكر اناطولى والموصل وكانت الرياسة الكبرى لداود باشا

(١١٧) أربعة قرون ص ٢٣٤

ما يخص العراق ويتصل به سواء أكان من جانب الوهابيين أم كان من جانب العراق نفســه لذلك رأيت أن استكمل البحث عن الحوادث التى تتصــل بالعراق فى هــذا القسم •

لقد تعددت الحوادث الوهابية طوال القرن التاسع عشر وكان خطرها قد أنذر قبيل هذا القرن وفى بدايته المبكرة وكانت الضفة الغربية من الفرات أقرب هدف لسلاح الوهابيين بل كان القسم المتاخم لنجد من البصرة الى الشمال الغربى معرضــا للغزو الوهابى بين حين وآخر فلم تكد تمر ســـنة واحدة على حادثة من الحوادث الا تبعتها حادثة اخرى •

وكان الوالى المسؤول عن حماية العراق شيخا كبيرا(١١٨) لا يعتمد على غير المماليك من أبناء جنسه لذلك كانت اولى الحملات التى توجهت من العراق الى نجد حملة قبلة قام بها ثوينى بن عبدالله شيخ المنتفق سنة **١٢١٢**هـ **١٧٩٧**م وقابل الوهابيين فى الاحساء ولكن هذه الحملة فشلت وقتل قائدها الشيخ(١١٩) أثناء عودته وتمزق جيشه ، وفى سنة **١٢١٣**هـ **١٧٩٨**م توجهت حملة اخرى بقيــادة (الكتخدا) على وكان معظم الجنــود من المتطوعين العراقيين ودارت المعارك فى الاحساء مع عبدالعزيز بن محمد ولكن عوامل كثــيرة أدت الى هرب الكتخدا ونكوص جيشه فلم يســتطع الاستمرار فى القتال وعاد الى بغداد سنة **١٧٩٩**م(١٢٠) •

---

(١١٨) هو سليمان الــكبير المملوك ـ راجــع التمهيد وبداية هــذا الفصل

(١١٩) قتل فى جهة الشباك من نجد وهو فى خيمته وقد قتله عبد اسمه (طعيس) بخنجر راجع التفاصيل فى (مطالع السعود) الورقة ٧٢ ، و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٠٨ من الجزء الاول

(١٢٠) يذكر ابن سند فى مطالع السعود (الورقتان ٨٠ و٨١) نص رسالة من سعود بن عبدالعزيز الى الــكتخدا يطلب فيها الصلح ويعلل سبب احتلال الوهابين الاحساء بأن سكان الاحساء روافض ثم يذكر جواب الــكتخدا والشروط التى طلبها لعقد الصلح ويعزو ابن سند فشل هذه الحملة الى خيانة وقعت من ابراهيم بن ثاقب بن وطبان وكان مع جيش الــكتخدا غير أن عوامل الفشل أكثر من ذلك

وفى بداية القرن التاسع عشر تعرض الوهابيون لحجاج خزاعة (الخزاعل) من العراق وهم بالقرب من نجد وهوجم الحجاج الايرانيون وكان طريقهم على العراق ونهبوا فى الموضع نفسه(١٢١) . وفى صيف سنة ١٢١٥هـ ١٨٠٠م سافر محمد الشاوى مبعوثا الى نجد ليفاوض بالصلح فلم يجد لدى الوهابيين رغبة فى ذلك(١٢٢) . وازداد خطر الوهابيين فأغاروا على بلدة (عانة)(١٢٣) فى السنة نفسها وقتلوا ونهبوا وأغاروا على قرية (الكسسة) فقابلهم أهلها بالقوة(١٢٤) . وكان أشد هجوم قام به الوهابيون على العراق ذلك الهجوم الذى استهدف مدينة كربلاء فقد قاد سعود ابن عبدالعزيز جيشا يقدر بألف محارب أو أكثر وغزا به هذه المدينة ، وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ١٢١٦هـ الموافق للثانى والعشرين من نيسان سنة ١٨٠٢م(١٢٥) كانت مدينة كربلاء تموج بالذعر وقد أخذ سلاح الوهابيين من أهلها مأخذة كبيرة وتتبع الفارين منهم بل تناول حتى الذين لاذوا بضريح الامام الحسين(١٢٦) وغصت المدينة باشلاء القتلى من رجال ونساء وأطفال ، ونهبت الدور والحوانيت ، وكان أهم الغنائم ما نهب من ضريح الامام الحسين وفيها النفائس والتحف والمجوهرات(١٢٧) ، ولم

---

(١٢١) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٢٠٤

(١٢٢) المصدر السابق والصفحة نفسها وفى (مطالع السعود الورقة ٨٤) أن المبعوث عبدالعزيز شقيق محمد

(١٢٣) غاية المرام الورقة ١١٠ ومباحث عراقية ص ٥٠ ج ١

(١٢٤) غاية المرام الورقة ١١٠

(١٢٥) يروى (بروكلمان) فى ص ٢١ ج ٤ من (تأريخ الشعوب الاسلامية) أن هذه الحادثة وقعت فى ٢٨ نيسان سنة ١٨٠١م وفى عيد الفطر وهذا مخالف لاكثر المؤرخين

(١٢٦) قدر عدد القتلى فى الضريح بخمسين قتيلا وفى الصحن بخمسمائة قتيل أما مجموع القتلى فى المدينة فهو موضوع خلاف بين المؤرخين وقد قدره بعضهم بسبعة آلاف

(١٢٧) راجع تفاصيل هذه الحادثة فى (مطالع السعود) الورقة ٨٥ ومختصر مطالع السعود المخطوط لامين الحلوانى الورقة ١٣ والمطبوع ص ٢٨ (شهداء الفضيلة) للشيخ عبدالحسين الامينى ص ٢٨٨ و (ماضى =

تستطع حكومة بغداد أن ترد هذا الغزو الذى كان الوالى الشيخ على علم به[١٢٨] .

وفى سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٤م قاد سعود حملة نحو البصرة[١٢٩] . وفى سنة ١٢٢١هـ ١٨٠٦م هوجمت مدينة النجف فتصدى السكان وعلى رأسهم رجال الدين وهزموا المغيرين . وتجدد هجوم آخر على النجف سنة ١٢٢٥هـ[١٣٠] . وتكررت الحوادث على الفرات ومدنه وقراه[١٣١] .

وفى المرحلة الثانية[١٣٢] من حكم السعوديين قام العراق بحملة عسكرية ضخمة اتجهت الى الاحساء لمحاربة سعود بن فيصل وكان هذا قد حارب أخاه عبدالله سنة ١٢٨٦هـ وانتصر عليه واحتل قلاع الاحساء والقطيف واتجه الى الرياض فاستنجد عبدالله بحكومة بغداد وكان الوالى يومئذ (مدحة) وقد علم مدحة أن الانكليز أيدوا سعودا لمحاربة أخيه خلف الدولة العثمانية فكتب الى الباب العالى واهتم الصدر الاعظم (عالى باشا) بالامر فأوعزت الحكومة بانفاذ قوة تحل محل الجيش المرابط فى

= النجف وحاضرها) للشيخ جعفر محبوبة ص ٢٣٤ ج ١ . و (تأريخ جودة) ص ١٦٧ ج ٧ ط ٢ و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٢١ و١٢٢ ج ١
(غاية المرام) الورقة ١١٢ و (مباحث عراقية) ص ٥١ ح ١
(الشرق الاسلامى فى العصر الحديث) لحسين مؤنس ص ٣٥٩ و (قلب حزيرة العرب) ص ٣٣١ و (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) ص ٢٠٥

(١٢٨) جاء فى (تأريخ جودة ص ١٦٧ ج ٧ ان شيخ المنتفق حمود الثامر أخبر حكومة بغداد بهذه الحملة فوجهت قوة للدفاع ولكن بعد جلاء الوهابيين وقد أرسل الوالى سليمان الكبير كتابين أحدهما الى الدولة يطلب فيه النجدة والثانى الى حكومة الشاه (فتحعلى) وبعث الشاه باحتجاج شديد اللهجة الى حكومة بغداد لاهمالها الدفاع مع علمها بنيات الوهابيين واعلن عن عزمه على محاربة الوهابيين واحتلال بغداد . وقد تسلم الوالى هذا الانذار وهو فى آخر رمق

(١٢٩) عنوان المجد لابن بشر ص ١٣٠ ج ١ وفيه تهويل لما أصاب مدينة الزبير فى هذه الحملة

(١٣٠) ماضى النجف وحاضرها ص ٢٣٥ و٢٣٦ ج ١

(١٣١) عنوان المجد لابن بشر ص ١٣٥ ـ ١٤٠ ج ١ وفيه التفاصيل

(١٣٢) راجع الحوادث الوهابية فى القسم الاول من هذا الفصل

بغداد ليذهب هذا الى نجد[١٣٣] • وسارت أول قافلة من الفيلق السادس من بغداد فى اوائل سنة ١٢٨٨هـ ١٨٧١م بقيادة (نافذ) ورافق الحملة كثير من المتطوعين العراقيين وعلى رأسهم ناصر السعدون وأخوه منصور والسد محمد سعيد نقيب البصرة ، وجماعة من أهالى الكويت[١٣٤] التابعة لولاية البصرة ، وانتهت المعارك باحتلال القلاع التى استولى عليها سعود فى الاحساء والقطيف ، وفر سعود مع أعوانه[١٣٥] • وكوفىء مدحة بسيف مرصع من قبل السلطان عبدالعزيز[١٣٦] وأنعم السلطان كذلك برتب مختلفة على رؤساء المتطوعين ومنهم نقيب البصرة[١٣٧] وسافر مدحة الى الاحساء[١٣٨] بعد أن وصله السيف ومر بالبصرة ثم بارحها الى نجد فى أوائل رمضان سنة ١٢٨٨هـ وألقى كلمة على المحاربين وقدر لهم جهودهم وتحملهم مشقات السفر[١٣٩] الى بلاد بعيدة • ثم جعل من نجد لواء يتألف

---

(١٣٣) راجع (مذكرات مدحة) ص ١٧٣ و١٧٤

(١٣٤) جاء فى (مذكرات مدحة) ص ١٧٦ ما يلى ان عبدالله الصباح شيخ الكويت وضع تحت تصرف الجيش ثمانين سفينة كبيرة وصغيرة وبقيت تنقل الذخائر وتخدم بدون اجرة حتى انتهت الحملة

(١٣٥) روت جريدة (الزوراء) فى العدد ١٩٥ من السنة الثالثة بتأريخ ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٨هـ ما يأتى

« عندما أراد سعود الفيصل الهجوم على الاحساء ومعه من الحشرات مقدار خمسة آلاف نفر هاجمته قوة برياسة حمدى المير لواء يساعدهم مبارك الصباح أخو قائمقام الكويت فدمروا النجديين وفر سعود مجروحا

(١٣٦) حمل هذا السيف القائمقام سليمان بك أحد مرافقى السلطان ووصل بغداد فى يوم الثلاثاء أول رجب سنة ١٢٨٨هـ (الزوراء) العدد ١٧٤ و١٧٩ من السنة الثالثة

(١٣٧) الزوراء ـ العدد ٢٤٢ من السنة الثالثة

(١٣٨) كان سفره من بغداد فى ١٤ شعبان سنة ١٢٨٨هـ ـ (الوزراء) العدد ١٩٢ من السنة الثالثة

(١٣٩) راجع نص الكلمة فى العدد ٢٠٨ من الزوراء السنة الثالثة وقد جاء فيها ما يلى

« وهذا السيف السلطانى الذى أنا حامله هو نيشان الافتخار لخدماتكم الممدوحة والحق أن شرفه ومفخرته عائدة للفرقة العسكرية بل وراجعة لهيئة الاوردى الهمايونى

من (قطر)[١٤٠] و (المبرز) و (الهفوف) • ولـكل من هـذه القواعد (قائمقام) واستدت متصرفية اللواء عامة الى (نافذ) باشا قائد الفيلق اضافة الى وظيفته العسكرية[١٤١] • وأمر مدحة بأن تطهر العيون المندثرة وأن تزرع البساتين وكانت هذه العيون قد دمرها الوهابيون[١٤٢] •

واتخذت الهفوف ـ وهى أكبر المدن ـ قاعدة للفرقة العسكرية[١٤٣] وبعد هذه الاعمال الحربية والادارية عاد مدحة الى العراق[١٤٤] ليستقبل المهنئين بالظفر والنصر •

ومما مر من الحوادث الوهابيـة وأعمالهـا فى مختلف المراحل يتضح أنها تطورت من دعوة دينية ترمى الى نبذ الترف والبذخ وترك الاعمال التى لا توجه لغير الله • تطورت من كل ذلك الى حركة سياسية تريد بناء ملك وانشاء دولة ولكنها تعثرت فى كل خطواتها خلال القرن التاسع عشر لانها كانت ذات مسلك ضيق فى الدين وشدة لا لين فيها ولا مران ، ولانها كانت فى السياسة غير موفقة مع العرب والدولة فقد كانت أعمالهـا المثيرة تحمل بين طياتها ما يبعث على الـكره والحقد ، حاربت العرب فى الحجاز ، وفى البحرين وفى الاحساء وفى العراق وفى الشام أيضا • وجمعت مع الحروب رمى المسلمين بالشرك فاستحلت دماءهم وأموالهم وتناولت معتقداتهم بالهدم والطعن فثاروا عليها متألبين وحاربوها فى كل مكان حتى امتلأت الصحراء وما جاورها دماء وأشلاء نتيجة لذلك الضيق الذى رافق الدعوة وللاغلاط

---

(١٤٠) عين شيخ قطر ـ واسمه قاسم بن ثانى ـ قائمقاما لها

(١٤١) الزوراء ـ العدد ٢٠٩ من السنة الثالثة

(١٤٢) منها (عين نجم) وكانت حارة النبع شتاء وكان الناس يستشفون بمائها ولشعراء الاحساء قصائد فى وصف هذا العين وما حولها من المزارع راجع (تأريخ نجد) للالوسى ص ٣٢ ـ ٣٥

(١٤٣) الزوراء ـ العدد ٢١٠ س ٣

(١٤٤) كانت عودته عن طريق البصرة وقد وصل بغداد فى ١٦ شوال سنة ١٢٨٨هـ راجع (الزوراء) ـ العدد ٢٠٨ س ٣

التى رافقت الساسة[١٤٥] ولقد كان من الممكن أن تكون هذه الدعوة موفقة فى اصلاح النفوس وتهذيبهــا والعمل على الحــد من الفوارق الطبقية بين المسلمين ولاسيما اذا عرفنا أن هذه الدعوة أقرب ما تكون الى طبيعة البدو الذين لم يعرفوا ترف المدن وأخلاق المجتمعات المتحضرة ، غير أن الشدة المفاجئة كانت صدمة عنيفة قوبل بهــا المسلمون فى مختلف أقطارهم عندما أعلن مروقهم عن الدين •

ولقد كان علماء القصيم أنفسهم يلقون تبعة ما وقع فى نجد من تخريب وتدمير على أســرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لان هــذه الاســرة كانت تسطر على السياسة وتملى على آل سعود الشدة والعداء العام للناس[١٤٦] •

الحوادث الداخلية

سجل القرن التاسـع عشــر كثيرا من الثورات والحوادث القبيلية فى الشــمال والوسط والجنوب ولم تكن المدن بأهدأ حالا من القبائل ، وكان من البديهى أن تؤدى سياســة الظلم والتفكيك وغطرسة الولاة والحــكام الاجانب الى وقوع حوادث كثيرة فى المدن والقرى والــوادى فقــد بقيت الثورات مستمرة لم يخل منها عام ولم يسلم منها موضع وكانت هذه الثورات تقابل بالشدة والسلاح ويستخدم لها ــ الى جانب الجيش ــ كثير من القبائل نفسها فلا تكاد تحدث ثورة فى مكان من العراق الا انتدب لها بعض الزعماء والشيو خ من العرب والاكراد حتى صار العربى يضرب الكردى والكردى يضرب العربى بل صار العربى يضرب أخاه العربى بدون رحمة ولا شفقة •

ولما كان كثير من هذه الحوادث والثورات ناشئا من طبيعة المجتمع ــ وان كان للسياسة أثر كبير فيه ــ فان الاستقصاء والشمول ليس مما يسهل لدى الباحث بل ليس الا من طبيعة التاريخ وحده ولكن هــذا لا يعفى من

---

(١٤٥) راجع (جزيرة العرب فى القرن العشرين) ص ٢٤٦ و٢٤٩ و٢٥٢

(١٤٦) المصدر السابق ص ٢٥٦

ذكر الحوادث التى شغلت الولاة وهزت البقاع التى حدثت فيها وكان لها فى الشعر العراقى لذلك أرى لزاما أن أشير هنا الى أهم تلك الحوادث •

ففى سنة ١٢٣٦هـ ١٨٢١م أيام الوالى داود كانت الحياة غير مستقرة فى المناطق الكردية بسبب تنافس الامراء على الحكم وكانت بغداد مضطربة بسبب الجمعيات السرية التى كانت تناوىء الحكومة[١٤٧] ، وقد أدى تنافس البابانيين على الحكم الى التجاء عبدالله بابان الى حكومة ايران طمعا بالمساعدة العسكرية بينما كانت بغداد تؤيد حليفها (محمود بابان) وقد اضطر والى بغداد أزاء ذلك أن يبعث جيشا لمحاربة عبدالله بابان المتمرد وكان هذا الجيش بقيادة محمد آغا (الكتخدا) فذهب هذا الجيش بينما كان عبدالله بابان يزحف بحشده المعزز بخمسة آلاف ايرانى نحو (شهرزور) وقد انتهى هذا الصدام بهزيمة جيش بغداد ومحمود البابانى وانتصار عبدالله اما الكتخدا فقد التحق بشاه ايران حذرا من بطش داود[١٤٨] • وفى سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٥م عاد هذا الكتخدا الهارب ولاذ بمدينة الحلة وادعى الوزارة لنفسه وأيده بعض السكان كما أيدته بعض القبائل فاندفع داود الى مهاجمة الحلة حتى هرب الكتخدا ثم عاد الى الحلة سنة ١٢٤١هـ وحرض أهلها على الثورة وكان معه جماعة من الزعماء منهم قاسم الشاوى وثارت الحلة واختار أهلها واحدا منهم ليكون حاكما[١٤٩] فوجه داود جيشا بقيادة سلمان (الميرآخور)[١٥٠] ومعه عشيرة عقيل فاستولى على الحلة وهرب معظم سكانها مذعورين[١٥١] الى بعض القبائل المجاورة ـ وهى قبلة قشعم ـ

---

(١٤٧) تأريخ السليمانية ـ لمحمد أمين زكى ـ ص ١٤٢ من الترجمة العربية لملا جميل • و ص ١٤١ من الاصل الكردى

(١٤٨) راجع مطالع السعود ـ الورقة ١٢٦ ـ ١٣٠

(١٤٩) هو صالح أغا أخو شوكة وقد فر أيضا مع المحرضين راجع (الروض الازهر) ص ١١

(١٥٠) (المير آخور) كلمة مركبة من الكلمة العربية (أمير) ومن الفارسية (آخور) بمعنى الاسطبل

(١٥١) راجع (مطالع السعود) الورقة ١٥٤ ومجموعة الشيخ محمد رضا الشبيبى المخطوطة و (مختصر تأريخ الحلة) للشيخ يوسف كركوش ص ٧٠ و ٧١

فاستقبلوا بمثل ما فروا منه[١٥٢] ، وقد فر أيضا زعماء الثائرين واجتمعوا فى (عفك) بين الديوانة والحلة وألبوا العشائر هناك على الثورة ، وفى سنة **١٢٤٢هـ** كان جيش الوالى داود بقيادة سليمان يحاصر الثائرين وقد ساعده على محاربة هذه القبائل أمثالهم من قبائل زبيد وعقيل والمنتفق وقوة من الاكراد اللاوند[١٥٣] وأسفرت المعارك عن انتصار جيش الوالى ومن معه وهزيمة الثائرين وفى مقدمتهم المحرضون وارسلت رؤوس القتلى الى بغداد فأمر الوالى داود ببناء منارتين منها[١٥٤] . وقد حدث أثناء ذلك أن ثارت مدينة كربلاء بعد معركة الحلة السابقة وقبل معركة عفك وكان أهل كربلاء قد انقسموا الى شطرين شطر مع داود وشطر عليه ونشبت المعارك بين الفريقين ثم اصطلحا وطرد الزعماء الممالئون لداود فلجأ هؤلاء الى متبوعهم يستنجدونه ، ووجد داود الفرصة مناسبة لاحتلال مدينة كربلاء فوجه اليها جيشه وأعوانه فى شوال سنة **١٢٤١هـ** وكان أكثر جنده من عرب العراق وعلى الاخص شمر وعقيل وكان القائد سليمان (الميرآخور) وحوصرت المدينة وقطع عنها الماء وأطلقت عليها المدافع غير أنها ثبتت فى وجه الجيش ولما شعر القائد بخيبة الامل استنجد بالعشائر المجاورة فلم يفلح وفر أصحابه فاضطر الوالى داود الى تجهيز حملة اخرى مؤلفة من عقيل القصيم والاحساء ، وقطع الماء عن السكان مرة اخرى ولكن مصابرة هؤلاء واستمراهم على الدفاع أدى الى فك الحصار وتخلية المدينة من قبل الجيش المحارب فاكتفى الوالى داود بأن أمر عرب الشامية بالسيطرة على طريق كربلاء وقطع الصادر والوارد حتى اشتدت الحالة بالسكان وآثروا المفاوضة بالصلح[١٥٥] .

---

(١٥٢) مجموعة الشبيبى ومختصر تأريخ الحلة ص ٧١
(١٥٣) (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) وهو مخطوط ركيك الاسلوب غير مرقم لعبد النبى البغدادى
(١٥٤) المصدر السابق و (مطالع السعود) الورقة ١٥٧
(١٥٥) جريدة (دار السلام) العدد ٩ و ١١ من المجلد الاول سنة ١٩١٨م وتشير الى أن أهل كربلاء صنعوا مدفعا

وفى أيام الوالى على رضا وقعت حوادث غير يسيرة فى الشمال والجنوب وقد قابل هذه الحوادث بحملات عسكرية متعددة ، منهـا حملة وجهها الى الاكراد لمساعدة جيش الدولة الزاحف للقضاء على امارة راوندوز[١٥٦] وقد ثلث السهم جيش من الموصل[١٥٧] . وفى سنة **١٢٥٢**هـ **١٨٣٦**م كانت هذه الجيوش الثلاثة تطبق على الامارة الصغيرة وتطارد أميرهـا الـكردى (محمد باشا) الذى انتهى أمره بالاعدام فى سيواس[١٥٨] .

وفى أول شعبان سنة **١٢٥٣**هـ **١٨٣٧**م زحف الوالى على رضا بجيش ضخم الى الجنوب لاخضاع قبائل (المحمرة)[١٥٩] فى الضفة الشرقية من شط العرب وكان ادعاء كل من ايران والدولة العثمانية بملكية هذه المقاطعات سببا فى النزاع المستمر ، ولهـذا الادعاء صمم الوالى على رضا أن يلحقهـا بالدولة العثمانية مباشـرة وكان الجيش الذى قاده مكونـا من جنود الدولة (الارناؤد) ومن قبائل العراق ومنهم زبيد وعقيل وطىء والمنتفق وغيرهم ، وقد انتهى هذا الزحف باحتلال المحمرة وطرد زعيمهـا الشيخ جابر بعد معارك عنيفة مخربة .

وبعد عودة على رضا من المحمرة كانت قبائل خزاعة الضاربة أطنابها على الفرات الاوسط تحرك أصابعها فى وجه الوالى الذى أناط الزعامة على الفرات الاوسط بالشـيخ (وادى الشفلّح) زعيـم زبيـد سـنة **١٢٥٢**هـ **١٨٣٦**م[١٦٠] ولم يكن هـذا العمـل الذى تدعمه قوة الوالى مما يرضى به

---

(١٥٦) كان جيش الدولة بقيادة الصدر الاعظم رشيد محمد راجع (خلاصة تأريخ الـكرد وكردستان) لمحمد أمين زكى ص ٢٤٦ و٢٤٧ . ترجمة محمدعلى عونى

(١٥٧) كان قائد جيش الموصل الوالى محمد باشا (اينجه بيرقدار) وهو ثانى وال تركى بعد الجليليين راجع (تأريخ الموصل) ص ٣١١ ـ ٣١٤ ج ١

(١٥٨) خلاصة تأريخ الـكرد وكردستان ـ ص ٢٤٧

(١٥٩) هـذه القبـائل عربيـة واشـهرها كعب المحيسن وتميم وغيرهم

(١٦٠) تأريخ الديوانية قديما وحديثا للحاج وداى العطيه ص ٣٩

(ذرب آل مغامس الشلال) شيخ خزاعة ، وفي ذى الحجة من سنة **١٢٥٣**هـ كانت خزاعة معثرة بسلاح الوالى ، وزعيمها ذرب قد انهزم مع أعوانه .

وفي أوائل ولاية محمد نجيب (**١٢٥٨**هـ **١٨٤٢**م) هبت زوبعة متمردة فى بغداد سببها تعصبه التركى وغطرسته وتكليف السكان بما لا يطيقون[١٦١] من الضرائب ومساندته حكامه وحاشيته من المرتشين ولكنه تغلب على هذه الزوبعة ونفى رؤوس الثائرين[١٦٢] .

وحدثت فى السنة الاولى من حكمه ثورة فى كربلاء فوجه اليها حملة أراد بها القضاء على نفوذ الزعماء الذين كانت صلتهم ضعيفة بولاة بغداد[١٦٣] وكانت حملته هذه بموافقة الباب العالى لقدسية المدينة وفى عد الاضحى من سنة **١٢٥٨**هـ كانت مدافعه تضرب كربلاء فقتل من أصابته النار ونجا من لاذ بالهرب الى الارياف والقرى المجاورة ، وقد اهتز سكان الفرات لهذه الحادثة[١٦٤] التى عدت من سئات هذا الوالى[١٦٥] ولم يكن معث الاستياء ناشئا الا من كون هذه المدينة تضم قبر الامام الحسين[١٦٦] ولو جردت من هذه القداسة لكان من المحتمل أن يكون للوالى عذر فى محاربة جماعة من المتمردين (الفتيان) الذين تسببوا فى اصابة المدينة وبعض سكانها الابرياء .

وفي الشمال كانت لمحمد نجيب حملة قاسية وجهها لاخضاع الاكراد المتمردين فى السلمانية وكان ذلك سنة **١٢٦١**هـ **١٨٤٥**م وقد أسفرت هذه الحملة عن هزيمة الزعم الكردى أحمد بابان الى الحكومة الايرانية ، ومن

---

(١٦١) الروض الازهر للسيد مصطفى الواعظ ص ٨٥
(١٦٢) وفى هذه الحادثة عزل أبو الثناء الالوسى من منصب الافتاء
(١٦٣) الزوراء العدد ٥٦٤ من السنة السابعة ١٤ شعبان ١٢٩٢هـ
(١٦٤) تاريخ الديوانية قديما وحديثا ص ٤١
(١٦٥) جريدة (العرب) البغدادية العدد ١٢ من السنة الاولى
(١٦٦) تقول جريدة (الزوراء) فى العدد ٥٦٤ من السنة السابعة عن محمد نجيب انه فتح كربلاء المعلاة بضرب السيف ولعمرى لقد علّها من كؤوس الحرب عله شفى بها لها علة » !! وفى مجموعة الشيخ محمد رضا الشبيبى شئ من التفصيل لهذه الحادثة التى قدر عدد القتلى فيها باثنين وعشرين ألفا ما بين رجل وامرأة وطفل

الغريب أن هذا الزعيم كان قبل ذلك يعد العدة لرد جيش ايرانى يريد الزحف على السليمانية !! وقد احتجت الحكومة الايرانية لدى الباب العالى على تصرف هذا الزعيم فأدى ذلك الى محاربته من قبل الوالى محمد نجيب وطرده الى ايران التى أراد محاربتها(١٦٧) .

ولكن أعمال محمد نجيب التى تبدو فى أكثر صورها قاسية شديدة كان الجانب التركى يراها أعمالا موفقة لان ولاية محمد نجيب كانت فى نظر الاتراك فتحا جديدا للعراق اذ أعاد للدولة ما كان بيد القبائل من المقاطعات الزراعية وبخاصة ما كان فى وسط العراق وجنوبه ، ويعتقد الاتراك أن هذه القبائل اغتصبت هذه الارضين من الدولة(١٦٨) .

وحدثت بعد ذهاب محمد نجيب ثورات اخرى وعلى الاخص حين كانت الدولة مشغولة بحرب القرم مع روسيا سنة **١٨٥٤–١٨٥٥م** فقد كان انشغالها هذا سببا فى ثورات داخلة فى العراق ، وبعد انتهاء حرب القرم صممت على قمع هذه الثورات والقضاء على نفوذ الزعماء فانتدبت لذلك قائدها فى حرب القرم (عمر باشا) المعروف بشدته وكان هذا القائد نمساوى الاصل(١٦٩) ورافقه الى العراق زميله فى حرب القرم (شبلى) العريان الدرزى(١٧٠) ووصل هذان الى بغداد سنة **١٢٧٤هـ ١٨٥٧م** فامتلأ العراق بالجيوش ، وانتشر الرعب بين السكان ، وفى شوال من السنة نفسها أخذ

---

(١٦٧) راجع التفاصيل فى (تأريخ السليمانية) ص ١٥٩ ــ ١٦٠ من الترجمة العربية و ص ١٥٩ ــ ١٦٠ من الاصل الكردى

(١٦٨) راجع (الزوراء) العدد ــ ٥٦١ السنة السابعة

(١٦٩) كان اسمه (ميخائيل) وقد ولد فى (بلاسكى) على حدود بوسنه وأبوه ضابط فى الجيش النمساوى فسلك مسلك أبيه ثم ترك وطنه وهو فى الثامنة والعشرين والتحق بالدولة العثمانية وأسلم وسمى نفسه (عمر) وأشرف على تعليم (عبدالمجيد) قبل توليه السلطنة ، وشارك فى حرب الدولة ضد ابراهيم باشا فى سوريا سنة ١٨٣٩م وحارب فى الجبل الاسود سنة ١٨٥٣م وشارك فى حرب القرم ومنها جاء الى بغداد . راجع (تراجم مشاهير الشرق) لجرجي زيدان ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ج ١ ط ٢

(١٧٠) كان متصرفا للحلة وتوفى سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م راجع ــ (الزوراء) العدد ٥٦١ من السنة السابعة

الوالى (عمر) يجند الشبان اللائقين تطبيقا لنظام الجندية الجبرية • واشتد ضغطه على النجف وكربلاء فهدد وسجن وأخذ السلاح[١٧١] وآزره شبيهه بالشدة والصرامة (خلف آغا) حاكم الحلة فقد كان هذا يعاقب المتهمين بفرض التجنيد عليهم[١٧٢] وكان العراقيون يكرهون التجنيد ويهربون منه لان الجندى العراقى كان يرمى به فى أماكن بعيدة ومن النادر أن يعود الى بلاده ، وكانت سيرة الولاة وكثرة الحروب وعدم العناية بالجند من أهم العوامل فى تنفير العراقيين من الجندية[١٧٣] ولهذا قامت الثورة فى العراق ضد هذا الوالى ، وكان الغليان قد اشتد فى الفرات ووقعت معارك عدة بين السكان وبين القائد شبلى ، ولم يسترح العراق الا بعد عزل الوالى عمر فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م وكان يوم تركه العراق عيدا للسكان[١٧٤] وليس لاخفاقه فى الحكم من سبب سوى صرامته لمصلحة الدولة ولكن على الطراز القديم[١٧٥] الى جانب ما عرف به من شدة البطش وصعوبة المراس[١٧٦] •

أما الثورات فى أيام محمد نامق[١٧٧] فانها ليست الا كعاصفة هبت مرة واحدة ومدت أطرافها فى كل مكان ولاسيما الفرات الاوسط وديار المنتفق وكان سببها صرامة هذا الوالى وتعصبه التركى وكونه رجلا عسكريا خاليا من المرونة • ولم تسلم الفترة التى قضاها (مدحة) فى العراق من قيام ثورة فى الفرات الاوسط وقد قضى عليها بشدة ، وشنق بعض الرؤساء وكان سببها العجرفة التركية التى أبداها متصرف الحلة[١٧٨] فقتله الثائرون من

---

(١٧١) تأريخ الديوانية قديما وحديثا ـ ص ٤٥

(١٧٢) مختصر تأريخ الحلة ص ٧٣

(١٧٣) كان الريفيون الاتراك أنفسهم يهربون من الجندية

(١٧٤) تاريخ الديوانية قديما وحديثا ص ٤٥

(١٧٥) أربعة قرون ص ٢٧٠ •

(١٧٦) مشاهير الشرق ـ ص ١٥٠ ج ١

(١٧٧) راجع الهامشين ٢٥ و٢٧ من هذا الفصل والصفحة التى تتصل بهما

(١٧٨) اسمه توفيق وهو ابن أخت الوالى مدحة وكان قتله فى سنة ١٢٨٥هـ ١٨٦٩م

العشائر لانه اعتدى على أحد الرؤساء بأن لطمه على عينه •

لم تكن هذه الصور التى عرضتها من الثورات الا بعض النماذج مما حدث فى العراق طيلة القرن التاسع عشر ، وسواء أكانت هذه الثورات بحق[179] أو لغير حق فانها دليل تفسخ الحكم العثمانى وعدم انسجامه مع المحكومين ودليل اشمئزاز العراقيين أو معظم العراقيين من حكام لا يحسنون السياسة ولا ينتمون الى العراق بصلة ، وقد خفت وطأة الثورات فى أواخر القرن التاسع عشر الى حد ملموس بسبب تقريب بعض الزعماء ومنحهم مقاطعات كثيرة واستعداد الدولة بالقوى الكافية وتزويد هذه القوى بالسلاح والزوارق البخارية وانتشار أسلاك البرق التى سهلت اتصال المدن ببغداد وبغداد بالاستانة •

العراق والتيارات الحديثة :

قبل أن أبين مدى صلة العراق بهذه التيارات الجديدة أود أن أذكر بايجاز موقف الدولة العثمانية منها ومدى صلة البلدان العربية الاخرى بها •

لم تكن التيارات الفكرية الحديثة التى ظهرت فى اوروبا عند بداية القرن التاسع عشر ذات أثر بارز فى المظهر العام لكيان الدولة العثمانية فقد كانت الجامعة الاسلامية تسيطر على الرأى العام الى جانب الجامعة العثمانية التى يشترك فيها المسلم وغيره بل تشترك فيها الاجناس والعناصر التابعة للسلطان العثمانى ، وعلى الرغم من ظهور الطباعة والصحافة فى الاستانة[180] واحتكاك بعض أدباء الاتراك بالآداب الاوروبية والفلسفات

---

(١٧٩) جاء فى مذكرات مدحة ص ١٦٣ و١٦٤ تعليل مقبول لمعظم هذه الثورات ولاسيما تلك التى تحدث فى المناطق الشيعية فهو لا يعزوها الى اختلاف المذهب كما يرى أنصار السلطان ولا الى تحريض رؤساء القبائل على محاربة الحكومة للتخلص من الاموال الاميرية وانما يعزوها الى مشكلة الاراضى التى سببت انتشار الفقر بين الفلاحين وعدم استقرارهم

(١٨٠) انشئت الطباعة فى تركيا عام ١٧٢٧م وقد سبقها فى القرن الخامس عشر انشاء مطبعة يهودية تطبع بحروف عبرية لمنفعة اليهود راجع (لغة العرب) ج ٥ س ٢ اما الصحافة فقد انشئت فى تركيا عام ١٨٣١م وأول صحيفة (تقويم وقائع)

الحديثة والثقافات المختلفة ولاسيما الثقافة الفرنسية ـ على الرغم من كل ذلك ـ كان تيار الرجعية أقوى ثباتا فى ميدان الشعور العثمانى من أية فكرة جديدة[١٨١] حتى فى مرحلة التطور التى حدثت فى أواخر القرن التاسع عشر وظهور بوادر الفكرة الطورانية بين الاتراك[١٨٢] فقد كان كل شيء يسير وفق ارادة السلطان عبدالحميد الذى تمسك بالجامعة الاسلامية أشد التمسك وقد أدى وقوف الرجعية التركية موقف المناوىء لكل حركة أو فكرة أن تتعرض الدولة العثمانية لصراع مستمر مع الشعوب الخاضعة لها ممن أدركتها الفكرة الحديثة وتسرب فيها الشعور بالانفصال والاستقلال على أساس الجنس والوطن كما حدث لها مع شعوب البلقان •

أما البلدان العربية فانها أخذت تتململ من رقدتها فى القرن التاسع عشر وتتطلع الى أشعة الشمس من خلال الكوى الضيقة ، وكانت مصر وسوريا ولبنان من أسبق الشعوب العربية الى هذا التطلع بل كانت مصر أول بلاد عربية أقامت بينها وبين الغرب جسرا من البعوث المتعاقبة وساعدت على تكوين النهضة الشرقة العربية[١٨٣] ، غير أن اليقظة العربية بمفهومها الحديث ظهرت بوادرها فى سوريا ولبنان وذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقد استغل المبشرون من الامريكان والفرنسيين شعور المسيحيين فى لبنان فدفعوهم الى المطالبة بالاستقلال والتحرر من الدولة العثمانية وأسسوا المعاهد الكثيرة التى فتحت أبوابها للمسلمين أيضا وشجعوا دراسة اللغة العربية[١٨٤] وعنوا باحياء التراث العربى ليتمكنوا من التشير فى حين

---

(١٨١) كان بعض رجال الدولة أيام سليم الثالث على علم بفلسفة جان جاك روسو وغيره ولكن هؤلاء كانوا يعدون الفلاسفة من الزنادقة راجع مجلة (الطليعة) ج ٧ س ٥ من مقال للدكتور كامل عياد

(١٨٢) القومية التركية جاءت متأخرة عن القومية العربية راجع (العرب تأريخ موجز) لفيليب حتى ص ٢٥٤

(١٨٣) راجع (نشوء الفكرة القومية) لساطع الحصرى ص ١٥٣ ط ٢ و (النهضة العربية فى العصر الحاضر) لشكيب ارسلان ص ٨

(١٨٤) كان استخدامها للتبشير راجع (العقد) ديوان ابراهيم اليازجى ص ١١

كانت الطبقة الحاكمة فى مصر عند بداية النهضة تعنى بالادب التركى أكثر مما تعنى بالادب العربى[١٨٥] ان لم نقل انها لم تلتفت اليه أدنى التفاتة[١٨٦] .

أما العراق فقد بقي طلة القرن التاسع عشر بعيدا عن التارات العربية الحديثة على الرغم من اتصال بعض أدبائه بأدباء سوريا ولبنان ولم يكن يعرف عن العالم الخارجى شيئا عدا ما كان يعرفه بعض السكان عن السياح الاجانب والمقيمين الممثلين للدول الاجنبية فى بغداد والبصرة والموصل لذلك كان تأثر العراق بالغرب أقل من تأثر البلدان العربية[١٨٧] التى أشرنا اليها مع أن الطباعة قد شقت طريقها اليه فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ثم أعقبها ظهور الصحافة ممثلة فى جريدة (الزوراء) وغيرها ، ولكن الطباعة لم تفده فى نشر كتاب جديد الاتجاه ولا الصحافة كانت ذات توجه مؤثر ، وكان الى جانب ذلك أسباب اخرى تتصل بالسياسة والمجتمع أما الساسة فانها عمدت الى استخدام الزعماء وشيوخ العشائر بمنحهم المقاطعات الكثيرة ليكونوا عونا لها ، وفى أيام الوالى (مدحة) كان ناصر السعدون وأخوه منصور من السلاح الطيع بيد الحكومة لتنفيذ الروح العثمانية وكذلك كان فرحان بن صفوق شيخ شمر الذى أصبح كناصر السعدون خاضعا للاتراك بتوطنه فى الاراضى الزراعية وتثقيف أبنائه ثقافة تركية ومثل هذا الاستيطان ما حدث للقبائل الاخرى حتى أخذت الميزات القديمة تضيع بسرعة بين هذه القبائل وحتى تغلغل النفوذ التركى أكثر من ذى قبل وساعد على تقوية هذا النفوذ الوسائل الحديثة التى سهلت سرعة الاتصال وأعمال السقى التى تشرف عليها الحكومة[١٨٨] .

وقد مال السلطان عبدالحميد الى الاكراد فاستخدمهم فى أعمال

---

(١٨٥) (تأريخ الشعوب الاسلامية) ص ٩٩ ج ٤
(١٨٦) (فى الادب الحديث) لعمر الدسوقى ص ٣٧ ج ١
(١٨٧) (الزهاوى الشاعر) لاسماعيل أحمد أدهم ص ١٦
(١٨٨) راجع (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) ص ٢٩٤ — ٢٩٧

الجندية واستعان بهم فى دعم أغراضه السياسية فى بعض جهات العراق ، وفى أواخر القرن التاسع عشر تحولت تلك الثورات العامة الى شبه انتفاضات محلية يقوم بها بعض المتمردين ولكنها سرعان ما تنطفىء • وكانت سياسة التعليم من أقوى الاسباب فى منع احتكاك العراق بالاتجاهات الفكرية الحديثة فقد كانت المدارس على قلتها وضعف التدريس فيهـا وكونه باللغة التركية وحدها لم تنشأ الا لدعم الروح العثمانية وتخريج موظفين صغار •

وأما المجتمع فقد كان انقسـام السـكان الى عناصر وطوائف من أهم الاسباب فى تعويق الوعى الوطنى فان هؤلاء لم يوحدهم هدف ولم يجمعهم شعور واحد ولم تمزج بينهم الحوادث والخطوب فتؤلف منهم أمة واحدة تسعى الى حريتها واستقلالها فقد كان للاكراد طريق وللعرب طريق ، وكان السنة فى جانب والشـيعة فى جانب آخر وكذلك بقيـة الطوائف الدينية الاخرى ، وكان الموسرون من طبقات المجتمع بين مالك أرض لا ينظر الا لمن يخفف عنه الضرائب وشيخ لا يريد سوى الابقاء على مقاطعاته وارضاء الحكام ، وتاجر لا يتجاوز شعوره حدود استتباب الامن واستقرار الاحوال •

وهكذا انتهى القرن التاسع عشـر والعراق قفر يباب وسـكانه جهلة أميون الا القليل من رجـال الدين ومقربى الدولة وقـد نسى معظمهم لذة الحرية ويئسوا من أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وقد ساعد على هـذا اليأس بل على الظلم بجميع ألوانه ما كان يفعله بعض العراقيين أنفسهم من تحريض الولاة وتسديد خطاهم فى محاربة السكان وتهوين كل ذنب يرتكبه الوالى أو القائد أو أى حاكم •

ولكن هذا كله لا يعنى أن الحس العربى كان مفقودا أو أن الشعور بالظلم كان غير موجود وانما كان ذلك ضعيفا بالنسبة للمفاهيم الحديثة التى شاعت فى اوروبا وتسربت فى بعض الشعوب الاخرى •

الفصل الثانى

الحالة الاجتماعية

صعوبة التصوير :

ان دراسة الحالة الاجتماعية فى العراق خلال القرن التاسع عشر ليست أمرا سهلا ميسورا للباحث الحديث لان المؤرخين الذين تناولوا دراسة العراق فى تلك الفترة لم يرسموا صورة واضحة للناحية الاجتماعية من كل جوانبها ولعل انصرافهم الى الناحية السياسية ـ على ما فيها من نقص ـ وتقليدهم المؤرخين القدماء قد جعلهم يهملون تصوير المجتمع ورسم خصائصه ومظاهره كما يجب ، وما كتبه مؤرخو العراق لم يتجاوز الحوادث السياسية العامة والحروب والثورات وعلاقة القبائل والمدن بالدولة عامة والولاة والموظفين خاصة ، أو أعمال الدولة والولاة فى تدبير الحكم وقمع الثورات والخوض فى المعارك والحروب ، وهؤلاء المؤرخون ـ ان صح أن أسميهم مؤرخين ـ على اختلاف بيئاتهم ومداركهم المحدودة لم يتجهوا فيما كتبوا من التاريخ الا الى مجاراة الدولة والولاة وتسجيل الحوادث فى ظل القوة الحاكمة الا القليل منهم ، فاذا لمسنا شيئا من صور المجتمع وحياة السكان فى كتاب أو مجموعة فانا نجد ذلك قد جاء عرضا ولم يقصد اليه لذاته بل لحاجة سياسية اقتضت الاشارة اليه ، ولعل قليلا من المؤرخين

والرحالة الاجانب تنـاول بعض مظاهر المجتمع العراقى ولكن الاعتماد على الرحالة والسـياح والمؤرخين الاجانب لا يغنى الغنـاء الكافى فى دراسـة الاحوال الاجتماعيـة فى العراق لان هؤلاء لم يكونوا جميعا قد تغلغلوا فيه ودرسوا مظاهره دراسة عميقة أو اطلعوا على تقاليده وعاداته اطلاعا دقيقا ، ومهما يكن من شىء فان ما كتبـه مؤرخو العـراق والرحـالة وغيرهم من الاجانب ليس الا مفتاحا لتتبع الاقفال التى تعترض طريق الباحث الحديث ، وان اتباع نظرية القياس ـ هنا ـ قد تذلل صعوبة البحث لان المجتمع العراقى كان فى قراه وأريافه وبواديه مجتمعا بدائيا أو قريبا من المجتمعات البدائية التى يسير فيها التطور ببطء شديد ولاسيما فى عصر كانت سياسة الحكم فيه سياسة هدم وتخريب لا سياسة بنـاء وتطور فما كان مألوفا فى العراق قبل القرن التاسع عشر كان هو نفسـه خـلال هـذا القرن ولاسيما فى القرى والارياف والبوادى •

نظرة موجزة :

لا أريد فى هـذا الفصل أن أتنـاول كل نواحى الحيـاة الاجتماعية وخصائص المجتمع العراقى ومميزاته وانما أكتفى من كل هـذا بما يتصل اتصالا مباشرا أو غير مباشر بالشعر وبما يمكن أن يسمى مؤثرا أو عاملا من عوامله وسأتجنب التفصيل فيما دأب عليه مصورو الحالة الاجتماعية فى أية بيئة من تناول الجزئيات الى جانب المظاهر العامة فان تناول الجزئيات شىء عير سهل الى جانب كونه قد يعد غير ذى جدوى فى هذه الدراسة كوصف المدن والقرى والارياف والمساكن والازياء والمرأة والتقاليد والعادات واختلافهـا باختلاف السـكان وبيئاتهم وكوصف الخرافات والاوهام التى كانت شائعة حتى فى المدن[1] ، وحسبنا من هذا كله أن نعرف باختصار أن المساكن فى العراق كانت لا تعدو الطين والقصب وسعف النخل وشعر الحيوانات فى

(١) راجع عن بعض الخرافات فى بغداد مجلة (لغة العرب) البغدادية ج ٨ من السنة الثالثة و ج ١ من السنة الرابعة

القرى والبوادى والارياف ، وخليطا من بعض هذا ومن الآجر والصخر فى المدن ، وليس فى العراق من بنـاء يستحق الذكر بعد التخريب وكوارث الفيضـان التى تتابعت عليـه غير آثار قديمة كتب لهـا البقاء وغير مسـاجد وأضرحة شيدت على قبور آل البيت فى المدن المقدسة ولعل القليل جدا من بيوت الاغنيـاء وموظفى الدولة كان يمكن أن يوصف بأنه شىء لا بأس به فى مظاهر الزخرفة والهندسة الشرقية ولاسيما فى بغداد[٢] • أما الازياء والملابس فقـد كان العراق منهـا أشبه ما يكون بمتحف كبير يضم مختلف النماذج والصور ولعل فى بقاء الكثير من تلك الازياء حتى الآن ما يغنى عن وصفهـا فى القرن التاسع عشر[٣] • وأما المرأة فهى فى المدن جليسة بيتها فاذا خرجت فهى محجبة ، وقليـل من المسنات والعجائز من يخرجن للبيع والشراء فى الاسواق ، ولكنها فى الريف والبادية تسهم مع الرجل فى معظم أعماله فى الزراعة والرعى وصنع ما يحتاج اليه البيت ولها شأن فى المعارك والحروب ان لم يكن فى حمل السلاح ففى الاثارة والاستصراخ والتشجيع فى حين أنها لا تلقى من الرجل ما يدل على احترامها وتقديرها غير أن المرأة الكردية كانت تعامل من الرجل معاملة حسنة ولكن الكردية القروية كانت معرضة لتعسف الامراء والزعماء[٤] •

هـذه هى بعض الجزئيات التى لم أر بأسـا فى الاشارة اليهـا تاركا التفصيل الى المراجع التى ذكرتها فى الهوامش • أما ما يمكن أن يعد شيئا

---

(٢) راجع عن وصف مدينة بغداد رحلة (نيبور) ص ٢١٧ ج ١ من الاصل الانكليزى و (تنزه العباد) لنابليون ماريني ص ٥١ و٥٢ و (قلب العراق) لامين الريحانى ص ٤٢ • وجريدة (الزوراء) العدد ١٤٥ من السنة الثانية الصادر بتأريخ ٣٠ صفر ١٢٨٧هـ فقد جاء فى هذا العدد أن سكان بغداد فى سنة ١٢٨٧هـ ١٨٧٠م خمسون ومئة الف وفيها من الدور ثمانية عشر الفا

(٣) راجع لـكثير من وصف الازياء فى رحلة (ريچ) ص ١٩٨ و٢٠٢ و٢٠٥ و٢٠٦ • (تنزه العباد) ص ٥٣ و Baghdad The city of Peace. p. 242.

(٤) رحلة (ريچ) ص ٢٠٢ و٢٠٤

ذا جدوى فى الدراسة الموضوعية التى تتعلق بهذا البحث فهو دراسة عناصر السكان والمظاهر القبلية والافراح والاحزان ومظاهر الغنى والفقر والديانات والمذاهب والتصوف وأثر ذلك كله فى حيـاة السكان ثم التباعد بين اولئك بسبب اختلاف العناصر والديانات والبيئات ، ويعود السبب فى أهمية هـذه الدراسة الى علاقة هذه المظاهر بالشعر بل يكاد كثير منها أن يكون مؤثرا قويا فى توجيه الشعراء واثارة عواطفهـم كمظاهر الاحزان واختـلاف المذاهب والغنى والفقر وكالمظاهر القبلية التى كانت عامـلا قويا من عوامل الثورات الكثيرة التى كانت هى الاخرى من بواعث الشعر سواء منه ما اتصل بالحكم وانحاز الى جانبه أم ما كان بجانب الثائرين على ذلك الحكم •

عناصر السكان :

ان العراق كغيره من الاقطار التى تعرضت لموجات مختلفة من البشر يرتطم بعضها ببعض ويذيب بعضها بعضا وقد تذهب موجة لتحل محلها موجة اخرى وقد تبقى الاولى شيئا من أطرافها وقد تندمج الاثنتان معا لذلك لا يمكن القول بأن العراق موطن لعنصر واحد ـ وان كان معظم سكانه من العرب ـ فقد كان موطنا لاجناس مختلفة أثرت فى بعضها الحضارة العربية فصهرته ودمجته بالعنصر العربى الاكبر وبقى بعضها متمسكا بلغته وعاداته لقلة اختلاطه بالعرب ، وفى بعض المدن ـ ان لم نقل فى معظمها ـ من ينتمى الى أصول غير عربية ولاسيما بغـداد بوصفها مركزا سياسيا هامـا وملتقى للحركات التجارية والمهنية فقد كانت تضم عددا غير قليل ممن هاجر اليهـا من ايران والهنـد وغيرهما(٥) الى جانب الاتراك(٦) والمماليك الحاكمين • وكانت العنـاصر التى تدعى أنهـا بقايـا الشعوب القديمة فى العراق أمثال السريان والكلدانيين والآشوريين تقطن فى الشمال ولاسيما المناطق الجبلية التابعة لولاية الموصـل • وفى تلعفر وكركوك يقيم بقايـا التركمان الذين

(٥) جاء فى (الزوراء) العدد ٥٠٥ السنة السادسة ان حول ضريح الشيخ عبدالقادر قرابة ثمانمئة دوريش من الاقوام المختلفة

(٦) العنصر التركى وفد الى العراق منذ العصر العباسى

هاجروا الى العراق فيما قبل هذا العصر ، ويقيم الاكراد فى المناطق الشمالية الجبلية التى تقع قريبا من حدود ايران وقد تفلت بعضهم فسكن بغداد وغيرها من المدن الاخرى طلبا للعيش • وأما العرب وهم العنصر الاكبر فان فريقا منهم يعيش على الانهار فى القرى المتناثرة على شاطىء دجلة والفرات وفريقا آثر حياة البداوة متنقلا مع الغيوم والامطار ومواسم الربيع • وفريقا ثالث دفعته عوامل كثيرة الى سكنى المدن أو الى بناء مدن جديدة فكان لهم فى بغداد والموصل والبصرة شأن كبير ، وكانت المدن القديمة الاخرى كالحلة والنجف وكربلاء[7] تصطبغ بالصبغة العربيــة شأنهـا شـأن المدن التى استحدثت خلال العصر العثمانى كالعمارة والكوت والناصرية والرمادى[8] وغيرها أو القرى التى توسعت ثم اطلقت عليها صفة المدن كالديوانية وسوق الشيوخ وكالمدن الصغيرة التى تقع على الفرات الاعلى فان هذه كلها كان طابعها الذى تتسم به طابعـا عربيـا فى كثير من العادات والتقاليد وان ضم بعضها اخلاطا من الامم الاخرى •

المظهر القبلى

لعل المدن بما فيها من تنافر الاجناس والطباع لا يمكن أن ترسم صورة واضحة لحياة عامة مطردة ذات طابع متميز كالصورة التى ترسمها حياة القبائل بوصفها أقرب ما تكون الى الحياة البدائية منها الى الحياة المتحضرة • وقد مر بنا فى الفصل السياسى ما كان للقبائل من شـأن فى تتابع الثورات والتمرد على الحكم فالمجتمع القبلى فى العراق أكثر السكان عددا وأوضحهم تصويرا للعادات والتقالد الشائعة لان هذه القبائل تخضع لزعامات ذات نفوذ وتلتزم بما تفرضه تلك الزعامات والعادات الموروثة التى لا يمكن الخروج

---

(٧) أدت حـادثة داود سنة ١٢٤١هـ وحادثة محمـد نجيب سنة ١٢٥٨هـ الى هجرة كثير من العرب من مدينة كربلاء

(٨) انشئت مدينتنا الرمادى والناصرية فى أيام الوالى مدحة وقد استقدم لتخطيط الناصرية مهندسا بلجيكيا راجع (لغة العرب) ج ١ س ٢ •

عليها • ومثل هذه الظواهر والعادات قد يكون ضعيفا فى المدن المحكومة التى ترهب القانون وتخشى الحكم وقد تحاول التقليد والمجاراة للسلطة فى سلوكها وعاداتها ، أو المدن التى كان الحكم فيها ضعيفا ولكن سكانها أخلاط مختلفون • غير أن بعض المدن الصغيرة كان خاضعا فى مظاهره العامة للعرف القبلى السائد لكونها سوق القبائل ومستودع حبوبها وأنعامها وما ينتج من تلك الانعام ولكون النفوذ الذى يسودها ليس الا لزعماء القبائل أنفسهم حتى اللهجة الدارجة فيها كانت لهجة القبائل المحطة بها لان سكانها ممن تفرعوا من تلك القبائل وآثروا حياة المدن على حياة الارياف ولكنهم ظلوا محافظين على معظم الخصائص القبلية •

والقبيلة فى العراق تختلف باختلاف العنصر ، فالقبيلة أو العشيرة الكردية ما كانت تعنى الا الانتماء الى قرية أو مكان ولها رئيس يكون صلة التفاهم بينها وبين الامراء والملاك[٩] • أما القبائل العربية فانها تتسمى بأسماء الجدود وان قدم العهد بها أمثال ربيعة وخزاعة وبنى أسد وخفاجة وقشعم وزبيد وبنى لام وعنزة وشمر وطىء وعقيل وبنى تميم وغيرهم ، ومن هذه القبائل من تجمع أو تفرق وكثرت بطونه وأفخاذه فكثرت تبعا لذلك أسماء الفروع ، ولكل قبيلة كبيرة شيخ يسودها ويسمى شيخ المشايخ وهو الرئيس الاكبر المطاع وله الامر والنهى على الشيوخ والرؤساء الذين يسودون البطون والافخاذ • وشيخ المشايخ مسؤول عن رعاية قبيلته والدفاع عنها أمام الحكومة وهى مسؤولة عن الالتفاف حول رايته وتلبية ندائه اذا ثار على الحكومة أو حارب قبيلة •

أما عادات القبائل وتقاليدها والاحكام التى تصدرها فى مشكلاتها فهى أهم ما فى العرف القبلى وان خالفت الشرع والقانون • وكانت هذه القبائل تهتم أيما اهتمام باقتناء الخيل وحمل السلاح وتعليم الفروسية والرماية وتنشئة الاولاد الصغار على هذه الصفات ما دامت تحتاج الى ذلك فى ثوراتها والدفاع عن كيانها •

---

(٩) عشائر العراق رقم ٢ ص ١٣ و١٥

مظاهر الغنى والفقر

لقد كانت سبل المعيشة فى العراق مختلفة باختلاف البيئات وهى لا تعدو سبل العيش فى أى مجتمع متأخر غير مستقر فى أحواله السياسة فقد أثر الاضطراب السياسى تأثيرا سيئا فجعل من السكان طبقات مختلفة لس فيها من الاغنياء الا التجار الكبار والملاك وشيوخ الاقطاع وهؤلاء ليسوا الا جزءا يسيرا من السكان • أما الطبقات العامة فى المدن والارياف والبوادى فانها كانت تنوء بأعباء الفقر والفاقة لقلة الزراعة وفقدان الامن والاستقرار وصعوبة النقل ورداءة الطرق ، وكان من أسباب انتشار الفقر أيضا كثرة الضرائب التى كانت تفرض على السكان وتجبى منهم بأقسى ما تكون الجباية وكان الفلاح العراقى فريسة دسمة[10] فهو على اسعداد فى الموسم وغير الموسم لاستقبال الجباة غلاظ القلوب بل كان عرضة لما هو أشد من ذلك عندما تحتاج الدولة الى المال فى حروبها وأعمالها فيطلب اله أن يدفع قسما كبيرا من حصة الحكومة قبل موسم البيع وفى غمرة الارهاب والتنكيل يضطر الى بيع غلته قبل أوانها بثمن أقل بكثير من تقدير الحكومة وكان التجار الذين لا ذمة لهم يتربصون بهذا فيشترون بمثل ما يقدرون ويشاركون الدولة فى ظلمها[11] •

وكان غير الفلاح خاضعا لالوان من الضرائب التى لا حصر لها فقد كانت تفرض على الدور والحوانيت والمتاجر والسلع المستوردة والبقر والغنم والاسماك والملح والنخيل والاشجار عدا ضرائب الارض الزراعة • وكان من المضحك أن تؤخذ ضريبة سنوية على بيوت الشعر وقد تتكرر مرتين فى السنة[12] • وكانت الطواعين والاوبئة والى جانبها فيضان الانهر باستمرار من الاسباب التى تضعف حركة العمل والسعى وتبعث على تشريد السكان

---

(١٠) كان يدفع الخمس حصة للحكومة وحصة الجيش وهى ستة بالمائة وحصة للمعارف التى لم يستفد منها الى جانب حصة الملاك والرئيس

(١١) (لغة العرب) الجزء الثامن من السنة الثالثة شباط ١٩١٤

(١٢) راجع (الزوراء) العدد ٥١٦ السنة السادسة ١٤ محرم ١٢٩٢هـ

فى القفر اليباب ثم لا يعودون الا بحذر وخوف وهم جياع عراة • وكانت بغداد نفسها تثير الاسى بمظاهر البؤس والفقر المنتشرين فى أطرافها[١٣] ولم تكن المدن الاخرى بأحسن حالا منها ، وكانت أرياف العراق التى اشتهرت قديما بالخصب والنماء ليست الا بلاقع موحشة فلم تكن المزارع تتجاوز الميل أو الميلين من ضفة النهر وقد تكون الارض البوار متصلة بحاشية النهر لا يفصلها فاصل من نخل أو زرع • وكانت مظاهر الفقر ماثلة فى مناطق الاكراد وعلى ضفاف الانهار بين القبائل العربية فلا تكاد تقع العين الا على أجساد لا تسترها غير ملاءة من الصوف الخشن • أما المنازل فى القرى فانها كانت أشبه شىء بمقابر قديمة ليس فيها غير العظام والرمم وقد كان الكثيرون من السكان لا يكادون يستقرون حتى يرحلوا الى مكان آخر لعلهم يجدون اللقمة اليابسة[١٤] ، وقد حدث من جراء ذلك أن انتشرت اللصوصية وقطع الطرق ونهب القوافل والسفن ، وكثيرا ما كان قطاع الطرق يفرضون الاتاوة[١٥] على المسافرين والزوار الذاهبين الى المشاهد المقدسة وقد تدفعهم القسوة الى ايذاء الزائرين • ولم تكن هذه الوسيلة من قطع الطرق ونهب القوافل خاصة بسكان الجنوب بل كانت شائعة فى الشمال أيضا فقد اشتهر الاكراد الهماوند بالقتل ونهب القوافل[١٦] بل كان من الاكراد البلباس من يسبح الله ويصلى النوافل ولكنه يسفك الدماء البريئة[١٧] ويعترض طريق القادمين والرائحين ومثلهم قبائل باجلان من الترك والاكراد[١٨] • ولم يكن كل ذلك لو لا الحاجة الى العيش والاستقرار ولو لا فساد الحكم

---

(١٣) Baghdad the city of peace. p. 297.

(١٤) راجع (عبرة وذكرى) لسليمان البستانى ص ١٤٤ ـ ١٤٥

(١٥) كانت هذه الاتاوة تسمى (الخاوة) وقد جاء وصفها فى الكتيب المخطوط (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) الورقتان ٢٤ و٢٥ من نسخة يعقوب سركيس والورقتان ٤ و٥ من المختصر الموجود لدى

(١٦) عشائر العراق للمحامى عباس العزاوى رقم ٢ ص ٧٧

(١٧) المصدر السابق ـ ص ١٠٥

(١٨) رحلة المنشى ـ ص ٤٢ ترجمة المحامى عباس العزاوى

في حين كان الكثير من الولاة والموظفين والطبقات الغنية قد انصرفوا الى اللهو والموبقات ولاسيما في بغداد[١٩] •

مظاهر الافراح والاحزان :

في العراق مواسم للافراح وفيه مواسم للاحزان شأنه شأن غيره من الشعوب والمجتمعات وهذه المواسم منها ما هو فردي خاص ومنها ما هو جماعي عام فالاعياد الدينية مواسم عامة لاصحابها كعيدي الفطر والاضحى للمسلمين جميعا وكالاعياد الدينية عند النصارى واليهود ، وكان للشيعة عيد خاص بهم وهو عيد الغدير الواقع في الثامن عشر من ذي الحجة وكذلك المولد النبوي وهو في الثامن عشر من ربيع الاول عند الشيعة وفي الثاني عشر منه عند السنة ، وللاكراد عيد موسمي يحتفلون به وهو عيد (النوروز) لانه بداية فصل الربيع ويشاركهم فيه الفرس المقيمون في العراق • ومظاهر الفرح في كثير من هذه الاعياد تبدو واضحة ان في المدن أو في الارياف ، ومثلها الافراح الفردية كحفلات الزفاف[٢٠] عند العرب[٢١] والاكراد[٢٢] وللختان وعودة الحجاج من مكة نصيب غير قليل من الفرح والابتهاج •

أما الاحزان فانها كانت تسرف في حدتها عند سكان المدن وهي غير قليلة الشأن عند سكان الارياف ولاسيما المرأة التي تفقد عزيزا لها فانها قد تبقى مجللة بالسواد حتى يخلفه الكفن ، غير أن سكان البادية أكثر صبرا وجلدا وعدم اهتمام بهذا المظهر •

وفي العراق مظهر كبير من مظاهر الحزن يتخلل أيام السنة وهو

---

(١٩) راجع ـ شعراء بغداد وكتابها ص ٢٨ و٤٨

(٢٠) كانت تصحب الزفاف بنادق تدوي مقذوفاتها في الفضاء ولعل هذه العادة نشأت في بغداد وعنها أخذت وسبب نشوئها ان جنود الدولة كانوا يغتصبون الاولاد والنساء ولاسيما العرائس منهن وكثيرا ما كانت المذابح تقع بين الجنود وبين مواكب الزفاف راجع (لغة العرب) ج ١٠ س ٣ نيسان ١٩١٤

(٢١) راجع عشائر العراق ـ الجزء الاول ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦

(٢٢) راجع التفصيل في رحلة (ريچ) ص ٢٠٠ ـ ٢٠٤

خاص بالشيعة وذلك فى وفاة النبى (ص) والائمة من آل البيت وتتجلى ظاهرة الحزن بوضوح فى العشرة الاولى من محرم فيشيع لبس السواد وتقام المآتم فى المدن والقرى[٢٣] وتتلى سيرة الحسين وحادثة قتله فى اليوم العاشر وتنشد قصائد الشعر من فصيح ودارج ويتجنب الشيعة خلال محرم وصفر ـ مهما استطاعوا ـ أى مظهر يدل على الفرح والبهجة كالزواج والختان مما يتنافى مع شعار الحزن والالم •

الديانات والمذاهب[٢٤]

لقد كان العراق قديما موطن الآلهة تنحت وتعبد وكان سكانه القدماء من بابليين وآشوريين وكلدانيين وسومريين يفتنون فى صنع آلهتهم ويضعونها فى الهياكل والمعابد ويتبركون بها فى المواسم والاعياد • وانطوت عادة الآلهة من الاحجار والصخور والنجوم وغيرها لتحل محلها عبادة رب واحد أرسل الرسل وبعث الانساء وأنزل الكتب ، ودان العراق وخضع للرب الواحد وآمن بالرسل والكتب ولكنه صنع من سكانه ما صنعت بابل من العجائب فالى جانب الديانات الثلاث ـ الاسلام والنصرانية واليهودية ـ ديانات اخرى منها القديم الموروث ومنها الطارىء المستجد ، وكان ميراث العراق من العصر العباسى ذى الفلسفات والمذاهب وحظه من العناصر المختلفة والامم الداخلة فى الاسلام ميراثا صعبا شاقا رسم للتاريخ مناهج فيها كثير من الالتواء والتعقيد ورسم التاريخ منه صورا فيها كثير من الابهام والغموض وهى ان وضحت

---

(٢٣) يقول عبدالباقى العمرى فى ص ١٣٠ ـ ١٣١ من (الترياق الفاروقى)

نحـــن أناس اذا ما ... قد حل شهر المحـــرم
فكـــل شىء علينـــا ... ســوى البــكاء محــرم

(٢٤) أحصت حكومة الاحتلال سنة ١٩١٩م سكان العـراق فكانت النتيجة كما يلى (١) الشيعة ١٫٤٩٤٫٠١٥ (٢) السنة ١٫١٤٦٫٦٨٥ (٣) اليهود ٨٧٤٨٨ (٤) النصارى ٧٨٧٩٢ (٥) الديانات الاخرى ٤٢٣٠٢ راجع جريدة (دار السلام) البغدادية العدد ٤ من المجلد الثالث السنة الثالثة ٢٢ شباط ١٩٢٠

فى شىء فان وضوحها هذا انما يدل على تيارات متضاربة فى المعتقدات ، ففى شمال يقطن (العلى اللهية) الذين يؤلهون الامام عليا وينسبون له من الصفات ما لىس له • ويقيم الى جانبهم (اليزيدية) ولاسيما فى سنجار شرقى الموصل وهم يدعون أن ديانتهم سماوية أتى بها يزيد بن معاوية من لدن الاله الاعظم(٢٥) • وفى الشمال أيضا قليل من بقايا الباطنية والنصيرية • وبقايا الصابئة فى جنوب العراق يدعون أن نبيهم يحى وهم يقدسون النجوم ويعظمونها محافظة على أصول ديانتهم فى أقدم عهودها(٢٦) • وقد انقسم النصارى الى عدة طوائف منهم الكلدان والسريان واليعاقبة والنساطرة والكاثوليك والارثوذكس واللاتين والبروتستان والسبتية والملكانية(٢٧) ، ومعظم هؤلاء من سكان القرى المنتشرة فى الشمال ولهم أديرة فى تلك الانحاء(٢٨) ومثلها أديرة وكنائس فى الموصل والبصرة وبغداد(٢٩) حيث يقيم بعضهم •

وكان ثقل اليهود(٣٠) فى بغداد(٣١) غير أن بعضهم سكن البصرة والعمارة والحلة وفى جوار المكانين المقدسين عندهم (العزير) فى جنوب العراق (وذى الكفل) بين الحلة والكوفة(٣٢) •

أما الديانة الاسلامية وهى الديانة الكبرى فى العراق فانها قسمت

---

(٢٥) اليزيدية لصديق الدملوجى ص ١٦٤

(٢٦) رجع التفاصيل فى كتاب (الصابئون فى حاضرهم وماضيهم) لعبدالرزاق الحسنى

(٢٧) لم يبق للملكانيين ذكر الآن

(٢٨) راجع أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٩

(٢٩) كان للنصارى فى بغداد ستة معابد فى أواخر القرن التاسع عشر (تنزه العباد) ص ٤٦

(٣٠) جاء فى مجلة (سومر) المجلد ١١ الصادر سنة ١٩٥٥ ان عددهم يربو على عشرة آلاف فى القرن التاسع عشر

(٣١) كان لهؤلاء فى بغداد خمسة وعشرون معبدا (تنزه العباد) ص ٤٧

(٣٢) لم يبق لهم ذكر الآن فى هذين المكانين

المسلمين الى طائفتين هما طائفة السنة وطائفة الشيعة والثانية أكثر عددا من اختهـا وكل أتباعهـا امامية اثنا عشرية ومذهبهم الذى يرجعون اليه الامام السادس جعفر الصادق وقد انتشروا ما بين بغداد والبصرة على جانبى الفرات ودجلة ، أما السنة فانهم موزعون بين المذاهب الاربعة غير أن معظم الموظفين والمقربين لدى الدولة كانوا يدينون بالمذهب الرسمى وهو المذهب الحنفى وكان أكثر الاكراد من أتباع المذهب الشافعى •

وقد ظهرت فى العراق خلال القرن التاسع عشر بعض العقائد المتطرفة ومنها العقيدة (البهائية) وقد قوبلت بهجوم عنيف من المسـلمين وحاربهـا رجال الدين من الشيعة والسنة وطرد أتباعها من بغداد أيام الوالى محمد نجيب[٣٣] ومن ثم ضعفت ولم يبق من أتباعها الا النزر[٣٤] •

اثر الدين فى حياة السكان

ان لكل هذه الديانات والمذاهب التى ذكرتهـا رجال دين يتدارسونها ويبحثون فيها ويدافعون عنها وينشرونها بين أتباعهم ويشرفون على تعاليمها واقامة شعائرها فى المسجد والدير والكنسة والبيعة ، وهم المسؤولون عن المحافظة عليها والرد على من يطعن أو يعارض • واذا تركنا الطوائف القليلة بتعاليمها المبهمة وكتبها غير المنشورة فانا نجد الديانات الثلاث ذات أثر فى أتباعها وذات شأن فيما يكتب عنها وينشر فللنصارى أديرة وكنائس ومدارس لا تألو جهـدا فى ترسيخ التعاليم المسيحية بين أتباعهـا ولليهود مثلهم • أما المسلمون فقد كانت رعايتهم للتعاليم الاسلامية فى حدود ضيقة وفى طبقات

---

(٣٣) كان داعيتها المسمى ملا على البسطامى قد جاء الى بغداد سنة ١٢٥٨هـ ثم نفى منها

(٣٤) من أشهر دعاتها الداعية المعروفة (قرة العين) التى يسميها أتباعها (الطاهرة) وقد جاءت الى كربلاء سنة ١٢٦٣هـ ثم انتقلت الى بغداد واتصلت ببعض رجال الدين من بيت الالوسى ولـكنها أخرجت من العراق راجع التفاصيل فى (الرسالة التسع عشرية) لاحمد سهراب ص ١٠٥ ـ ١١٣ فى الملحق لمحمد مصطفى البغدادى

خاصة كطبقة رجال الدين أنفسهم وغيرهم من المتدينين الذين يقيمون فى المدن وفى بعض الطبقات الاخرى فيما يتصل بالفرائض والمعاملات ، أما تطبيق الحدود فقد كان أمرا صعبا لان الدولة نفسها ما كانت تهتم بذلك فقد كان الكثيرون من موظفيها يقترفون الموبقات فيكونون قدوة سيئة لمن يتصل بهم ويسايرهم من ضعاف النفوس •

وكانت القبائل البدوية لا تعرف الا اليسير من الدين وأحكامه بل كانت تجهل الاحكام التى تتعلق بالمعاملات والزواج والطلاق والارث وما يتصل بالفرائض العامة • أما سكان الجبال فقد كان الوازع الدينى ضعيفا عندهم وقد عرف عن الاكراد أن أكثرهم يؤدون العبادات ولكن معظمهم يجهل حقوق الله فى المجتمع ولا يبالى بقتل الابرياء[٣٥] • ومثلهم القبائل العربية المستوطنة على دجلة والفرات فقد كانت هى الاخرى تجهل الواجبات والاحكام الا القليل ممن تعهدها بعض رجال الدين الذين كانوا يتفقهون فى النجف والحلة وسائر المدن المقدسة وكان معظمهم من تلك القبائل نفسها ، ولم يكن هذا العمل من رجال الدين مما يرضى بعض الموظفين فى بغداد أو السائرين فى ركابهم فهو فى نظرهم وسيلة من وسائل انتشار التشيع بين القبائل وفى هذا خطر على السلطان[٣٦] •

التصوف وأثره

لا أريد أن أبحث فى التصوف هنا بحثا موضوعا لان هذا ليس من منهج البحث وانما أريد أن أتناول هذه الظاهرة بمقدار ما لها من مساس بحياة السكان وبما لها من علاقة بالشعر وان كانت ضعيفة فى السياسى

---

(٣٥) راجع عشائر العراق رقم ٢ ص ١٠٥

(٣٦) راجع هذا الرأى فى جريدة (الزوراء) العدد ٥٦٩ السنة السابعة رمضان ١٢٩٢هـ و (عنوان المجد فى بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد) لابراهيم فصيح الحيدرى ص ٢٠ من النسخة المخطوطة فى مكتبة الآثار ـ بغداد ٠

منه[٣٧] . وقبل أن أبين مدى انتشار التصوف فى العراق أود أن أشير الى أن التصوف قد شاع خلال القرن التاسع عشر فى الدولة العثمانية شيوعا مفرطا فقد كان السلطان وكثير من وزرائه وحاشيته والولاة والموظفين يشجعون طرق الصوفية بل كان السلطان نفسه يلوذ بالمتصوفة أيام الحروب[٣٨] وكانت والدة السلطان تتردد على المتصوفة وتتزود من بركاتهم[٣٩] حتى كثرت الربط والتكايا فى الاستانة وحتى صار بعضها فخا للاصطياد عند بعض الشيوخ[٤٠] الذين لا يحط من قدرهم حتى شرب الخمر[٤١] . وكان السلطان عبدالحميد الثانى[٤٢] قد عرف بتقريبه أصحاب الطرق الصوفية ومنهم محمد أبو الهدى الصيادى المتوفى سنة ١٣٢٧هـ ١٩٠٩م وكان هذا زعيم الطريقة الرفاعية وقد اشتهر بنفوذه وصلاته برجال الدين والشعراء[٤٣] وكان يحث بعضهم على التأليف فى الطرق ولاسيما الطريقة الرفاعية[٤٤] .

أما الطرق المتبعة آنذاك فأشهرها القادرية نسبة الى الشيخ عبدالقادر الكيلانى المتوفى سنة ٥٦١هـ ، والرفاعية نسبة الى السيد أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨هـ والنقشبندية نسبة الى الشيخ أحمد بهاءالدين النقشبندى البخارى المتوفى سنة ٧٩١هـ والبكتاشية نسبة الى الحاج محمد بكتاش المتوفى

---

(٣٧) فى (الترياق الفاروقى) لعبدالباقى العمرى أثر بارز للتصوف وفى (الطراز الانفس) للاخرس البغدادى بعض القصائد ومنها القصيدة التى يمدح بها الشيخ عبدالقادر الكيلانى فى ص ٣٧ ــ ٣٩ وفيها شكوى حارة من فساد الحياة والحكم

(٣٨) التصوف فى مصر للدكتور توفيق الطويل ص ٢٦

(٣٩) غرائب الاغتراب ص ١٦٢

(٤٠) المصدر السابق ص ١٥٧

(٤١) المصدر السابق ص ١٩١

(٤٢) انشىء فى أيام هذا السلطان ست عشرة تكية راجع (سالنامة البصرة) الدفعة ٢ سنة ١٣٠٩هـ

(٤٣) زار أبو الهدى بغداد سنة ١٢٨٣هـ وقد مدحه الاخرس راجع (الطراز الانفس) ص ١٦٩ ــ ١٧١

(٤٤) راجع (الاسرار الالهية) للسيد محمود شكرى الالوسى ص ٤

سنة ٧٣٨هـ • واذا كانت هذه الطرق ذات أثر كبير فى نفوس الاتراك فان لها فى العراق أتباعا من المعممين والدراويش ومن التف حولهم[٤٥] وقد شاعت النقشبندية الى جانب القادرية بين الاكراد ، وكان معظم أتباع الطريقة الرفاعية من العرب المتحضرين ، أما البكتاشية فان لها تكايا فى بغداد وكربلاء والنجف ولكنها لم تكن ذات أثر بارز بين شيعة العراق كما لم يكن للطرق الاخرى أى اهتمام عندهم ولسى معنى هذا أن التشيع خلا من الدراويش والمتصوفين فى غير العراق ، الا أن معظم شيعة العراق كغيرهم من سكان البوادى والارياف تغلب عليهم النزعة القبلية التى لم تؤثر فيها أعمال المتصوفة تأثيرا ملحوظا يضاف الى هـذا أن انصراف الشيعة الى ما يقرب من ذلك بالنسة لآل البيت قد شغلهم عن اتباع الطرق الصوفية ولاسما سكان المدن منهم[٤٦] • واذا استثنينا القبائل العربية التى لم تسرب فيها هذه الطرق تسربا محسوسا فاننا نجد بعض سكان المدن قد بالغوا فى الطرق واعتقدوا بمشايخها اعتقادا مسرفا وانقادوا لاوامرهم انقيادا مفرطا[٤٧] ، وقد شجع

---

(٤٥) مما لاشك فيه أن للسياسة أثرا فى اتباع هذه الطرق فان كثيرا من رجال الدين والوجهاء أرادوا بذلك أن يتقربوا الى السلطان والولاة

(٤٦) كان اهتمام الشيعة بمواليد آل البيت ووفياتهم واضحا فى اقامة محافل الافراح والاحزان مما يشبه حلقات الذكر عند المتصوفة وان ما نسب الى مشايخ الطـرق من الخـوارق والـكرامات كان لدى الشيعة ما يشبهه من نسبة المعاجز والـكرامات لآل البيت ورجال الدين أما الغلو المفرط بمؤسسى الطرق والمشايخ عند المتصوفة فقد كان لدى بعض فرق الشيعة ما يشبهه ولا سيما فرقة الشيخية وهم أتباع الشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائى وكان هذا قد درس فى النجف وكربلاء ثم انتقل الى المدينة وتوفى فيها سنة ١٢٤٢هـ ١٨٢٦م ودفن بالبقيع وله عدة كتب دينية ومنهـا كتاب فى الرد على الصوفية وأعمالها وقد رماه بعض علمـاء الشيعة بالافراط والغلو بآل البيت

راجع (روضات الجنات) للسيد محمد باقر الخونسارى ص ٢٥ طبع طهران

(٤٧) جـاء فى (تذكرة الشقيق الجامعة لمعرفة الطـريق) للشيخ عبدالقادر الـكيلانى (الورقة ٢) من نسخة دار الـكتب المصرية ما يلى

اعلـم اخى ان شرط الصحبة لـكل من زاد عليـــك رتبه
تبجيله حـق وحفـظ سـره ثم قبـــول نهيـــه وأمـــره
وكن لديه خاضعا كالعبـــد ولا تعـــارض قـــوله بالرد

على اتباع هذه الطرق ما كان يبديه بعض الولاة من اهتمام بهـا للتبرك بل للتزلف واستخدام المشايخ لتحقيق مآرب سياسية(٤٨) ، وقد بلغ من تمسك المريدين أن المرء منهم لا يذكر اسمه الا مقرونا بالانتساب الى الطريقة التى اتبعهـا والمذهب الذى ارتضاه ، أمـا الكرامات والخوارق التى نسبت الى مشايخ الطرق والمؤسسين فانها كثيرة وقد بولغ فيها أشد المبالغة كالذى نسب الى الشيخ خالد بن أحمد الشهرزورى(٤٩) رئيس الطريقة النقشندية فى أول القرن التاسع عشر من شـفاء المرضى وغـيره(٥٠) وكوضعه فى مصاف الانساء(٥١) وكالذى نسب الى الشيخ عبدالقادر الكلانى من احيـاء الموتى ورد الارواح وقلب الانثى ذكرا ونزول المائدة من السماء وتسليم الاسماك عليه عندما يذهب الى دجلة ومخاطبة الله اياه بالهام خاص(٥٢) واشارته على السلطان مراد فى عالم الرؤيا بأن يصنع المدافع لفتح بغداد سنة ١٦٣٨م(٥٣) أما ألقابه فمنهـا الغوث الاعظم والكنز العرفانى والغوث الكيلانى والقطب الصمدانى(٥٤) وغير ذلك •

وقد وقف بعض رجال الدين من هذه الطرق موقف المؤيد وأصدر حكمه على المناوئين لها والمنكرين عليها وعلى أصحابها ما يأتون به من أعمال

---

(٤٨) كان الوالى محمد نجيب يدعى مرة بأن قادرى الطريقة ومرة أخرى بانه نقشبندى وكان (على أشقر) أحد ولاة الموصل وهو من مماليك السلطان قد جاء الى بغداد مع الوالى على رضا سنة ١٢٤٧هـ واتصل بمشايخ الطرق طمعا بولاية بغداد فلما يئس منها عدل عن المتصوفة (راجع عن الاول العراق بين احتلالين ص ٨٣ ج ٧ والترياق الفاروقى ص ٢٤٦ وعن الثانى غرائب الاغتراب ص ١٥٨ ـ ١٥٩)

(٤٩) ولد سنة ١١٩٠هـ وتوفى فى دمشق سنة ١٢٤٢هـ ١٨٢٦م

(٥٠) المجد التالد فى مناقب الشيخ خالد ـ لابراهيم فصيح الحيدرى ص ٢٤

(٥١) رحلة (ريچ) ص ٩٨

(٥٢) راجع (تفريج الخاطر فى ترجمة الشيخ عبدالقادر) لمحمد صادق القادرى الشهابى • وهو مترجم عن الفارسية ومطبوع فى مصر

(٥٣) مجلة (لغة العرب) ج ٨ س ٣ سنة ١٩١٤

(٥٤) جريدة (الزوراء) العدد ٥٠٥ من السنة السادسة ١٢٩١هـ

وعد هذا الانكار عرضة لغضب الاله لانه يؤول الى انكار الكتاب والسنة(٥٥) وحث بعضهم على حسن الظن بالسادة الصوفية وعدم الوقيعة بهم لانها مهلكة(٥٦) • على أن هذه الطرق ـ بالرغم من التأييد القوى الذى حظيت به من السلطان وأتباعه ـ لم تلق رواجا محسوسا بين القبائل العربية ـ كما قلنا ـ فقد استنكر بعضهم احترام شيخ الطريقة فى بغداد والوقوف له فى أحد المساجد(٥٧) ، وفى بغداد أيضا كان بعض الناس يسخر من الصوفية ويستهزىء بحلقات الذكر(٥٨) ، بل كان بعض الاكراد قد نسب الضلال الى الشيخ خالد النقشندى وأراد قتله(٥٩) ، وبعضهم رماه بالكفر والزندقة لانه لم يشف نجل (الباشا) كما ادعى(٦٠) حتى اضطر أن يهرب الى دمشق ويبقى فيها حث توفى •

التباعـــــد

لعل الذى قدمته من وصف موجز لأهم المظاهر فى المجتمع العراقى خلال القرن التاسع عشر أقرب الى الواقع فى رسم الصورة الكاشفة عن خصائص السكان وأخلاقهم وعاداتهم ، ولعل هذه الصورة التى رسمتها لم تكن صورة مشرقة جملة فان أيسر ما يدركه المتأمل فى حياة سكان العراق اختلاف العادات وتضارب الاهواء ، وكان من الطبيعى أن يكون هذا الاختلاف بين السكان فى حياتهم وتفكيرهم وسلوكهم ما داموا مختلفى الاجناس واللغات والديانات والمذاهب وما دام كل فريق يتعصب لتقاليده وعاداته الموروثة ولعنصره ولغته ، واذا كان فى بعض المدن اختلاط لطف بعض الشىء من طباع المتباعدين فانه لم يستطع أن يمزجهم مزجا كاملا بحيث

---

(٥٥) راجع المجد التالد ص ٢٤
(٥٦) مقامات الالوسى ص ٥
(٥٧) عشائر العراق ص ٣٩٨ ج ١
(٥٨) المجد التالد ص ٣٩
(٥٩) المصدر السابق ص ٤٠ ـ ٤١
(٦٠) رحلة (ريچ) ص ٢٢٧

يجعل منهم عالما واحدا يخضع لعادات موحدة ويشعر بشعور واحد ، والفرق كبير جدا بين الجمع والمزج وبين الاختلاط والاندماج لذلك بقى سكان المدن فى القرن التاسع عشــر خاضعين لتلك المؤثرات والعوامل التى باعدت ما بينهم وجعلت منهم أصحاب مدن مختلفة بل جعلت من أهل المدينة الواحدة أصحاب أطراف ومحلات يخاصم بعضها بعضا ويصطدم بعضها ببعض وكانت بغداد أوضح صورة لهــذا اللون من السلوك ، فالسنة يعيشون فى محلاتهم الخاصة والشيعة كذلك واليهود والنصارى أيضا والاتراك والاكراد كل فى عالمه الخاص لا صلة ولا ترابط الا فى الاسواق وأماكن البيع والشراء • وقد يخفف الزواج بين السكان من حدة الخلاف ولكن هــذا كان مفقودا بين المسلمين والملل الاخرى ونادرا جــدا بين الشيعة والسنة ، وهــكذا عاشت بغداد وأهلها فى تباعد وتدابر ان لم يكن فى الاعمال ففى قرارة النفوس ، ومثل بغداد فى هذا التباعد بقية المدن الاخرى فان فســاد الحكم وخشونة الحياة وصعوبة المواصلات كل ذلك قد باعد ما بينها وجعل كل مدينة تعيش فى عزلة أو شبه عزلة • وكانت المدن الشيعية المقدسة غير خالية هى الاخرى من انعــدام التجانس والتفاعل وتجاوب الطبــاع فقــد كانت النجف نفسها مسرحا لحوادث مزعجة بين السكان وكانت ثورات المحلات بعضها على بعض وقتل الابريــاء شــيئا مألوفا[٦١] عــلى الرغم من كثرة رجــال الدين فيهــا وسيطرتهم الروحية على الشيعة فى العراق وغير العراق •

ولم تكن ظاهرة التباعد من صفات المدن وحدها فقد كانت بارزة بين القبائل العربية والكردية وبين القبائل وسكان المدن بل بين البدو وسكان الارياف فالاكراد المدنيون يعتقدون ببلادة القرويين منهم[٦٢] والعرب يرون الاكراد أقل شأنا ، وأهل الريف والبادية يكرهون ســكان المدن ، وسكان المدن يرون أبناء القبائل أناسا متوحشين ، أما البدوى فانه يرى نفسه أسمى

---

(٦١) ان حوادث الزكرت والشمرت قد شغلت مدينة النجف طيلة القرن التاسع عشر

(٦٢) رحلة (ريچ) ص ٦٣

من الريفى ، وكان بعض أصحاب الحرف محتقرا لدى عامة المجتمع • ولم يعدم التباعد بين طوائف النصارى أيضا ، فقد كان لكل فريق كنسة ومعبد خاص •

أما الخصام بين السكان جمعا وموظفى الدولة من كبيرهم الى صغيرهم فدليله تلك الثورات التى مر ذكرها فى الفصل الاول ، ولم تكن قصائد المديح التى قيلت فيهم لتقيم برهانا على تقارب سليم بين السكان ورجال الحكم وانما هى خطرات الشعراء التى لا تنبعث الا عن رغبة أو رهبة فى معظم الاحيان •

الفصل الثالث

الحالة العلمية والادبية

قبل البحث :

في حوض الرافدين تاريخ قديم وأمم عريقة كان لهـا شأن كبير في الحضارة والتفكير وفي العلم والادب ، وقبل آلاف السنين كانت الحياة تسير في دأب واستمرار لتعمر الارض الخضراء وتغذي الجسم والعقل ، وقبل آلاف السنين كانت الارض الخضراء تحتط باللور المذاب وتسمع الى حفيف الغصون وأغاريد الطيور وقصائد الشعراء .

ونشط الجسم للعمل فكانت الارض الخضراء تفيء الملايين من أبنائها . ونشط العقل فكانت الشرائع تسير حياة اولئك وكانت بابل مصدر تلك الشرائع ، ونشط الفكر ونبض القلب فكتبت الاناشيد والملاحم وغنت القصائد بين أيدي الآلهة على مزامير الارض الخضراء . وجاء الاسكندر ليرى مهد الاعاجيب ، وعبرت جيوش الفرس لتلتقي معه في سهول الشمال وبين جباله الشامخة . وفتن الشرق والغرب بهـذه الارض ثم انطوت العصور ودرجت الامم واختفت المعـابد والهيـاكل والآلهـة والنقوش والاسـاطير والقصائد والملاحم وتلاقت فوقها الرمال وبقايا الجدر والصخور .

ولكن الارض الخضراء بقيت تحتفظ بكثير من خصائصها ومقوماتها وظل الفرات ودجلة يتهامسان متعانقين تحت أفياء النخيل والغصون ، وورث

الارض أبناء الصحراء الذين لوحت وجوههم الشمس وشدت أجسامهم لوافح الهجير فأسسوا وبنوا وخططوا وهندسوا وزرعوا وأفادوا وكان الفرات يداعب أقدام العرب فى الحيرة والانبار ويستمع الى قصائد النابغة وعمرو ابن كلثوم والحارث الشكرى .

ثم جاءت القافلة الثانية تحمل علم الاسلام لتقم فى الارض الخضراء حضارة جديدة فى العلم والعمل وأسست الكوفة والبصرة وسار العلم والعمل فى تلك المعاهد والضفاف جنبا الى جنب ثم أسست مدينة واسط بين الكوفة والصرة لتسهم بنصيب من العلم والعمل ثم قامت بغداد على دجلة فشغلت التاريخ وماجت بالعقول المبدعة المنشئة ونشطت المدرسة الاسلامية العربية تعطى وتأخذ وتمد أشعتها فى مسافات بعدة من دنيا المسلمين ودونت الكتب فى الدين والعقائد والمناظرات والفلسفة والادب والتاريخ واللغة وتعددت دواوين الشعراء ومجاميع النثر وألف للجسم ما ألف للعقول والقلوب وبقى كل شيء من ذلك ميراثا للاجيال يتحدث به الغادى والرائح والمقيم والراحل والعربى والاعحمى

وانطوى عصر بغداد بين الفتن والحروب والخصام على الدين والملك وتشتت العلماء والشعراء وهاجر الكثير منهم الى حث يكون الامن والاستقرار ، وتحولت الارض الخضراء الى رمال وسهول خالنة وجفت الانهار والجداول وانقطعت صلة الكثير منها بالرافدين الكبيرين بعد أن ردمت الضفاف وتلاقت الرمال والحواشي وبقى الفرات ودجلة وحدهما يضيقان بالتيار فقذفان به على الرمال والسهول ليغرق ويدمر ويشرد ويهدم حتى تحولت المدن الى فرى والقرى الى أطلال ومعالم !!

وتبع ذلك كله ما كان لابد منه نقص فى الاموال والانفس والثمرات وخوف واضطراب وحكومة تأتى واخرى تذهب ، وجيوش تعر وتزحف واخرى تنكسر وتنهزم ، وحروب تشغل الناس والتاريخ ، واخرى ينتظرها الناس والتاريخ ، وجنس يصارع جنسا ولسان لا يعرف لسانا ، وبقايا رواسب تختفى تحت الاححار والاطلال كأنها بذور قديمة سقطت من قافلة

عابرة تنتظر الطل فتخضر بلا رعاية وتنمو بلا ثمر •

واستسلم العراق لعصر مظلم لا يرى فيه من خلال الكوى الضيقة غير شعاع ضئيل كأنه بصيص يتراقص على أمواج البحر من بعيد فيلوح للسفينة المضطربة حينا ويختفى أحيانا أخر •

ومنذ عصر المغول حتى بداية القرن التاسع عشر كان العراق غير العراق الاسلامى أو العباسي وكان العلم فيه ترديدا للصدى وترجيعا للنغم ولكن فى حناجر ضيقة وعلى أوتار رخوة تختلط فيها الاصوات وتنطلق من غير انسجام ولا ايقاع •

وبقيت بغداد معبر القوافل وقنطرة المسافرين تعتمد فى مدارسها على الحوامع المتأكلة وفى دروسها على السطوح والشرفات لا الاسس والدعائم وفى علومها على ما كان يلقيه الملقنون لا الشراح والمفكرون • وفى شعرها ونثرها على الخلط من سمين معاد وهزيل مستحدث • وتلاقت اللغات الاربع من تركية خالية الا من التراكيب الثقيلة وفارسية لا يفهمها الا القليل وكردية تدمدم بين الجبال وعربية تصارع من غير قوة الا ما كان لها من قداسة القرآن وشرف الحديث وجمال الشعر •

ونسيت الموصل ـ أو كادت تنسى ـ ما لها من تراث عريق فشغلتها الحياة والسياسة المضطربة عن الانتاج والابداع وفتحت أبوابها للقوافل من الشرق والغرب عابرة أو مقيمة • ومثلها مدينة البصرة فقد أقفرت هذه من أناشيد المربد وروائع الجاحظ وفلسفة اخوان الصفا •

ولكن الخيط الدقيق بقى متماسكا بين العواصف والغيوم فلم تخل هذه كلها من صلة تربط الحاضر بالماضى وتدافع عن لغة القرآن والحديث وكان لابد أن تبقى الصلة ما دام الغزاة الفاتحون يدعون الاسلام ويحكمون باسمه فحافظ الفقه على طريقته وبقى التفسير على سجيته ولكنها طريقة التقليد وسجية النقل ، واندثرت واسط بعد أن شغلت جانبا من جوانب العلم حتى العصور المتأخرة فطويت بين الرمال والصخور •

وبقى الخيط الدقيق يربط الحاضر بالماضى فى أساليب الشعراء المتكلفين فى

بغداد والموصل والبصرة ، ولكن الثقل قد وجد مستقرا فى مدينة الحلة[1] على الفرات ففتحت هذه المدينة أبوابها لابناء العرب يتدارسون العلم واللغة والادب وتخرج فيها مئات من العلماء ونبغ فيها عشرات من الشعراء لم يكن صفى‌الدين الحلى بأكبر منهم شأنا ، واستمرت هذه المدينة متسمة بطابع العلم والشعر لم تفتر ولم تقصر طوال القرون المظلمة •

وكانت مدينة النجف الى جانبها على مسافة قليلة من ضفة الفرات الغربية موطن العلماء ومثابة الدارسين من مختلف الاقطار وقد بدأت نهضتها العلمية فى منتصف القرن الخامس للهجرة واسمرت فى هذه السبيل طوال الفترة المظلمة ، وكان لمدينة كربلاء نصيب من العلم والادب ولكنه جاء متأخرا كما كان ممزوجا باللون الفارسى الوافد من ايران ، وكان لأربيل وشهرزور فى الشمال حظ من دراسة الفقه وغيره من العلوم الاسلامية •

نصيب الدولة من العلم والادب :

لست تلك المقدمة الوجيزة الا مفتتحا لدراسة الحالة العلمية خلال القرن التاسع عشر ودراسة هذه الناحية فى العراق تقتضى الاشارة الى مقدار اهتمام الدولة العثمانية نفسها بالعلوم والثقافات الاسلامية على الاخص ، والاشارة هنا لا تستلزم التفصيل أو تناول الجزئيات بل يكتفى منها بالمظهر العام •

أسست الدولة العثمانية سلطانها باسم الاسلام وتوسعت فتوحاتها بصبغة الخلافة الاسلامية وكان عليها أن تنظر الى مقومات الناحية الدينية من العلوم الاسلامية وأن تعطى هذه الناحية ما تستحق من العناية غير أن انشغالها بالحروب الكثيرة وتعصبها للغة التركية حال دون الوصول الى أية غاية مطلوبة من العلم فقد كان بعد الاتراك عن اللغة العربية وعدم فهمها حاجزا من الحواجز التى حالت بينهم وبين الاطلاع على أسرارها ، وما فهم

---

(١) أسس مدينة الحلة الامير سيف الدولة صدقة بن منصور الاسدى سنة ٤٩٥هـ

اللغة الا مفتاح لفهم علومها وآدابها ، لذلك لم تكن الجهود العلمية التى بذلت الا جهودا سطحية وقد انحطت فيما بعد ذلك أشد الانحطاط وبقيت المدارس القديمة تضم بين جدرانها أشباه الاميين ، ولم تكن المدارس الدينية فى الاناضول والاستانة والروم أبلى الا صورة من صور انحطاط فلم تخرج الا تلامذ متدئين يتولون الوظائف الدينية أما العالم الكبير منهم فانه لا يحسن غير النقل والاختصار والجمع مع ركاكة أعجمية بادية[٢] ، وكانت الوظائف الدينة لا توجه الا بطريقة الارث من الاب الى الابن ولو لم يكن له نصب من العلم بل كانت توجه الى الصغار من أبناء المتوفين رعاية الى مكانة آبائهم حتى صارت هذه الوظائف وقفا على بعض الأسر لا تتعداها[٣] الى غيرها ، وقد سيطر الجهل والتعصب على من يدعون العلم فى الاستانة حتى صاروا يبغضون كل من يرد على بلدهم من الافاضل وان كان نبيا ... وكانت رؤية العالم العربى فى أعينهم الموت الاحمر[٤] . أما الطلبة فقد كانوا مقصرين بل كان الدرس يختم والكثير منهم نائم ، وكان معظم المدرسين فى غاية الاسكبار والانانة ومثلهم الوعاظ الذين لا يقابلون بغير الضحك من المستمعين[٥] .

وبقت المدارس الدينية على حالتها من الانحطاط وعدم النظام وقد شعرت الدولة فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بضرورة الاخذ بالنظم الحديثة غير انها لم تفكر باصلاح المعاهد القديمة بل تركتها وشأنها وأنشأت معاهد جديدة مستقلة ولكن انشاء هذه المعاهد كان بدافع عملى لا منطقى اذ بدأت بانشاء المدارس العسكرية من عالية ثم اعدادية فرشدية وكانت المدارس العالية فى العاصمة وحدها أما الاعدادية والرشدية فلمراكز الولايات نصب منها ثم انشئت بعد ذلك المدارس المدنية للهندسة

---

(٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٣١١ من الجزء الاول
(٣) المصدر السابق ص ١٥ و١٦ من الجزء الثانى
(٤) غرائب الاغتراب ص ١٦٩
(٥) راجع المصدر السابق ص ١٧٣

والطب والصناعة والزراعة والتعلم والحقوق والادارة والسياسة والقضاء والتجارة[٦] وكان التعليم فيها كلها باللغة التركية ثم الفرنسية •

أما الادب التركي فانه كحضارة الترك مستمد من الفرس فأوزان الشعر مأخوذة من العروض الفارسة ومواضعه أكثرها صوفي ديني ، والنثر كان متكلفا ضعيف النسج[٧] ولم يتطور الادب التركي الا في القرن التاسع عشر بعد أن اتصل بالآداب الاوروبية وتأثر بها عن طريق الدراسة والترجمة ونبغ فه شعراء وكتاب[٨] غير أن هؤلاء ـ على الرغم من اتصالهم بالثقافات الاجنبية ـ كانوا اذا عالجوا الموضوعات السياسية أو الاجتماعية فالتلميح والاشارة لا بالصراحة والجرأة وكانوا لا يعبرون عن الدولة الا بالزهرة الذابلة والغادة المطروحة على سرير الموت[٩] وان كان منهم من استطاع أن ينتقد بعض الاعمال التي لا صلة لها بالسياسة العليا •

الحركة العلمية في العراق ـ المدارس العثمانية :

سار التعليم في العراق ابان القرن التاسع عشر في خطين موازيين لا يلتقيان عند نقطة واحدة أولهما الخط الذي رسمه الاتراك لتعليم بعض العراقيين وثانيهما الخط الموروث الذي حافظ عليه العراقيون أنفسهم بقدر

---

(٦) راجع ـ حولية الثقافة العربية ـ ص ٤ ـ ٧

(٧) راجع (تأريخ الاتراك العثمانيين ـ ص ٢٨ و٢٩ ج ٣

(٨) منهم عاكف ورشيد وشناسي منشىء جريدة (تصوير أفكار) وقد توفي سنة ١٨٧١م ومنهم محمد نامق كمال المتوفي سنة ١٣٠٦هـ وكان شاعرا وكاتبا والروائي المشهور حامد عبدالحق والشاعر المعروف توفيق فكرة والكاتب أحمد مدحة الذي صحب الوالي (مدحة) وحرر في جريدة (الزوراء) البغدادية وكان من الموجهين الى الثقافة الفرنسية وقد حرر بعد عودته الى الاستانة في جريدة (بصيرت) وانتقد الوالي مدحة وسياسة التعليم في العراق (راجع عنه (الزوراء) العدد ٢٢١ س ٣ و (دائرة المعارف الاسلامية) ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩ من المجلد الاول ومنهم الوزير أحمد جودة المتوفي سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٥م وكان مؤرخا معروفا وشاعرا بالفارسية والتركية والعربية (مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ص ١٦٨ ـ ١٧١ ج ٢ ط ٣) ومن المتأخرين الدكتور رضا توفيق الفيلسوف

(٩) تأريخ الاتراك العثمانين ـ ص ٣٧ ج ٣

ما يستطيعون من المحافظة ، وما رسمته الدولة كان معولا أراد هدم اللغة العربية وتراثها فلم يأت بأكثر من تخريج موظفين جهلة ، وقد أردت أن أبدأ بعمل الدولة فأصفه بايجاز لانه شيء تافه لا أثر له فى تكوين عقلية علمية أو خلق احساس أدبى ولانه جزء من عمل الدولة فى عاصمتها وفى الولايات التابعة لها •

عندما انتهى عصر المماليك الذين أرادوا الاستقلال بالحكم فى العراق وجاء الولاة الاتراك يتعاقبون من قبل السلطان تغير الاتجاه وتحولت السياسة العثمانية الى جعل العراق تركيا بلغته وتفكيره وقطع الصلة بينه وبين ماضيه العربى فتركوا المدارس القديمة تسير كما كانت بل أهملوا منها ما كان ذا أثر كبير فى العصور السالفة[١٠] ، وأخذوا ينشئون مدارس تركية فى بغداد وغيرها ولكن هذا العمل لم يبدأ الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بعد أن أسست المدارس الحديثة فى الاستانة وبعض الولايات الاخرى فقد أنشىء (مكتب رشدى)[١١] فى بغداد فى أيام الوالى محمد نامق فى ولايته الثانية (**١٢٧٧-١٢٨٤هـ ٦١-١٨٦٨م**)[١٢] ثم أسست ثانوية للبنين عام **١٨٧٠م** فى عهد الوالى مدحة وتبعتها مدرسة للصناعة ، وفى عام **١٨٩٨م** أنشئت ابتدائية للبنات وتبعتها ابتدائيات اخرى فى الالوية • وفى الموصل أسس مكتب رشدى سنة **١٨٦١م** وبقى وحده حتى سنة **١٨٩٠م**[١٣] • وكان الاهتمام بالنواحى العسكرية فى مقدمة العمل المدرسى فقد أنشأ مدحة فى بغداد ثانوية عسكرية سنة **١٢٨٨هـ ١٨٧١-١٨٧٢م** ، ومما يجب ذكره أن الحكومة المحلية أخذت تحث فى أواخر القرن التاسع عشر على التعلم وتدعو السكان للتبرع لانشاء مدارس فى الاماكن التى يسكنونها[١٤] غير أن هذه

---

(١٠) من ذلك اهمالهم المدرسة المستنصرية وجعلها مخزنا للملابس العسكرية ثم دائرة للمكوس

(١١) المكتب الرشدى يعنى المدرسة الابتدائية

(١٢) راجع (الزوراء) العدد ٥٨٥ من السنة السابعة

(١٣) تأريخ الموصل ص ٣٢٢ ج ١

(١٤) الزوراء ـ العدد ٤٣١ من السنة الخامسة والعدد ٦٠٣ من السنة السابعة

الدعوة لم تجد مجالا واسعا ما دام معظم السكان فقراء وما دام التعليم يجرى بلغة غير لغتهم • أما الطلاب الذين كانوا يرتادون مدارس الحكومة فان معظمهم من أبناء الموظفين الاتراك لان القليل من السكان من كان يرغب فى التعلم ولان المواد التى كانت تدرس انما تدرس باللغة التركية حتى النحو والصرف والمنطق والجغرافيا والحساب ، وكان التدريس منحطا والنظام أجوف والمدارس غير كافية والمعلمون لست لديهم ثقافة صحيحة[١٥] وكانت المواد غير مفهومة بل كان المديرون والمعلمون جهلة سيئى الاخلاق ، وكان الطلاب يتخرجون ولا يعرفون الكتابة حتى بالسير من اللغة العربية[١٦] وقد بلغ الشأن بأحد كتاب الاتراك أنفسهم أن يثور على التعليم الحديث فى العراق وأن يصف المعلمين بأنهم جهلة لا يساوون حتى كتاب العرائض وكان يفضل مدارس اليهود ويحث المسلمين على ادخال أبنائهم فيها[١٧] • وبالرغم من أن الدولة كانت تعلن أن تربية الاطفال ونشر المعارف المهمة (ملتزمة) لدى (الجناب العالى) وكل نوع من السكان والاتباع سواء لدى السلطان[١٨] !! أقول بالرغم من كل ذلك كانت المدارس لا تفتح أبوابها لكل من يرغب فقد كان الشيعة وهم أكثرية السكان لا يلقون تشجيعا فى تعليم أبنائهم[١٩] •

وقد اهتم اليهود ازاء هذا التعليم المنحط بتأسيس مدارس لابنائهم وبناتهم فأسسوا أول مدرسة يهودية فى بغداد عام ١٨٦٥م باشراف الحلف العالمى اليهودى[٢٠] ثم أسسوا مدارس الاتحاد (الاليانس) واستقدموا لها

---

(١٥) العراق ـ دراسة فى تطوره السياسى ـ ص ٨٨ الترجمة العربية

(١٦) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٣٠٢

(١٧) هو الكاتب (أحمد مدحة) من مقال له فى (بصيرت) التركية راجع عنه الزوراء العدد ٢٢١ من السنة الثالثة

(١٨) منقول ببعض التصرف من الزوراء العدد ١٩٢ من السنة الثالثة ١٢٨٨هـ

(١٩) العراق ـ دراسة فى تطوره السياسى ـ ص ٨٨

(٢٠) Baghdad the city of peace. p. 242.

أساتذة من اوروبا[٢١] وجمعوا المال المطلوب لتمشية هذه المدارس واهتموا بتعليم الفرنسية والفارسية والعربية والتركية[٢٢] الى جانب المواد الاخرى •

وكان المسيحيون مثلهم فى العناية بأبنائهم من لدن المشرين الامريكان والفرنسيين والانكليز وكانت مدارسهم بالموصل[٢٣] وبغداد عامرة بتدريس العلوم واللغات الى جانب اللاهوت والديانة المسيحة •

أما المسلمون فقد بقوا فى جهلهم وانحطاط مداركهم ، وكانت القبائل أشد السكان انحطاطا وجهلا حتى بمبادىء القراءة والكتابة •

وفى سنة ١٩٠٠م كانت نسبة المتعلمين تتراوح بين الخمسة والعشرة بالمئة[٢٤] ، واذا قبلنا ما تقوله المصادر الحكومية آنذاك فبامكاننا أن نقول ان ما يقرب من ثلثى الاهالى كانوا لا يعرفون قراءة ولا كتابة[٢٥] لذلك كانت نسبة المتعلمين فى غير المسلمين أكثر منها فى المسلمين[٢٦] وقد أدى هذا الى رسوخ اللهجة الدارجة بين السكان[٢٧] واتخاذها لغة التخاطب والحديث بل لغة بعض المؤرخين وكثير من الشعراء وكانت فى بغداد وبعض المدن ممزوجة بكلمات أجنبية كالتركية والفارسية بل كانت اللغة التركية

---

(٢١) الزوراء ـ العدد ٢٢١ من السنة الثالثة

(٢٢) المصدر السابق ـ العدد ٥٨٥ من السنة السابعة

(٢٣) ان المرسلين الدومنكيين قدموا الى الموصل سنة ١٧٥٠م ١١٦٤هـ باجازة من البابا مندكتس الرابع عشر واسسوا مطبعة سنة ١٨٦٠م ١٢٧٦ = ١٢٦٧هـ لطبع الكتب المدرسية بالعربية والكلدانية والفرنسية وفتحوا مدارسهم لمختلف الطوائف وكان للراهبات المعروفات بأخوات المحبة أثر فى تعليم المرأة بالموصل اذ فتحن مدارس للاناث سنة ١٨٧٣م وكن يقبلن المسلمات كالمسيحيات راجع ـ تأريخ الموصل ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ ج ١ وراجع أيضا عن الطباعة فى الموصل مجلة (لغة العرب) ج ٣ و٤ و٥ من السنة الرابعة و ج ٩ من السنة الخامسة

(٢٤) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٣٠٢

(٢٥) الزوراء ـ العدد ٥٦٩ من السنة السابعة ١٢٩٢هـ

(٢٦) أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ص ٣٠٢

(٢٧) كانت عامية العراق أقدم من هذا العصر وهى تختلف باختلاف المناطق غير أن السكان يفهم بعضهم بعضا فيها وان اختلفت فى بعض الكلمات والاصوات

في بغداد أكثر ذيوعا من العربية العامية وان كان كل منهما رديئا[٢٨] أما المصطلحات المهنة فان أكثرها خلط من التركية والفارسية وكان سكان المدن أكثر من غيرهم تقبلا لهذا الدخيل بحكم الاختلاط والاتصال بالسيادة العثمانية •

المدارس القديمة

اذا كان ثمة فضل على اللغة العربية فى بقائها وسيلة من وسائل التأليف والنثر والشعر فى العراق فانما هو للمدارس القديمة التى بقيت تصارع الجهل والعجمة من كل جهة ، والبحث فى هذه المدارس من كل نواحيها أمر ليس بالسهل المستطاع لانها كانت موزعة فى الموصل وبغداد والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية والبصرة وسامراء وكانت فى مناهجها غير المنظمة مختلفة باختلاف الحاجة اليها وباختلاف البيئات والمذاهب ومثل هذا العمل يحتاج الى دراسة موضوعة ليس هذا مكانها غير أن عرض أهم الجوانب فى هذه المدارس شيء لابد منه لبيان القيم العلمية والادبية التى تتصل بالبحث •

تبدأ المدرسة القديمة بتعلم القرآن وأكثر ما يكون هذا لدى الكتاتيب ثم تعلم الخط ولو بأبسط أشكاله ، واذا كان تعلم القرآن موجودا فى القرى والارياف ولو بقلة وندرة فان الدراسات التى تليه تكاد تكون محصورة فى المدن وفى طبقات خاصة من سكان المدن كالاسر الدينية وبعض التجار ومن يفد الى المدن من القرى والارياف أو من خارج العراق بغية الافادة من العلوم الدينية ، وكانت المدارس القديمة فى مناهجها وطرق التدريس فيها لا تعدو تلك التى أنشئت قديما فى العصور السابقة • وكانت المبانى ليست الا ما بقى من القرون الماضية أو الذى استحدث فى القرن التاسع عشر من قبل الموسرين وذوى البر الى جانب المساجد التى كانت ملتقى كثير من الطلاب ، وكانت هذه المدارس والمساجد التى شهدت حلقات الدرس منتشرة

(٢٨) Baghdad the city of peace. p. 242.

في بغداد والموصل والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية وسامراء والبصرة ولكنها كانت تختلف قوة وضعفا فهي في بغداد والموصل والنجف والحلة أقوى منها في بقية المدن وكان الطلاب يصبحون وقد يمسون في هذه المدارس والمساجد لستمعوا الى ما يناسب عقولهم ومداركهم ، وقد تضم المدرسة والمسجد أكثر من حلقة واحدة يرأسها استاذ يلقي ويفسر ويشرح ويستمع الى استيضاح أو مناقشة •

وكان الطالب يبدأ بدراسة النحو والصرف ثم المنطق فالاصول فالفقه لذلك كان يتلقى هذه العلوم على أساتذة مختلفين في الغالب ، وقد يتصدى الاستاذ الواحد لتدريس هذه العلوم ويحضر لديه طلاب مختلفون في أوقات مختلفة • وكان في المدن الشيعة ما يسمى بالبحث الخارجي في الاصول والفقه وهو أشبه شيء بمحاضرة يلقيها أحد الاساتذة الكبار أو المجتهدين على حلقة كبيرة من طلابه فشرح مادة أو أكثر ويستمع الى نقاش الطلاب معه فيؤيد أو يفند ، وهذا البحث لا يحضره الا من فرغ من دراسة كثير من الكتب في النحو والمنطق والاصول والفقه وصار أهلا لمثل هذه البحوث الخارجية • وقد يكون طالب البحث الخارجي استاذا لمن دونه وهكذا • وكانت أمكنة الدرس والبحوث لىس فيها استعداد من كتب أو أفرشة سوى ما تحويه المساجد من الحصر وما يشبهها • أما المطالعة والتحضير فانهما ضروريان للطالب النابه قبل الدرس وبعده فلا يحضر الا أن يكون قد استوعب الدرس السابق وأعد العدة للدرس الجديد • وكانت حياة الطلاب ـ الا القليل ـ حياة قاسية خشنة وكان معظمهم يقيم في حجر أعدت لهذا الشأن في المدارس القديمة أو التي استحدثت أما وسائل الراحة فهي مفقودة لدى الكثير منهم ، ولم تكن مصادر العيش غير دراهم من وقف أو زكاة أو ما يرسله أهل الطالب اذا كان وافدا من مكان بعيد وكان أهله قادرين على اعانته ، أو ما يوزعه ذوو اليسار ، وقد يستعين الطالب أو العالم الشيعي بعشيرته أو قريته فيذهب في الموسم ـ اذا كان من أهل القرى والارياف ـ ثم يعود الى الدراسة بعد أن يزود بشيء من مال الزكاة قد

لا يكفى حاجته ، وقد يجد الطالب فى عشه مشقة تعرضه للاستعطاف والاستجداء •

مراجع الطالب :

لا يشك أحد فى أن أهم مصادر الدراسة والثقافة وجود الكتب ميسرة سهلة التناول لمن يشاء ، وفى الحق أن العراق كان غير فقير من هذه الناحية ـ وان كانت حاجته الى الكتب تزيد عما فه منها ـ فقد كانت مساجد بغداد ومدارسها الشهيرة غير خالية من عشرات المخطوطات النافعة وكانت فى النجف مكتبة ثمينة فيها بضعة آلاف من المخطوطات وهى من أوقاف الضريح العلوى ولم تخل كربلاء والحلة والكاظمين والبصرة من أنواع المخطوطات كما كان فى الموصل مثل ذلك وكان الكثيرون من رجال الدين فى المدن التى أشرنا اليها معنيين بجمع الكتب ولكن هذه كلها كانت غير ميسرة لطالب العلم فقد كان يحال بينه وبينها فى الاغلب ولا يسمح له أن يستعير وقد يتعذر عليه نسخ ما يحتاج اليه واذا استطاع ذلك فقد يخطىء فى الاستنساخ وقد يضطر الى مشاركة رفيقه فى كتابه • أما الوراقون والنساخون فقد كانوا قلة نادرة ولم تكن ثمة أسواق أو أماكن عامرة يرجع اليها طالب العلم فيشترى منها ما يحتاج واذا وجدت هذه الاسواق والاماكن فليس للطالب قدرة على استنساخ أو شراء • أما الكتب المطبوعة فانها لم تعرف الا فى أواخر القرن التاسع عشر وكان بعض هذه الكتب يؤتى به من الاستانة ومصر والشام وايران والهند وهذه أيضا كانت قليلة لا يستطيع اقتناءها الا ذوو اليسار من رجال الدين وأمثالهم • وعلى الرغم من وجود الطباعة فى العراق منذ أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر[٢٩] لم تكن ثمة طلائع تبشر بحركة طبع ونشر يستفد منها العراق فقد كانت مطبعة الدومنكيين فى الموصل لا تعدو ما يفيد المسيحيين من الكتب ، وكانت مطبعة الحجر فى كربلاء

---

(٢٩) انشئت المطابع فى الموصل وكربلاء سنة ١٨٥٦م وفى بغداد على أشهر المصادر سنة ١٨٦٩م

لا تسطيع أن تنهض بأى عبء من أعباء النشر ، أما مطبعة الحكومة فى بغداد فانها كانت مشغولة بطبع الجريدة الرسمية • وفى مثل هذه الظروف القاسية كانت الدراسة تشق طريقها وتتلمس أسباب النقاء والانتشار وتذلل المصاعب بالقلل من الزاد والكتب وتعتمد ـ فيما تعتمد علـيه ـ على الذكاء الموروث والقابليات النشطة •

اختلاف المناهج وتنوع الدراسات :

شـاهد القرن التاسع عشـر فى العراق مدرستين هما امتداد للعصور السالفة وأعنى بهاتين المدرستين مدرسة الشيعة الامامية ومدرسة السنة وكانت قاعدة الاولى مدينة النجف وفروعهـا القوية فى الحلة وكربلاء والكاظمية وسامراء ، وصدى غير قليل فى بغداد والبصرة أما الثانية فقد كانت قاعدتها بغداد ولعلها فى الموصل لا تقل شأنا عما كان لها فى بغداد ، وفى ظل هاتين المدرستين حافظت العلوم العربية والدينة على ما بقى لها من تراث قديم على الرغم من وقوعها بين تيارات أجنبة تحذبهـا ذات اليمين وذات الشمال • وكان اتفاق المدرستين فى بعض المنـاهج يقابله اختلافهما فى بعض المناهج الاخرى فقد كان الاتفـاق فى النحو والصرف والمنطق والبيـان وما يتصل باللغة والادب ، وكان الاختـلاف فى الفقه والتفسير والحديث والكلام وما يتصل بالعلوم الدينة فالسنة لا يعولون فى النواحى الدينة على غير ما أثر عن طرقهم ، والشعة لا يأخـذون بغير مـا صح عن آل البيت عن طرقهم أيضا • واستمرت هاتان المدرستان فى طريق التقدم والنشـاط وقد كانت بداية القرن التاسع عشر بداية كريمة استطاعت فيهـا الخطا أن تتسع وقد صادف هذا التقدم رعاية من بعض الولاة فى بغداد وعناية من الولاة الجليليين فى الموصل وتشجيعا من أغنياء الشعة ورؤسائهم فى العراق وايران والهند لمدارس النجف وكربلاء والـكاظمين وبقيت المدرسـة السنية فى بغـداد والموصل بعد نهاية المماليك والجليليين مستمرة على سيرها العلمى معتمدة على الاوقاف ما قدم منهـا وما استجد ، واستمرت المدرسـة الشيعية فى سيرها العلمى معتمدة على الخيرات والحقوق الشرعية التى ترسـل الى المجتهدين

من داخل العراق وخارجه ، ولم تكن الاوقاف هناك ولا الخيرات والهبات والحقوق هنا لتسد عوز الطلاب فقد كان أكثرهم يعانى مرارة العيش وعسر المورد وكان بعضهم قد لا يجد قوت يومه بل كان بعض رجال الدين الكبار فى بغداد معرضا للفاقة الشديدة عندما يغضب عليه الوالى فيسلب منه الاوقاف ووظيفة التدريس أو الخطابة • ومثل هذا قلما يحدث للمجتهد الشيعى لانه غير خاضع لنصب أو عزل من قبل أية سلطة • ومع كل هذا كانت الدراسة نشطة وكان الاقبال عليها يزداد سنة بعد اخرى وكانت النجف وغيرها من المدن الشيعية المقدسة مثابة لمئات الوافدين من داخل العراق وخارجه وكان هؤلاء يفدون للدراسة حتى اذا تزودوا منها عادوا الى مواطنهم لنشر التعاليم الدينية وقد يبقى بعضهم لينال درجة الاجتهاد • غير أن عدم التنظيم فى المناهج وعدم الرقابة والامتحان فى الدروس الى جانب الفقر الذى كان يتعرض له كثير من الطلاب كان كل ذلك يحول دون مواصلة الدراسة لاغلب المنتظمين فى هذا السلك فقد كان هؤلاء يقف بهم التحصيل عند المبادىء القليلة وكان بعضهم يصل الى درجة لا بأس بها من العلوم الدينية فعود الى المدينة أو القرية التى جاء منها ليقوم بنشر الدين وأحكامه وقليل من هؤلاء من أتيحت له الفرص لمواصلة الدراسة فى كل أنواع العلوم والفنون المعروفة ، وقليل منهم من وصل الى درجة تهىء له قابلية التأليف والابتكار أو اضافة شيء جديد الى القديم المعروف •

ولقد كان التخصص مفقودا أو فى حكم المفقود الا فى الفقه والاصول فان العلوم اللسانية لم تكن فى الحقيقة الا وسائل يصل بها طالب العلم ـ أو يحاول الوصول ـ الى الغاية التى درس من أجلها وهى الفقه على الاكثر ، لذلك كان الفقهاء أكثر من اللغويين والنحويين ولذلك كثر المجتهدون فى المدن الشيعية والفقهاء فى بغداد والموصل وقلّ المنصرفون الى الدراسات العربية فى اللغة والنحو والصرف والبيان والادب الا ما كان جمعا أو تعليقا أو شرحا مسبطا أو تأليفا ليس فيه من الجدة والطرافة ما يغنى عن المصادر القديمة •

أما التاريخ الاسلامى القديم فقد كان الاطلاع عليه فى حدود يسيرة الا ما كان من تاريخ النبى وغزواته وتاريخ آل البيت ، وقد اهتم بعض علماء بغداد والاكراد[٣٠] بالنواحى الصوفية فكتبوا عن مشايخ الطرق وأربابها وأغرقوا فى تراجمهم وكراماتهم • ولكن هذا كله لا يعنى أن العراق فى القرن التاسع عشر لم يأت بجديد فقد كان حافلا بعشرات من الفضلاء وكانت شهرته بعلمه وأدبه ـ ولاسيما الفقه والشعر ـ أوسع انتشارا وذيوعا منها فى القرون السالفة التى خضع فيها للحكم العثمانى غير أن من رجال العلم من اتخذ الدين وسيلة للدنيا وجمع المال ومنهم من كان اصبعا تحركها الدولة للشغب على السكان ومنهم من بنى وشيد وتملك الضياع والبساتين وتملق الحكومتين العثمانية والايرانية وهؤلاء لا يزال أبناؤهم يرثون ما تركوه لهم فى بعض مدن العراق[٣١] •

التأليف وأهم المؤلفات :

لعل فيما قدمته من هذه الدراسة ما يكشف عن نواحى التأليف فى العراق ويوضح الخطوط العامة التى سلكها المؤلفون وقد كان للحاجة أثر كبير فى توجيه رجل الدين وغيره الى الانتاج والكتابة فقد كان للفقه أولوية على كل شيء وكان لكل مجتهد شيعى أو عالم من فضلاء السنة كتاب دينى قد يكون من وضعه وقد يكون ـ وهو الاكثر ـ شرحا لكتاب قديم ، ثم يأتى بعد ذلك فى درجات مختلفة تناول العلوم والفنون الاخرى كالتفسير والحديث والرجال والاصول والعقائد والمنطق والبلاغة والادب والتاريخ والتصوف والفلك وما كان مألوفا فى الدراسات آنذاك • وقد كان من هذه الدراسات ما يعد أساسا كالفقه والاصول والتفسير ومنها ما يعد متمما قد

---

(٣٠) فى الاكراد فضلاء يكتبون بالكردية والفارسية والعربية ولكن قابلياتهم فى التدريس ليست كغيرهم راجع ـ مقامات الالوسى ـ ص ٢٥ ـ ٢٦ •

(٣١) تأريخ هؤلاء معروف لدى العراقيين ولكنا أضربنا عن التفصيل والتسمية لئلا نثير ما نحن فى غنى عن اثارته

لا تقتضيه الحاجة أحيانا ، وقد يكون من هـذه المؤلفات ما يقصد به ارضاء السلطان أو الوالى ، وقد يكون منهـا ما يقصد به ارضاء عالم دينى أو شاعر أو وجه من ذوى اليسار ، أما الكتب التى تمثل الخصومات الدينية والمذهبية فقد شهد القرن التاسع عشر كثيرا منها •

ولعل ظاهرة المؤلفات الدينية لا تقل عنها ظاهرة المؤلفات الادبية وهى مؤلفات لا تعـدو الجمع من القديم والحديث وتدوين آثار الشعراء وجمع القصائد التى تقال فى مدح عالم أو وجه متنفذ أو رثاء أحد هذين • ومن أهم المؤلفـات التى ظهرت فى هـذا القرن كتاب روح المعانى فى تفسير القرآن والسـبع المثانى للسيد محمود شهابالدين الالوسى[٣٢] المعروف بأبى الثناء وهو مأخوذ عن تفسير الامام فخرالدين الرازى مع حذف واضافة وأخذ كثير من تفاسير المتصوفين وقد طبع فى مصر سنة ١٣٠١هـ • وكتاب جواهر الـكلام فى شرح شرائع الاسـلام للشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦هـ فى النجف وهذا الكتاب من أمهات كتب الفقه عند الامامية أما الاصل فهو للعالم الحلى المشهور جعفر بن الحسن الهذلى المعروف بالمحقق المتوفى سنة ٧٢٦هـ • وكتاب (الفصول فى علم الاصول) للشيخ محمد حسين بن عبدالرحيم المتوفى سنة ١٢٦١هـ وهو من علمـاء كربلاء • وكتـاب (ايضاح الـكلام فى شـرح شرائع الاسـلام) للشـيخ عبدالحسين الطريحى النجفى أما الاصل فهو للمحقق الحلى مار الذكر غير أن هـذا الشـرح لم يشتهر كشرح صاحب الجواهر الذى سبق ذكره • ومنهـا كتـاب (متن المقال فى أحوال الحديث والرجال) للشيخ الطريحى أيضا • وكتاب (كشف الطرة عن الغرة) لابى الثناء الالوسى وهو اختصار لدرة الغواص وشرحها وقـد طبع بمصر سنة ١٣٠١هـ • وكتـاب (شرح البرهان فى اطاعة السلطان) للالوسى أيضا • وكتاب (شهى النغم فى ترجمة شيخ الاسلام وولى النعم) للالوسى أيضا وقد ترجم فه للشيخ عارف حكمة شيخ الاسلام فى الاستانة •

---

(٣٢) ألفه بطلب من الوالى على رضا اللاظ

وللالوسى رحلات وكتب اخرى اعتمدنا عليها فيما اعتمدنا عله من المراجع • ومنها كتاب (مطالع السعود فى أخبار الوالى داود) للشيخ عثمان ابن سند البصرى الوائلى وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا فيه تاريخ وفيه شعر للمؤلف نفسه وهو من أهم المراجع التى تتصل بهذا البحث • وكتاب (نزهة الدنيا فى مدائح الوالى يحى) لعبدالباقى العمرى وقد جمع فيه ما نظم الشعراء فى مدح يحى الجليلى والى الموصل •

ومنها كتاب (وشاح الرود والجواهر والعقود فى نظم الوزير داود) للشيخ صالح التميمى ولكن هذا الكتاب قد اختفى مع كتابه الثانى المسمى (شرك العقول فى غريب المنقول) الذى أرخ فيه اربعين السنة الاولى من القرن الثالث عشر للهجرة •

ومنها كتاب (العقد المفصل) للسيد حيدر الحلى وهو على غرار الامالى وقد ألفه لصديقه العالم الشاعر الحاج محمد حسن كبة أحد تجار بغداد وقد طبع هذا الكتاب فيما بعد سنة ١٣٣٢هـ فى بغداد • و (دمية القصر) للمؤلف نفسه • ومن كتب العقائد كتاب (النفحات القدسية فى الرد على الامامية) لابى الثناء الالوسى •

وقد شاع فى هذا العصر شرح القصائد الدينية والصوفية وممن اشتهر بذلك أبو الثناء الالوسى فقد شرح لعبدالباقى العمرى قصيدة فى مدح الامام على واخرى فى مدح الشيخ عبدالقادر الكيلانى ، وهذا الذى ذكرناه ليس كل المؤلفات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر أما دواوين الشعر فانها كثيرة استعرضنا معظمها فى الباب الثانى من هذا البحث •

نثر المؤلفين والادباء

ليس من الاجحاف أو الغبن أن نقول ان النثر فى العراق كان امتدادا لخط يبدأ أوله من عصر الانحطاط فلم يكن كل ناثر قد طاوعته الاداة ومكنه الذهن من تطويع المعانى • نعم كان فى العراق نثر علمى ألفت به كتب الفقه والاصول والحديث والتفسير وأمثالها ولكن هذا النثر ليس

دليل الابتكار والتجديد لتظهر فيه الميزة الادبية بل هو اعادة وتكرار للقواعد القديمة مع شيء من اضافات المؤلف ، والمفروض في النثر العلمي أن يخلو من المبالغات والخيال والزخرفة وأن يسلم من الاخطاء النحوية واللغوية لانه يتعلق بمسائل وأحكام يجب أن توضع في قوالبها الخاصة بها وأن لا يكون فيها زيادة أو نقصان . أما النثر الادبي فانه غير خاضع للقيود العلمية والمنطقية الا في حدود واقعه وصوره التي وضع من أجلها وهي تأدية الغرض والتعبير عن فكرة سليمة تعبيرا جميلا مقبولا ، ولكنه كالنثر العلمي في خضوعه لقواعد اللغة والنحو غير أنه لا يمتنع عن الخيال والعاطفة والمبالغات في حدودها المألوفة فلا اغراق ولا تهويل ثم هو في مقاييسه الصحيحة ما كان بعيدا عن التكلف والزخرفة المصطنعة وعن استخدام فنون البديع استخداما لا جمال فيه ولا فنية ، ومثل هذا النثر قلّ أن شهده القرن التاسع عشر في العراق بل قلّ أن شهد من سما بالاسلوب عن مستوى القاضي الفاضل وترفع به الى ابن العميد فلا ترسل في الاسلوب ولا دقة في المعاني وانما كان هدف الناثر أن يأتي بالاسجاع والفواصل وأن يجنس ويوري ويكثر من المترادفات وأن يزخرف ويلون وقد يأتي بأمثلة وشواهد من الشعر تتخلل نثره كأنه يكتب مقامة أو يضع خطبة . وحتى ذلك التاريخ القليل الذي كتب عن العراق كان خاضعا للسجع والفواصل وعدم العناية بالحقائق التاريخية التي كان أكثرها يضيع خلال الاسجاع والمبالغات[٣٣] .

---

(٣٣) مما يمكن الحاقه بهذا النثر ما كانت تنشره جرائد الحكومة التي صدرت في أواخر القرن التاسع عشر وهي جريدة (الزوراء) وقد أنشأها الوالي مدحة وصدر العدد الاول منها في يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الاول عام ١٢٨٦هـ الموافق للسادس عشر من حزيران عام ١٨٦٩م وجريدة (الموصل) وقد صدرت عام ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م وجريدة (البصرة) وقد صدرت عام ١٣١٣هـ ١٨٩٥م وهذه الجرائد ـ ولاسيما الزوراء ـ كانت تراعي اللغة التركية الى جانب اللغة العربية الضعيفة بل كانت تطغى عليها العامية المبتذلة الا القليل مما كتب في أواخر القرن التاسع عشر وقد ذكرت بعض النماذج مما كانت تكتبه جريدة الزوراء راجع الحواشي ٧٩ و٨٣ و١١٠ من الفصل الاول

ولم تكن موضوعات النثر على شيء من التجديد فما هو معروف قديما فهي لا تعدو مقدمات الكتب وبعض دواوين الشعر والتقاريظ والرسائل والرحلات والعرائض التي كانت ترفع الى السلطان والولاة والحكام في التماس شيء أو طلب منفعة ، ومهما يكن من شيء في أمر هذا النثر فانه لا يعدم بعض الصور التي يمكن أن تؤدي وظيفتها في مجال النثر العام من حيث الاسلوب والموضوع وهو - على ما فيه من قصور عن اللحاق بالشعر - كان لا يعدم ألوانا من تصوير السياسة والمجتمع[٣٤] .

نهضة الشعر :

ان الادب العربي في نهضاته القديمة لم يكن وليد المصادفات بل كان وليد حركات قوية وملكات أصيلة وبيئات مهيئة فقد ساعد على نموه وتطوره خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وساعد على نموه وتطوره مواهب فذة وعبقريات خلاقة مبدعة وبيئات تنبت المواهب وترهف الشعور وتغذي الاحساس وتنمي الملكات ، وتلاقت هذه الاسباب وغيرها فأنتجت أدبا عربيا خالدا لا يستغنى عنه ما دامت اللغة العربية قائمة حية ، وشعرا لا يمل ما دامت النفوس تهتز للغناء وتطرب للانشاد .

أما في القرن التاسع عشر فقد خلا العراق من خليفة يثيب أو أمير يهب أو وزير يرعى عدا ما سجله الثلث الاول منه لواليين من ولاة بغداد هما داود المملوك على ظلمه وتعسفه وعلي رضا على قوته وبطشه ، وعدا ما سجله أيضا للولاة الجليليين في الموصل ، أما في الثلثين الاخيرين فقد قل أن شهد العراق واليا أو حاكما قرب الشعراء وأثابهم الا القليل ممن كان الوقوف على أبوابهم مشوبا بكثير من الذل والاستعطاف وقد ذهب هؤلاء وليس لهم أثر بارز في نهضة أدبية أو حركة علمية . والذي عرفناه من تاريخ القرن التاسع عشر في العراق أن أكثر الشعراء - ومثلهم رجال الدين

---

(٣٤) راجع ما نقلناه من عبارات أبي الثناء الالوسي في الفصل الاول ص ٤٣ و٤٤

النازين ـ قد عاشوا فى ضيق ونكد[٣٥] ، وكان بعضهم يعمل فى الاسواق للحصول على رغيف الخبز[٣٦] ولم يدفعهم الى نظم الشعر غير حب الشعر وقد سجل الكثير منهم صورا تمثل الى مدى بعد ما كان يعانيه اولئك من شظف العيش وضيق منابع الرزق ومن ذلك قول السيد حيدر الحلى أشهر شعراء الفرات آنذاك

لا عدا مسم الهجاء أناسا كان وسم المديح فيهم غريبا
صبغ الله أوجه البض والصفر بحظ الذى يكون أديبا
كم أعارت محاسن الدهر قوما ملؤا عيبة الزمان عيوبا

وقوله

وحسب نفسى وان أصبحت ذا عدم من ثروة أننى مثر من الادب[٣٧]

أما الاخرس البغدادى فقد أكثر فى هذا الموضوع ومن ذلك قوله

أسفا للشعر لا حظ له فى زمان الجهل والقوم اللئام[٣٨]

وقوله

وأنفقت أيامى على غير طائل فلا منهلا عذبا ولا عشة رغدا[٣٩]

وقوله

ومن مضض الايام مدحى عصابة بذلت يدا فيهم وما نلت اصبعا[٤٠]

ومثله السيد ابراهيم الطباطبائى فقد قال

لقد قسم الله رزق الورى وقتر بالرزق أقسامه

---

(٣٥) يقول أبو الثناء الالوسى بعد تخليه عن منصب الافتاء وانصرافه الى اتمام تفسيره معبرا عن عوزه حتى كدت آكل الحصير وأشرب عليه مداد التفسير راجع (غرائب الاغتراب) ص ٢٥

(٣٦) راجع (نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر) للدكتور محمد مهدى البصير ص ١٣

(٣٧) ديوان السيد حيدر الحلى ص ٦٩ و١٠٣

(٣٨) الطراز الانفس ص ٣٤٩

(٣٩) من مجموعة للاخرس لم تنشر ص ٣٤ من نسختى الخطية

(٤٠) الطراز الانفس ص ٢٥٢

وهـل نافعى أننى شـاعر تضر وتنفـع أشـعاريه
أديب وتدركنى حرفـة الاديب فتعسـا لآدابيـه[٤١]

أما السيد جعفر الحلى فانه يقول
ملكت فكرتى بكار المعـانى والى الآن ما ملكت كتابا[٤٢]

ولعل الشاعر هنا لا يذهب بعيدا فى خياله فدعى أن الشعر كان يأتيه وحا والهامـا دون أن يقرأ كتابا وانما كان محتاجا لا يستطيع أن يشرى الكتاب لقرأه فجمع بين الفخر بنفسه وبين واقع حياته •

واذا عرفنا أن كبار الشعراء فى القرن التاسع عشر كانوا لا يجدون ما يكفيهم من وسائل العش أدركنـا تعليل تلك الظاهرة الادبية التى بتت على ضفاف الرافدين فى القرن التاسع عشر ، وتعليل تلك الظاهرة لا يعدو قوة الاسمرار وعامل البيئة الطبيعة والبؤس الذى يدفع الى التذمر وارهاف الشعور الى جانب شيء من الرعاية كان يلقاه بعض الشعراء من بعض الاسر الغنية فى العراق والى جانب الحركة العلمية التى نشطت فى المدن الشهيرة ، ومما لا شك فيه أن البيئة العراقية بمناخهـا المتغير المتقلب وبحرارة صيفها وبرودة شتائها وبأنهارها وجداولها ونخلها وحقولها وبأريافها وصحاريها قد شحذت المواهب ودفعت بها الى الانتاج وان الحركة العلمية التى نشطت فى بعض المدن قد ساعدت عامل البيئة الطبيعية على النشاط الادبى وتطور الشعر من جمود الفترة المظلمة الى التململ والارهاص •

وقد انفردت مدينة النجف ومثلها مدينة الحلة بهذه العوامل المؤثرة فى تكوين نهضة شعرية عزيزة الجانب • كانت الحلة فى موقعهـا الجغرافى الجمل موطنا من مواطن الشعر بل كاد الشعر أن يكون فيها سليقة يجرى على كل لسان وحسبنا أن نعرف من موقعهـا أنهـا تطل على جانبى الفرات بالقرب من بابل القديمة وقـد تعانقت عليهـا ظلال النخيـل وأفياء الشجر الوارف وعلى مدى غير بعد منها تنساب الفروع والجداول خلال الواحات

---

(٤١) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ٢٧٢
(٤٢) سحر بابل ص ١٠ •

الخضر ، وكان لها من تاريخها القديم ميراث ضخم من العلم والادب والشعر الكثير وقد حافظت على هذا الميراث وسارت على نهجه وتعدد فيهـا الشعراء وقالة القريض الرقيق والثائر وكان نظم الشعر لدى سكانهـا سهلا مطاوعا حتى على ألسنة الاميين الذين لا يقرؤن ولا يكتبون فيأتون به عذبـا جميلا لا خروج فيه على قواعد اللغة وأوزان العروض(٤٣) .

أما مدينة النجف فانها تختلف عن مدينة الحلة فى موقعها اذ هى أشبه ما تكون بصومعة أقيمت على جبل صحراوى لا ماء فيه ولا شجر(٤٤) وكانت ترتفع عن الفرات القريب منها شرقا ارتفاعا غير قليل فلا يصل اليهـا ماؤه وكانت حاجتها الى الماء قد تشتد فى كثير من الاحيان فتصل الى درجة العطش وقد بقيت هذه المدينة داخل سورها تطل على بحيرة جافة فى المنحدر الغربى منها وليس فى تلك البحيرة أو ذلك المنحدر من النخل والشجر الا القليل أما المدينة فانهـا تستقبل الشمس من أرياف العراق الوسطى وتودعها فى صحراء نجد وتقلبهـا الفصول بين سموم الصيف الشديد وزمهرير الشتاء الجاف ويعانى أكثر سكانها مرارة الفقر والعسر وقد ساعد على بقائها شامخة فى هذا المكان المنعزل كونها ملتقى الشيعة يؤمونها لزيارة ضريح الامام على وكونهـا مدينة علمية نشطت فيهـا البحوث الشيعية على مذهب الامام جعفر الصادق وجمعت فيهـا أسـفار كثيرة من المخطوطات منـذ القرن الخامس للهجرة ، هذه المدينة بما فيها من علم وأدب وبما فى حياتها من خشونة وبما لستها من تقلب بين الحر والبرد ولأفقها من صفاء وجمال كانت ذات أثر كبير فى تفتح الاذهان وتوقد الشعور وارهاف الحس فقد تخرج فيها كثير من الشعراء وغصت نواديها ومحافلها بعشرات منهم واستمعت الى مسجلاتهم

---

(٤٣) راجع نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥

(٤٤) كانت النجف عامرة بالعرب أيام المناذرة وكانت الاديرة منتشرة فيها حتى مدينة الحيرة القريبة منها وفيها عيون نابعة تمتد الى الصحراء راجع (البلدان) لابن الفقيه ص ٦٨٧

ومطارحاتهم والى جدهم وفكاهاتهم وكانت محافل الانشاد ومواسم الشعر فى أيام الافراح والاحزان تشجع على نظم الشعر وتدفع الشعراء على الاسمرار والصعود •

وقد شهدت بغداد نهضة شعرية مرموقة ايام الوالى المملوك داود فالوالى علي رضا • واستمرت تلك النهضة ولكنها كانت أضعف مما كانت عليه • وقد أسهمت مدينة الموصل بنصيب غير قليل فى بناء النهضة الشعرية فى عصر الولاة الجليليين ثم ضعفت الحركة فيها بعد هؤلاء •

أما الاسر التى ساعدت على نمو النهضة الادبية فهى غير قليلة فى المدن العراقية ومن هذه الاسر من جمع بين العلم والادب كآل الشيخ جعفر الكبير المعروفة بأسرة (آل كاشف الغطاء) وأسرة بحر العلوم والأعسم وغيرهم في النجف ، وكآل القزوينى فى الحلة وآل الالوسى والجمل فى بغداد ، وآل العمرى والغلامى فى الموصل • ومن الاسر الغنية التى قربت الشعراء آل باش اعيان والزهير وأمراء كعب فى البصرة وأطرافها وكان فى آل كبة والشاوى أدباء وشعراء كما كان فيهم من أخذ من العلوم الدينية بنصيب غير قليل •

موضوعات الشعر وطريقة الاداء

لم تختلف موضوعات الشعر فى القرن التاسع عشر عما كانت عليه فى القرون السابقة ولم يستطع الشعراء أن يجددوا تجديدا بارزا ملحوظا الا فيما ندر من وصف بعض المخترعات كالترامواى(٤٥) والباخرة(٤٦) وأسلاك البرق(٤٧) والساعة(٤٨) وصفا غير فنى ، فقد التزموا بالموضوعات القديمة

---

(٤٥) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ٧١ ـ ٧٢ ـ ونهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر ص ٢٨٢

(٤٦) راجع الطراز الانفس ص ٤٢٧

(٤٧) راجع الترياق الفاروقى ص ٣٥٤ ـ ٣٥٦

(٤٨) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ٤١ وسحر بابل ص ٣٧

من المدح والتهانى والرثاء والغزل والمداعبات والاخوانيات ونظم التواريخ للحوادث والمنشآت وأكثروا من مدح آل البيت ورثائهم كما أكثروا من شعر التوسل والتصوف ولهم فى الحماسة والفخر والتذمر والشكوى والتنديد بالظلم شعر غير قليل ولم تخل بعض الدواوين من شعر الهجاء ولكنه قليل بالنسبة للموضوعات الاخرى •

أما طريقة الاداء فقد كانت تختلف باختلاف المناسبة فالرثاء لا يعدو القصيدة ذات القافية الواحدة والمدح كالرثاء ولكنه قد يأخذ طريقة الموشح كما فى شعر السيد محمد سعيد الحبوبى وبعض قصائد السيد حيدر الحلى • وأبرز شيء فى موضوع المدح والتهانى ما فى القصيدة من مقدمة تقليدية قد تكون غزلا أو وصفا للخمر وقد تكون نسيبا مصطنعا يخرج فيه الشاعر عن بيئته ويتيه فى صحراء نجد ووديانها • وكان التخميس والتشطير من طرق الاداء التى شاعت فى هذا العصر ولاسيما فى موضوعات المدح والتهانى والفخر والحماسة والشكوى • ولعل فى الفصول الآتية ما يكشف عن جوانب كثيرة من خصائص الشعر فى القرن التاسع عشر

الباب الثاني

الشعر السياسي

١ ـ تمهيد ـ الشعر السياسى : معناه وتطوره .

٢ ـ الفصل الاول : الشعر والحوادث الوهابية .

٣ ـ الفصل الثاني : الشعر بين الحس العربي والشكوى العامة .

٤ ـ الفصل الثالث : ثورة الشعر في ظل العقيدة .

٥ ـ الفصل الرابع : الشعر في ركاب الدولة .

٦ ـ الفصل الخامس : القيم الفنية والموضوعية .

تمهيد

الشعر السياسى ـ معناه وتطوره

لعل من الضرورى فى دراسة الشعر السياسى الحديث أن نقدم له بشىء من الايضاح والتفسير لمعنى السياسة عند القدماء والمحدثين ولمعنى الشعر الذى يلامسها ويتصل بها فيسمى شعرا سياسيا • وأن نشير بايجاز الى هذا النوع من الشعر فى تاريخ العرب وآدابهم •

ان كلمة (سياسة) عند العرب تعنى تدبير شؤون الناس وتولى أمورهم والرياسة عليهم ونفاذ الامر فيهم[1] وهى أيضا استصلاح الخلق بارشادهم الى الطريق الصحيح[2] • أما عند المحدثين فهى تعنى حكم الامم أو فن هذا الحكم • وهى كما تتصل بنظم الدولة فى الداخل تتصل أيضا بنظمها والتزاماتها مع الدول الاخرى[3] • وما دامت السياسة كما حددناها فى هذه التعاريف المشهورة فان الشعر الذى يلامسها ويعبر عنها يسمى شعرا سياسيا سواء تناول نظم الدولة الداخلية أو مس مكانتها الخارجية بين الدول والاقطار وسواء التزم جانبها ودافع عنها أو وقف مناوئا لها ولاعمالها • وليس من الضرورى فى هذا الشعر أن يعبر عن رأى يقره المجتمع فقد يكون الرأى خاصا بالشاعر أو بفئة قليلة ممن تنتظمهم تلك الدولة ، كذلك

---

(١) راجع لسان العرب والقاموس فى مادة (سوس)
(٢) راجع (رسائل اخوان الصفا) ج ١ ص ٢٠٧ طبع مصر
(٣) تأريخ الشعر السياسى لاحمد الشايب ص ٣ و٤ ط ٢

ليس من الضرورى فى الشعر السياسى أن يلتزم البراهين والتفاصيل بل يكفيه أن يلمح ويوجز ويترك التفاصيل والجزئيات للتاريخ وللناس لانه وليد العاطفة والخيال ومثل هذا الشعر الذى لا يلتزم البرهان والاحتجاج يدخل فيه المدح والهجاء والحماسة والفخر والوصف والرثاء والغزل أيضا[٤] متى ما كانت هذه الفنون تتصل بحكم أو مذهب وان لم تعالج النظريات السياسية بالشرح والتفصيل • هذا هو الاصل فى الشعر بوصفه فنا يقاس بغايته التى يرمى اليها غير أنه لم يهمل الناحية التفصيلية فى كل صوره بل عالجها فاحتج وساق البراهين وتناول المعانى الجزئية مع احتفاظه بخصائصه الفنية •

وليس من الضرورى فى الشعر السياسى أيضا أن يكون تعبيره عن السياسة ــ سلبا أو ايجابا ــ ناشئا عن عقيدة يؤمن بها الشاعر ويدين بها بل قد يكون ذلك ناشئا عن طمع فى مال أو منصب أو خوف من شر أو عن صلة خاصة بين الشاعر والحاكم ومثل هذا يعد تأييدا سياسيا غير مباشر[٥] • هذا الضرب من الشعر كان فى كل عصوره وآفاقه من أبرز المقاييس فى رسم الجانب السياسى لحياة العرب ونظمهم حتى البدائية منها أو الشبيهة بالدائية ، وكان وسيلة هامة من وسائل التعبير التى تناولت السياسة منذ العصر الجاهلى فقد كانت القبيلة العربية آنذاك أشبه ما تكون بالصورة المصغرة للدولة[٦] بوصفها ذات مكان ووحدة ونظام ورئيس يشرف عليها ، وكانت صلتها بالقبائل الاخرى تشبه صلات الدول الآن[٧] ولو الى حد قليل • واذا استعرضنا الشعر الجاهلى فى جملته وتفصيله وجدناه قبليا يخضع فى تجاربه لسيادة القبيلة ومكانتها بين القبائل الاخرى وان كان غنائيا يشمل معظم الموضوعات ، فهو يستمد مقومات القبيلة فى اطارها الداخلى حين يعتز بها ويمدح رجالها وأعمالها وقد يثور عليها ويؤنبها لانها قصرت

---

(٤) راجع المصر السابق ص ١١ و١٢ و٢١٤ و٢١٥
(٥) هذا الشعر اعتمد عليه الامويون أيام عبدالملك بن مروان
(٦) تأريخ الشعر السياسى ص ٤
(٧) فى الادب المقارن ــ لعبدالرزاق حميده ص ١٠٧

فى حماية أو تخاذلت فى موقف ، وهو يستوحى مكانتها الخارجية حين يفتخر بها أمام القبائل ويذكر أيامها ويهجو أعداءها وينازل خصومها من الشعراء • ولقد كان الى جانب هذه الانواع نوع آخر ثائر لا يمس القبيلة فى شيء من ذلك بل كان يمس النظام القبلى عامة من حيث اضطرابه ويمس النظام الاقتصادى من حيث تقصيره فى حماية الافراد من الجوع والحاجة ، وهذا النوع من الشعر يكاد ينفرد به الشعراء الصعاليك الذين كانوا ثائرين على الفقر والعوز(٨) •

واذا تركنا العصر الجاهلى لنستعرض العصور التى تلته فاننا نرى الشعر السياسى قد تطور واتسع نطاقه من حيث الموضوعات نتيجة لتطور الحكم والنظم عند العرب بعد ظهور الدعوة الاسلامية وقد شهد صدر الاسلام صورا كثيرة تؤيد الحكم الجديد المتمثل فى الدين الاسلامى وتدافع عنه وترد على الجانب المناوىء الذى تمثله صور اخرى ليس لها حظ فى الدراسات كحظ تلك ، وجاء العصر الاموى فنشطت الاحزاب التى اتخذت من الدين الاسلامى شعارا لها وكان أقواها الحزب الاموى الحاكم ثم حزب العلويين الثائرين فى وجه الحكم الاموى ، ثم الخوارج الذين استمر صراعهم طيلة الحكم الاموى ودون هؤلاء حزب الزبيريين الثائرين على بنى أمية أيضا ، وفى عصر هذه الاحزاب كانت النزعات القبلية قد عادت الى ما هو أشد من الجاهلية فى الصراع والتنازع وكان هذا كله مؤثرا قويا فى توجيه الشعر السياسى الى حيث يتمثل فيه الصراع القائم بين تلك الاحزاب وتلك القبائل والى حيث يمثل الآراء والعقائد السياسية ويصور الحالة العامة حتى الفقر والحاجة •

ولما أديل الحكم الى العباسيين انتقل الشعر الى تأييد البيت الهاشمى من عباسيين وعلويين ثم انقسم بعد برهة وجيزة الى شطرين أحدهما مع الجانب العباسى وهو الغالب وثانيهما مع الجانب العلوى بعد أن ظهر عداء العباسيين لآل علي ، على أنه كان الى جانب هذا صور غير قليلة ليست فى

---

(٨) استمر هذا النوع من الشعر طوال العصور

جانب اولئك أو هؤلاء كالشعر الذى مدح بـه بعض الامراء والوزراء أو رؤساء القبائل من غير العباسيين أو العلويين وكالشعر الذى فيـه تلميح أو تصريح بالاستياء من الحكم والسياسة ، هذا فى العراق أما فى الشام ومصر والمغرب والاندلس فانى أترك التفصيـل الى المراجـع الـكثيرة التى عنيت بتسجيل هذا اللون من الشعر •

ولقد استمر الشعر السياسى فى طريقه المرسوم له يؤيد ويناوىء ولكنه فى أواخر العصر العباسى حتى نهاية القرن التاسع عشر قد استحال معظمه الى مدح وتأييد للحكم أيا كان ذلك الحكم وفى أى قطر من الاقطار العربية وقد فقد قوته فى فنه وموضوعاته الا القليـل مما كان يصـدر عن بعض الشعراء الذين لم يرافقوا الحكم أو يتصلوا به اتصالا مباشرا والا ما كان للشعراء العلويين الذين طبعوا شعرهم بطابع التشيع والولاء لآل علي •

ولقد تركت التفصيل فى دراسة التطور الذى رافق الشعر السياسى فى كل أدواره لان ذلك لم يكن من عنـاصر الموضوع الذى تتناوله هـذه الدراسة الخاصة بالقرن التاسع عشر وانما استعرضت هذا التطور بايجاز ـ الى جانب توضيح المعنى ـ لكى أقف على مظاهر التشابه بين الشعر السياسى فى القرن التاسع عشر وبينه فى العصور القديمة ولكى أربط الصور التى رسمها شعراء العراق فى القرن التاسع عشر بأمثالها من الشعر القديم ان لم يكن فى الفن والاداء ففى الموضوع والغاية فان فى هـذه الصور ما يخضع للحكم ويؤيده كمدح السلاطين والولاة ومن دونهم من الموظفين سواء جاء هذا المدح فى مناسبة عامة أو جاء فى مناسة خاصة أو كان صادرا عن طمع فى مال أو منفعة يقصدها الشاعر لنفسه[٩] ، وان فى هـذه الصور ما يدل على تذمر واستياء من الحكم وفساد النظام وان كان قليل الصراحة والجرأة ، وفيهـا ما شـاع من مدح الزعماء العرب ومن الحماسة والفخر والاعتزاز

---

(٩) فى بعض دواوين الشعراء قصائد فى مدح بعض الحـكام الايرانيين كناصر الدين شاه وابنه مظفر الدين وغيرهما وهى تتصل ـ فى الغالب ـ بما يقوم به هؤلاء من تعمير العتبات المقدسة وقد تركت ذكر هذه القصائد لقلتها ولانها لا تؤلف موضوعا سياسيا واضحا

بالنفس أو بالامة التى ينتمى اليهـا الشاعر • وفى هـذه الصور ما يتصل بالشكوى والتذمر من الحياة وما يعبر عن الحاجة والفقر نتيجة لفساد الحكم وفساد النظام الاقتصادى • وهناك نوع هـام من الشعر السياسى فى القرن التاسع عشر وهو الذى صور اتجاه الشيعة وأثر السياسة والحكم فى حياتهم العامة فقد برز هذا الشعر واضحا فى شعر المراثى لآل البيت وفى القصائد الكثيرة التى وجهت الى المهدى المنتظر •

والى جانب هذا وجدنا لونا آخر من الشعر السياسى ظهر فى العراق خـلال القرن التاسع عشـر وهو الشعر الذى حارب الوهابيين وعقيدتهم ، ولعل هذا اللون الذى رافقت بعضه مؤثرات من العقيدة الشيعية الى جانب قصائد الرثاء للامـام الحسين وآل البيت وقصائد التوسل بالمهدى يمكن أن يشبه الى حد كبير تلك الصور التى ظهرت فى الشعر الحزبى خلال الاعصر الاول • على أن هذا الشعر فى كل موضوعاته لا يستطيع أن يسامى الشعر القديم فى قوة الاداء والتعبير وأن أشبه معظمه فى المسلك والاتجاه •

الفصل الاول

الشعر والحوادث الوهابية

لقد مر في الفصل الاول من الباب الاول توضيح غير قليل لتاريخ الدعوة الوهابية والحروب والحوادث التي تمخضت عنها وقيام الدولة العثمانية بحملاتها العسكرية المتتابعة للقضاء عليها ، وكانت الغاية من توضيح تلك الحوادث على وجه الاجمال لا التفصيل والعناية بها في الفصل السياسي توضيح الجانب الادبي الذي رافقها في مختلف مراحلها وسجلها في أهم أعمالها ، وأعني بالجانب الادبي الشعر الذي نظمه شعراء العراق في تلك الحوادث مستجيبين لعوامل الدين والسياسة منطلقين مع البواعث النفسية والاجتماعية لتناولها تناولا يعبر عن واقع الرأى الاسلامي العام أو العراقي على الاخص آنذاك[1] .

ولقد كان من حق المنهج الذي وضع أن يوزع هذا الشعر بين الفصول الاخرى لان منه ما يتصل بالدولة ومدح أعمالها التي نهضت بها لمحاربة الوهابيين وللدولة وأعمالها فصل خاص ، ومنه ما يتصل بالعقيدة الشيعية التي أثرت في توجيه الشعراء ورسمت لهم طريق الثورة على الوهابيين

(١) لقد وجدت فيما وقع في يدي شاعرا عراقيا واحدا مدح الدعوة الوهابية وأصحابها وسيأتي ذكره في آخر الفصل اما شعراء نجد فان لهم قصائد في مدح الوهابيين

وللعقيدة الشيعية فصل خاص أيضا ، غير أن حق التاريخ الادبى كان أكبر فى نظرى من حق المنهج الذى رسمته واتبعته فى معظم فصول الرسالة لان الدعوة الوهابيــة لم تكن دعوة صغيرة تذهب كمـا يذهب بعض الظواهر الضعيفة الشأن ولان حوادثها وحروبها واهتمام الدولة بها لم يكن فى حدود ضيقة ولان الشعر الذى قيل فيها لم يكن خطرات عابرة لا شأن لها ولم يكن من القلة وعدم الجدوى بحيث يتناثر هنا وهناك • لهذه الاسباب ولكون هذا الشعر جديدا فى موضوعه وموحياته رأيت أن أفرد له فصلا خاصا به ليكون ذا وحدة تاريخية مترابطة الاجزاء وليسلم له شكله وموضوعه دون تفكيك وتناثر ، ولقد رأيت أن أدرس هـذا الشعر الذى قيل فى الحوادث الوهابية وفق المراحل التى مرت بها وأن أتابعه فى مرحلتين هما أهم مؤثر فى تكوينه وخلق صوره على اختلاف قيمها وأساليبها •

فى المرحلة الاولى :

لقـد كانت المرحلة الاولى التى بدأت بالحركات الوهابيـة وانتهت باحتلال نجد والحجاز من جانب الجيش المصرى[٢] مرحلة حادة فى حوادثها المؤثرة التى استجاب لها الشعراء استجابة الناقم المغضب وكان هؤلاء الشعراء فيما نظموه ازاء هـذه الحوادث لا يقلون اندفاعا عن رجال الحـكم والدين وزعماء القبائل وقد سجلوا معظم تلك الحوادث ـ ولاسيما التى تعرض لها العراق ـ تسجيلا لا يقل فى اسلوبه وتعابيره عن قوة العاطفة الدينية والشعور السياسى المناوىء للوهابيين ، فلقد كان فى جانب منه يعبر بلوعة وحسرة عن مدى تأثير الغزو الوهابى للمدن الشيعية المقدسة وأعمال الوهابيين التى عدت انتقاما واعتداء واهانة لمراقد آل البيت ، بينما يعبر من جانب آخر عن مدى تأيـد الشعراء للخليفة العثمانى ومن يمثله فى العراق على محاربة الدعوة الوهابية وأتباعها •

ولقـد سجلت بداية القرن التاسع عشر حادثة خطيرة هزت عواطف

---

(٢) راجع الفصل السياسى ـ القسم الاول

الشعراء وأثارت فيهم الالم الشديد والاستنكار الصارخ وهى حادثة غزو كربلاء سنة ١٢١٦هـ ١٨٠٢م[٣] ومن الطبيعى أن تثير هـذه الحادثة شعراء الشيعة على الاخص لانها استهدفت المدينة التى تضم مرقد الامام الحسين بن علي وانتهت بنهب الضريح المقدس وهدمه وقتل كثير من المجاورين له وفيهم رجال الدين والاطفال والنساء •

وقد نظر الشعراء الى هذه الحادثة كأنهـا تجديد لمأساة الحسين يوم استشهد فى كربلاء مع اخوته وأبنائه وأنصاره فبكوا وسخطوا واستنهضوا وأثاروا ونقموا على الوهابيين أشد النقمة وهددوهم وناظروهم وجادلوهم • وكان من أبرز الشعراء الذين استفزتهم هـذه الحادثة الحاج هاشم الكعبى المتوفى سنة ١٢٣١هـ ١٨١٦ ـ ١٨١٧م فقد كانت عاطفته الشيعية حافزا مثيرا لتجربة طافحة بالالم الشديد وقد انطلقت هـذه التجربة الحادة فى قصيدة صبغها بالدماء وحشد فيها صورا متجانسة كل جانب منها كان حزينا ، وقد استعرض فيها أسماء من قتلوا من رجال الدين وبكى فيها اولئك القتلى وصور ذعر النساء وما أصابهن من الذهول لفقد رجالهن وقتل أطفالهن • ثم بكى الامام الحسين وأشـار الى أن هـذه الحادثة انما هى تجديد ليوم قتل فيه الحسين ، ثم استنهض قومه للاخذ بالثأر وجادل الوهابيين جدلا فيه ثورة الشاعر وعاطفة الناقم وختم القصيدة باستنهاض تقليدى للامام المهدى • أما أول القصيدة فنسيب تقليدى يتألف من خمسة أبيات تبدأ بقوله

أنت الملوم فمن يكون الألومـا	فلك الظما هيهات معسول اللمى

ثم يبكى القتلى فيقول

يا سعد قف بى فى المنازل سـاعة	نبكى فربت عبـرة تروى ظمـا
نبكى نفوس تقى تراق على الظبـا	ظلما وأجسـادا تغسـلها الدمـا
نبكى لصرعى فى التراب تخالهـا	فى الليل من فوق البسيطة أنجما
نبكى حرائـر هتكت أستارهـا	بعـد الحجاب فأصبحت مثل الأما

(٣) راجع ص ٣٢ و٥٦

ويشير الى مدينة كربلاء

قد كنت أحسب أن غاية كربهـا ... يوم قضى « ابن محمد » فيـه ظما
فاذا الرزايـا لا تزال بربعها ... فـذا تطرق بالخطوب وتوأمـا

والى الحسين يوم قتل ويوم غزا قبره الوهابيون

لم تَفْتَ قارعة تحل بربعـه ... حيـاً وتزعجه رميمـا أعظمـا
كتب البـلاء على علاه كأنمـا ... فُرض البلاء على علاه وحُتما
حيـا وميْتاً لا يزال مجرعـا ... بأكف أهـل البغى صابا علقما
ويروح يومـا صـدره متحطمـا ... فيهم ويومـا قبره متهدمـا
خلفـا توارثه البغـاة وسـيرة ... يقفو بهـا المتأخر المتقدمـا

وبعد أن يبكي ويتألم لما وقع يعلن سخطه على من بقى حيا لم يسلك سـبل اولئك القتلى المجاهدين فيخاطبه أو يجرد من نفسه شخصا يخاطبه فيقول

شأن الغوانى صار شأنك لم تكن ... الا تقيـم عـزا وتنصب مأتمـا
ان كان همك ليس الا بالبـكا ... فتكون نائحة وتسـمع مغرمـا
فلم ادخرت من السيوف مصمما ... لكريهة ومن الرماح مقومـا ؟

ويناظر الوهابين ويجادلهم فيقول

يـا للرجـال الا معود شـيمة ... ان صح قول (سعود) ألاّ مسلما
أفلم يكن فيكم مراع حرمـة ... ان كنتم من ليس يخشى محرما
ان صـح أن ولاء آل محمـد ... وهواهم قـد كان شركا أعظما
ان صـح أن الواصلين نبيهـم ... فى آله يسـتوجبون جهنمـا
ان صح أن المسلمين بأسـرهم ... مـا فيهـم لله من يحمى حمى
ان صح لا خلفـاء بعـد نبيهم ... أو لا أئمة حرموا مـا حرمـا
بل كلهـم باغ مضـل مبـدع ... الا سعود فنوره يجلو العمى !!

ويختم الشاعر قصيدته باستنهاض الامام المهدى فيقول

يا ناصر الاسـلام يا ابن محمد ... أكرم به نسـبا وأعظـم منتمى

يا ابن الـكرام أما نمن بلفتة عظم البـلا وتجاوز الماء الفما

ثم يصرخ بخلجة نفسية يعانيهـا كل من يصـاب بفادحة وله أعداء وخصوم يشمتون به ويفرحون لمصابه

قرت عيـون الكاشحين شـماتة وافتر ثغر الشـامتين تبسـما[٤]

والقصيدة طويلة تتألف من سبعة وثمانين بيتا غير أن فيها تكرارا للصور الحزينة الباكية وفيها استعراض غير قليل لهذا المشهد الدامى ، واذا كانت عاطفة الشاعر فى هذه القصيدة عاطفة دينية أكثر منهـا سياسية ـ بما لهذه الكلمة من مدلول ـ فان استنهاض الناس ممن بقوا أحياء ثم استنهاض الامام المهدى لدليل على سخط الشـاعر ويأسـه من الحكم الذى خـلا من القوة المدافعة عن السكان والمدن المقدسة •

وقد اهتز لهذه الحادثة شاعر آخر هو الحـاج محمد رضا الازرى التميمى[٥] فقد نظم هـذا الشاعر أكثر من قصيدة وكان شعره يجمع بين وثبـات العقيـدة والحس العربى التقليدى ولم يكتف بتصوير الحادثة من زاوية القلب والعاطفة بل حاجج الوهابيين وناظرهم ودافع عن عقيدته ودينه دفـاع المتتبع المطلع وسلك فى بعض قصـائده مسلك الكعبى فاسـتنهض واستصرخ ، ونظر الى حادثة كربلاء هـذه كما نظر اليهـا الكعبى وعدها الحادثة الثانية بعـد قتل الحسين ، وقد لاحت طلائع كربلاء فى أول بيت من احدى قصائده فقال

أريحا فقد لاحت طلائع كربلا لنقبر أشـلاء ونسـعد مرمـلا

ثم قال فيهـا :

وهل عاد رزء الطف[٦] فى الطف ثانيا أجل جلّ ثان تابع اليوم أوّلا

---

(٤) راجع ديوان الـكعبى ص ٤٨ ـ ٥٢ وشهداء الفضيلة للشيخ عبدالحسين الامينى ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣

(٥) توفى سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٤ ـ ١٨٢٥م وهو أخو الشاعر الشيخ كاظم الازرى

(٦) الطف من أسماء كربلاء

واستمر يصف الحادثة والقتلى من الرجال والاطفال والذعر الذى انتاب النساء من ثواكل وغيرهن ثم انتقل بعد هذا الوصف الى الاستنهاض والاستصراخ فقال

فيا قائد الجيش العرمرم سحبه تزاهر عن ليـــل من النقع أليلا
بحيث لواء النصر أسدل فوقهـــا ونص خطيب السيف بالوحى فيصلا
كتائب دلت بالجبـــال سوائرا اذا انماط عنها جحفل مدّ جحفلا
الام وها ضـاق الزمـــان بوافد يضج ولا سـاح يجير ولا ولا ؟
فمن لى؟وهل (من لى) يعود بشأوهم ويرجع صرحى بالتدانى مكللا
واسـحبها فى روقى الملك بـردة تكاد بمعناها تمـــد السجنجلا

ولكن الشاعر لم يصرح باسم من خاطبه فى الابيات السابقة فلعه أراد المهدى ولعله أراد الامام عليا لانه قال بعد ذلك

لك الله لو شافهت حوماء (حيدر) وشـاهدت أنوارا هنـاك ومحفـلا
فقف بازاء القبر من منكب الحمى ونـاد يناديـه الكمىّ المفضـلا
ألا يا (على) القدر دعوة مرهج يرود بصدر بالهموم قـد امتلا
ملاذا فقد طال المدى وجلا الندى وقام العـدى مستسنمى سبق العلا

ثم يقارن بين عمر بن سعد فى حادثة مقتل الحسين وبين ابن سعود فى هذه الحادثة فيقول

فثم (ابن سعد) سنّ افعال حقده ونجل (سعود) قد توطاه لا تلا[٧]

ووصف هذه الحادثة بقصيدة اخرى جاء فى أولها

خطب على الطف قد غشى بطوفان فجلّ عن جانبيـه كل تبيـــان
فما انجلت عن ضواحيه غياهبهـا حتى التقى الـدم غدرانـا بغدران

ويستمر فى شىء من التفصيل لما وقع من قتل الرجال والاطفال وارهاب النساء ويتألم

لقتـل خمسـة آلاف بآونـــة من النهار سوى المستشرف العانى

---

(٧) راجع (شهداء الفضيلة) ص ٢٩٣ ـ ٢٩٦

ثم ينهي القصيدة ببيت يؤرخ فيه عام الحادثة فيقول

يقول في رزئهـا الأدهى مؤرخة   في كربلاء دهانا رزؤها الثاني[٨]

ولهذا الشاعر قصيدة ثالثة يخرج فيهـا عن مجـال الالم والبكاء الى المناظرة والجـدل فينكر على الوهابيين أعمالهـم ورميهم المسـلمين بالزيغ والضلال وقد شرح بعض النواحي من العقيدة الاسلامية في ضوء ما يعرفه منها وهو فيما شرح وناظر كان غير قليل الحظ من الاطـلاع على الاصول والفروع وقد أطال الجدل والحجاج وبعـد أن انتهى من جدله ومناظرته انتفض واهتز وهـدد ووعـد عـلى طريقـة الشـعراء القـدماء وقـد بدأ القصيدة بقوله

ألم يأن أن يصغي الى الحق غافل   ويسلك نهـج الاسـتقامة مائـل

فهاتيك سـبل المسـلمين تفرقت   وشطت برأي المبـدعين المحامل

فقـل للألى حادوا عن الدين ضلة   وبدر الهدى في هالة الدين كامل

تعـالوا الى قـول سـواء فبيننا   وبينكم مـا فيـه خلف وباطل

فان تجنحوا للسلم نجنح لهـا وان   أبيتم فحد السيف بالحق فاصل

ويسألهم عن عقيدتهم الجديدة

ولم أدر ذا وحي عن الله جاءكـم   حديثـا فلم تدرك مداه الاوائل ؟

أم الامر ممن قـد حكتم بشركهم   أتاكم وكل في الشـريعة باطل

وبعد أبيات من الجدل والحجاج يقول لهم

وان تسألوا عن بعض ما اقترف الورى   من الاثـم فالرحمن للتوب قابـل

هبوا أنهـم جـاؤا بكل كبيرة   فما ذاك كفر بل فسوق وباطل

بل الكفر تحليل الدمـاء التي أتى   بتحريمها الأجماع والذكر نازل

والقصيدة طويلة ساق الشاعر فيها البراهين والادلة على ما احتج به من آراء وذكر الوهابيين بوقائع التاريخ التي مرت ليعتبروا بها ثم هددهم بأبيات غير قليلة من هذه القصيدة ان لم ينتهوا عن أعمالهم فقال

---

(٨) المصدر السابق ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

ويا قوم سمعا ما أقول فانها لتذكرة فيها هدى ودلائل

حذار فقد أنذرتكم بزواجر تناشد غطفانا فتسع وائل ؟

فان تنتهوا يغفر لكم ما مضى وان تعودوا فما غير البنود وسائل

وساء صياح المنذرين اذا هوت صواعقها في أرضكم والزلازل[٩]

ولا شك ان الازرى كان يمثل العقيدة الشيعية ويدافع عنها بحرارة وايمان ويرد على الوهابيين وهو كصاحبه الكعبى من قبله لم يتعرض لذكر الدولة العثمانية ولا لحكومة العراق آنذاك وسر هذا الاغفال ان الدولة لم تفعل شيئا ازاء الحادثة هذه وان اليأس قد بلغ بالشاعرين ـ الكعبى والازرى ـ حدا لم يستطيعا معه أن يذكرا الدولة بشيء أو يشيرا اليها وانما بقيا في اطار العقيدة التي لا ترى في ذلك الحكم المسيطر ما يملأ رغبتها ويزيل عنها الشعور بالحيف الذى لحق بالسكان أو يلحق بهم •

واذا كان الكعبى والازرى قد أهملا ذكر الدولة والحكومة القائمة في بغداد آنذاك لانها لم تدافع عن المدن المقدسة فان شاعرا من الحلة قد سلك حيال الوهابيين مسلكا حكوميا لان المناسبة كانت تستدعى ذلك فوقف الى جانب الوالى (علي)[١٠] ومجد حملته التي وجهها سنة ١٢١٩هـ ١٨٠٤ـ ١٨٠٥م لمحاربة السعوديين ، أما الشاعر فهو حسين بن سليمان الحلى المعروف بالحكيم وقد مدح الوالى وندد بالدعوة الوهابية وأنصارها ووصف الوالى بأكثر مما يستحق واستغل اسمه في الاطراء فشبهه بالامام علي وشبه سيفه الذى حارب به سعود بن عبدالعزيز بذى الفقار فقال يخاطب الوالى

أقمت اعوجاج الملك بالسيف والعزم[١١] وشيدت ركنيه على مفرق النجم

ثم يقول

فلا سيف الا سيفه للمة وليس فتى الاه عن حرم يحمي

(٩) المصدر السابق ص ٢٩٧ ـ ٣٠٢

(١٠) كان هذا كتخدا لسليمان الكبير وقد عين واليا بعده كما مر سابقا

(١١) وردت في الاصل (القرم) ولا معنى لها هنا

وليس فى القصيدة سوى التهديد وهى أقرب ما تكون الى هجاء الوهابيين منها الى الجدل المنظم أو النظرة السياسية المركزة[١٢] .

ولم تكن حادثة الهجوم الذى قام به الوهابيون على مدينة النجف عام ١٢١٩هـ ١٨٠٤م لتمر على الشعراء دون أن يلتفتوا اليها ولكن الذى وصل الينا من هذا الشعر لم يكن من القوة والمتانة بحيث ينسجم مع مكانة النجف فقد نظم السيد أبو الحسن كوثر مقطوعة ركيكة الاسلوب سقيمة المعانى وقد استهلها بقوله

بشرى لمن سكنوا كوفان والنجفا   وجاوروا المرتضى أعلا الورى شرفا

ولكن الظريف فى هذه الابيات أن الشاعر عين الشهر واليوم والوقت فقال مشيرا الى زحف سعود بن عبدالعزيز

وقد أتى الناس قبل الفجر فى صفر   بتاسع الشهر نحو السور قد زحفا

ويؤرخ هذه الحادثة فى البيت الاخير من المقطوعة[١٣] .

وهذا شاعر آخر لم يكن نصيبه من المعرفة بأقل من غيره من الشعراء المشهورين وهو عثمان بن سند البصرى الوائلى[١٤] فقد سجل تعصبه الشديد ضد الوهابيين بقصائد ومقطوعات كثيرة وناوأهم أشد المناوأة وكفرهم ووسمهم بالزيغ والضلال فى نثره وشعره على السواء ودعا الى حربهم باسم الدين لانهم ـ كما زعم هو وغيره ـ مارقون خارجون عن اجماع المسلمين وعلى طاعة السلطان ، وثورة ابن سند مثار عجب لانه نجدى الاصل ومن قبائل عنزة التى ينتمى اليها السعوديون ، غير أن العجب يزول اذا عرفنا أن هذا الشاعر كان فى العراق وكان متصلا بالوالى داود وكانت صلته به تدعوه

---

(١٢) ذكر المؤلف أن هذه القصيدة فى مدح الوالى على رضا وهذا غير صحيح لان هذا الوالى لم يحارب الوهابيين راجع القصيدة فى (شعراء الحلة) للشيخ على الخاقانى ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ج ٣

(١٣) راجع (ماضى النجف وحاضرها) ص ٢٣٧ ج ١

(١٤) اختلف المترجمون له فى وفاته ففى (مختصر مطالع السعود) المخطوط بالقاهرة وفى المسك الاذفر ص ١٤٦ أن وفاته فى سنة ١٢٤٦هـ وفى (مختصر مطالع السعود) المطبوع بالهند انه توفى سنة ١٢٥٠هـ وفى مجلة (لغة العرب) ج ٤ س ٣ ان وفاته فى سنة ١٢٤٢هـ ١٨٢٦م

الى الممالأة اوتبـاع سياسة الارضاء والتقرب وهو بوصفه سنيا متعصبا كان يرى وجوب طاعة السلطان والخضوع للوالى الذى يمثله فى بغداد لذلك كان شديد النكير على الدعوة الوهابية وأنصارها • وقد سلك ابن سند فى شعره الذى قاله فى الحوادث الوهابية مسلـكاً تاريخياً راعى فيه تسلسل تلك الحوادث التى كتب عنهـا فى تاريخه (مطـالع السعود) فهو حين يذكر الحادثة يضع الى جانبها مقطوعة أو أكثر وقد ينظم فيها قصيدة أو أكثر وكل الحوادث الوهابية التى كتب عنها كانت أقدم تاريخا من وقت تسجيلها •

ومعظم الشعر الذى قاله فى تلك الحوادث كان شديد اللهجة والاندفاع ضد الوهابيين وكان مليئا بمدح الدولة والسلطان وأتباعه من الولاة والقواد الذين حاربوا السعوديين فى الحجاز ونجد وكان فى بعض المقطوعات يقتصر على النواحى الدينية فيهدد الوهابيين بعذاب النـار فى الآخرة لانهم سفكوا الدماء وكفروا المسلمين[١٥] • ومن شعره ما قاله حين كتب عن ثوينى بن عبدالله وقتله سنة ١٢١٢هـ بعـد عودته من حرب السعوديين[١٦] فقـد رثاه بقصيدة جاء فيها قوله

فشـلَّت يمين من (طعيس) سطت به	تأثف طلاب الجدى بعده اليتم
جدعت بـه يا كلب عرنين قومـه	وأشملهم بذلا اذا كلح الأزم
قتلت ابن عبدالله والحـاكم الذى	سجيته التقوى وديدنه الرحـم
ومن هو للاسـلام وجه ومقلة	ومن حكمه لم يعر ساحته ظلم[١٧]

وحين كتب عن ذهـاب الكتخدا (علي) الى محاربـة الوهابيين سنة ١٢١٣هـ وعودته بالفشل وخيانة بعض أتباعه[١٨] قال

أسلمتهم للمهلكات رجـــال	عن هـدى الله للمطامـع مالوا
واسـتحلوا مـال الوزير وقالوا	ان مـال الـوزير لله مـال

---

(١٥) راجع (مطالع السعود) الورقة ٦٨
(١٦) راجع ص ٥٥
(١٧) مطالع السعود الورقة ٧٥ ـ ٧٦
(١٨) راجع ص ٥٥

أبطنـوا الغش للوزير وراموا كل ما فيـه للوزير اختـلال[١٩]

ويشير فى بيتين آخرين الى أن الكتخدا قد استشار فى الصلح الذى عقده مع الوهابيين من لم يكن ناصحا له

لم يشاور من كان فى النصح جدا كتخداهم فخـاب سـعيا وجدا
من يرم خيبة يشـاور عـدوا برداء الخداع دأبـا تردى[٢٠]

ويكرر هـذا المعنى فى أبيـات اخرى معتقدا بأن الخيـانة كانت من ابراهيم بن ثاقب بن وطـان لانه من أقارب سعود وكان ابراهيم قد رافق الحملة فيقول

لسـان الحـال قال لهم غزوتم سـعودا كى يعـز وكى تذلوا
تمنـوا أن يلاقـوه بنجـد فلمـا أن دنـا جبنوا وذلوا
عذيرى من أنـاس عظمـوه بعـين الكتخدا فعـراه ذل
ومن يجعـل معاديـه مشـيرا فما لنصيحة فيـه محـل[٢١]

وحين كتب عن حادثة كربلاء التى وقعت سنة ١٢١٦هـ أردفها بقوله عن سعود

سـفك الدمـاء وظن أن صنيعـه ينجيـه
ولقـد تحـاوز حـده فى كل مـا يجنـه
فلسـوف يعـلم غب مـا أبـداه من تمويـه[٢٢]

ولعل التهديد بعـذاب الآخرة كان أقرب شيء الى ذهن الشاعر لانه كتب عن هذه الحادثة بعد وقوعها بسنين وبعد أن مات سعود .

ولما أرخ جلوس السـلطان محمود الثانى عـام ١٢٢٣هـ نظم بعض الابيات والقصائد فى مدحه واستغل ذهاب الجيش المصرى الى نجد فى أيامه وما انتهى اليه ذلك من القضاء على عبدالله بن سعود سنة ١٢٣٣هـ فقال

همـام من بنى عثمـان صلت براحتـه رسـوب الحـد صلت

---

(١٩) مطالع السعود ــ الورقة ٨٠
(٢٠) المصدر السابق والورقة نفسها
(٢١) المصدر السابق الورقة ٨١
(٢٢) المصدر السابق الورقة ٨٦

حمى دين النبى بـــه فأمسى ولا عوج يشـان بـــه وأمت
أزال بـــه ضلالة عارضى[٢٣] لتضليل الـورى أبدا يمت[٢٤]

وحين أرخ استيلاء جيش محمدعلي على مكة والمدينة سنة ١٢٢٩هـ[٢٥] واخلاءهما من الوهابيين شفع ذلك بقصيدة مدح بها السلطان محمودا ونوه بأعماله فى هذه الحوادث وطعن على الوهابيين طعنا شديدا فقال

منجد من بنى عثمان قال لـه زمانه يـا عديـم المثل فافتخر
أطلقت قبلتنا من أسر ذى أشر بالسف يبرق والعسالة السمر
لو لم تكن بالظبى والسمر مطلقها مـا حجهـا قط سنى من البشـر
دعاك محمود هذا العصر كل فتى يراك فى الحرب مثل الصارم الذكر
لو لا حسامك لم يصدح مؤذننـا فى المسجدين ولم تمدد يد الظفر
ولـم يزل عنهما رجس ولا درن من عارضى رمى الاسـلام بالغير
مخاصم كل أهـل الحق قاطبـــة من بغيـه لـم يدع شيئا ولم يذر

ثم يشبه السلطان بالخلفاء الاربعة فيقول

خلفت فينـــا أبا بكر وكنت لنـــا عثمان يقفو سديد الرأى من عمر
وكنت فينـا عليـــا فى مماصعة والافق لولا بريق السيف لم ينر
لولاك مـا نظرت عـــين الى ملك لكن لاجلك كانوا مطمح النظر[٢٦]

ولما كتب عن انتهاء الحكم السعودى على يد ابراهيم بن محمد علي سنة ١٢٣٣هـ واحتلال ما كان يسـيطر عليـه عبدالله بن سعود[٢٧] وضع محاورة فى مقطوعتين من الشعر اولاهما على لسان عبدالله بن سعود والثانية على لسان ابراهيم بن محمد علي وقد اعترف فى الاولى بشجاعة السعوديين وعدم انقيادهم للسلطان فقال فيها

---

(٢٣) نسبة الى (العارض) من نواحى نجد ويسمى بوادى حنيفة واليمامة وفيه الدرعية مقر السعوديين وفيه الرياض التى انتقلوا اليها
(٢٤) مطالع السعود الورقة ٩٥
(٢٥) راجع مطالع السعود ـ الورقة ٩٦
(٢٦) المصدر السابق ـ الورقة ٩٧
(٢٧) قدم لهذه الحادثة بقطعة من النثر شديدة اللهجة (مطـالع السعود) الورقة ١١٨

انا اذا الحرب شبتهـا صوارمنـــا | أن يلقنـا الاسد عن أسيافنا حادوا
شبابنا صبر فى الحرب مذ نشـأوا | والشيب كم بنفوس أغليت جادوا
أوصت أوائلنـا قدمـــا أواخرنـا | ألا يدينـوا لســلطان وينقادوا

غير أن هذا الاعتراف يتضاءل أمـام سجيته فى تعظيم السلطان ويظهر ذلك فى الابيات التى وضعها على لسان ابراهيم فيقول

انا الملوك اذا سـلت صوارمنـــــا | على الألى مرقوا عن أمرنـــا بادوا
انا على اثر ســـلطان أوائلـه | سادوا الورى قبلما أمثاله سـادوا
مثابرون على دين النبى كمـــا | كانت أوائلكم عن دينـه حـادوا
مجاهدون فكم أرووا صوارمهم | من كل من لم يكونوا للهدى هادوا
فســوف تعـــلم ان لاقيت ناشئنا | انا لدى الحرب أسياف وآساد[٢٨]

وليس معنى هـذه المحاورة أن الشـاعر تقمص الشـخصيتين حسب فوضع على لسان كل واحد منهما ما يناسبه ويشعر به وانما كان يصدر ذلك عن رأيه ايضا ولكنه آثر جانب الدولة ملقا وتزلفا ٠

وليس أدل على مقت عثمان بن سند دعوة الوهابيين من رسالته التى بعث بهـا الى ابراهيم بن محمد علي عندما نزل الدرعية وحرضه بها أشد التحريض وذيلها بقصدة جاء فيها

ولا تبق منهم واحـدا تستطيبه | اذا خبث الآباء لم يطب الولد[٢٩]

على أن ابن سند كان غير مكلف بهذا التحريض الشديد لو لم يكن متأثرا بالجو السياسى فى العراق والعقيدة الدينية المسيرة ٠

واستغل ابن سند حادثة (المورة) سنة ١٨٢٦م[٣٠] فنظم فيها قصيدة معظم أبياتها خارج عن هذه الحادثة الى الطعن على الوهابيين ومدح السلطان محمود الذى حاربهم ، وتبدأ القصيدة بأبيـات فيهـا تمجيد عام للسلطان

---

(٢٨) مطالع السعود ـ الورقتان ١١٨ و١١٩
(٢٩) لم أجد من القصيدة غير هذا البيت اما الرسالة ففى (مطالع السعود) الورقة ١٢٠
(٣٠) راجع ص ٢٨

وجيوشه وتنتهى بأبيات قليلة فى ذكر حادثة (المورة)[٣١] وقد تخلل البداية والنهاية أبيات غير قليلة فى وصف العقيدة الوهابية وأتباعها وأعمالهم والتوفيق الذى حالف السلطان فى القضاء على هذه الدعوة وأنصارها ومن تلك القصيدة قوله

بشرى أمير المؤمنين فاننى　　　أبصرت فيك على العدى المستنصرا
أصبحت فينا واثقا متوكلا　　　بدرا اذا ليل النوائب أعكرا
اذ زرتهم بكتائب دينية　　　فقريتهم بالبيض موتا أحمرا

* * *

أمطرت (عارضهم) بعارض بندق　　　فجرى به واديهم فتدمرا

* * *

فتنافس الحرمان منك بعادل　　　أمضى من الليث الهصور وأغيرا[٣٢]

وللشيخ صالح التميمى بيتان قالهما فى عودة عبدالعزيز الشاوى[٣٣] من نجد وهما

ركن الفخار بركن البيت محتجب　　　فاعجب لركنى علا فى ساحة جمعا
كأن شيطان نجد حين شاهده　　　عفريت جن رمته الشهب فانقمعا[٣٤]

الشعر فى المرحلة الثانية :

كان الخلاف الذى اشتد بين عبدالله وسعود ولدى فيصل قد أدى الى استنجاد عبدالله بالدولة العثمانية لطرد أخيه سعود من الاحساء ، وفى أيام الوالى مدحة كان هذا الاستنجاد ولم تكد سنة **١٢٨٨هـ** تحل حتى كانت أول قافلة من الفيلق السادس فى طريقها من بغداد الى الاحساء وانتهت المعارك بانتصار الجيش العثمانى ومتطوعى العراق[٣٥] وقد كانت هذه الحملة

---

(٣١) ستأتى هذه الابيات فى مكانها المناسب من الفصل الرابع
(٣٢) مطالع السعود الورقة ١٥٢
(٣٣) راجع ص ٥٦ وقد ورد فيها اسم محمد الشاوى
(٣٤) ديوان التميمى ص ٧٧
(٣٥) راجع ص ٥٨

مناسبة قيمة لشعراء العراق فقد تناولوها من زاوية المدح للدولة وللسلطان والوالى (مدحة) وأنصاره من العراقيين وغيرهم وقد تباروا فى التهنئة بالانتصار وبالاوسمة والنياشين التى منح بها السلطان عبدالعزيز من كان ذا أثر فى هذه الحملة ولاسيما الوالى الذى ظفر بسيف ثمين حمل اليه من الاستانة .

وكان عبدالغفار الاخرس من أبرز الشعراء الذين أسهموا فى تخليد هذه الحملة فقد نظم بعض القصائد فى مدح الوالى مدحة والسيد محمد سعد نقيب البصرة و (نافذ) قائد الفيلق وغيرهم وصعد بممدوحيه صعود الشاعر المبالغ لانهم عصموا نجدا من الاشرار وبذلوا أنفسهم فى خدمة الدولة ، أما (مدحة) فانه استرد الملك الضائع واسترجعه لاهله .

وهذه احدى قصائده وقد نظمها عندما وصل الوالى مدحة الى البصرة متوجها الى الاحساء بعد الاستيلاء عليها وبعد وصول السيف اليه من لدن السلطان ، وفى القصيدة مدح ممزوج بشىء من الآراء فى تفسير أعمال السعوديين وأولها

سعدت نجد اذا وافيت نجدا — بقدوم منك اقبالا وسعدا
واذا أصبحت فى احسائها — قيل للشر عن الاحساء بعدا
أقبل الخير عليها كله — منجزا فيك بلطف الله وعدا
وأراد الله أن يعصمها — من شرار كادت الاخيار كدا
كان كالضائع ملكا مهملا — فاسترد الملك أهلوه فردا

ولولا الاعتقاد بالخلافة العثمانية لما اندفع الاخرس الى هذا الرأى الذى كان يدين به الكثيرون من أمثاله وهو أن بلاد العرب ملك للسلطان العثمانى .

ويسجل الشاعر انتصار مدحة فى هذه الحملة بعد فشل الحملات السابقة التى وجهت من العراق لاسترداد هذا القطر فيقول

اذ تصديت لأمر لم نجد — قل عليك له من يتصدى

أما الانصار والاعوان من الجنود والمتطوعين فانهم

بذلوا أنفسهم فى خدمة أورثتهم بعدها عزا ومجدا

ثم يوصى مدحة بأن يحكم ما استنقذه حكم المستبد

فاركب البحر وخض لجته يا شبيه البحر يوم الجدمدا

وانظر الملك الذى استنقذته واجر ترتيبك فيه مستبدا

ويهنئه بالسيف المهدى اليه من السلطان

يهنك السيف الذى أهدى من ملك أهداه انعاما وأسدى

ويعبر عن الدولة بقوله

دولة قد أيدت واتخذت من جنود الله أنصارا وجندا(٣٦)

وليس من المفارقات الغريبة أن يزعم الاخرس بأن الدولة انتصرت بجنود الله على السعوديين الذين كانوا يحاربون باسم الدين كما يزعمون فان كلا الفريقين كان يدعى الحق الدينى لنفسه لا لغيره وبهذا الزعم سبق أن احتل الوهابيون الاحساء وحاربوا أهلها(٣٧) لانهم ليسوا على مذهبهم(٣٨) •

وهذه قصيدة اخرى لعبدالغفار الاخرس قالها فى مدح السيد محمد سعيد نقيب البصرة مطريا بها أعماله فى مساعدة الدولة العثمانية ولم يقتصر على مدحه بل مدح السلطان والوالى ومعاونيه أيضا ومنها

حتى اذا العيد وافانا بغرته أقر شوال فى عينى أبى رجب(٣٩)

هو السعيد الذى يشقى العدو به من ذا يعاديه فى الدنيا ولم يخب

لما دعاه ولىّ الامر منتدبا أجابه وأراه خير منتدب

---

(٣٦) راجع (الطراز الانفس) ص ١٢٥ ـ ١٢٧

(٣٧) راجع الحاشية ٦٤ من الفصل السياسى

(٣٨) جاء فى (عنوان المجد) لصبغة الله الحيدرى (الورقة ٨٨) أن أكثر من ثلثى سكان الاحساء شيعة اما القطيف فكل أهلها شيعة وجاء فى (الزوراء) العدد ١٥٨ من السنة الثالثة أنهم شكوا من آل فيصل والتجأوا الى العساكر السلطانية وجاء فى (الزوراء) أيضا ـ العدد ٢١٠ من السنة الثالثة أن اكثر سكان قرى الاحساء شيعة

(٣٩) كان نظم هذه القصيدة فى عيد شوال سنة ١٢٨٨هـ وأبو رجب كنية الممدوح ٠

لقد كفى العسكر المنصور نائبة تجثو لها نوب الدنيا على الركب

وقومت كل معوج صوارمه وسكنت منذ وافى كل مضطرب

* * *

اما وربك لولاه لما خمدت نار لها غير فعل النار والحطب

أما الذين ذهب النقيب الى محاربتهم فانهم

بغوا لما نزغ الشيطان بينهم والبغى يسلم أهليه الى العطب

ثم يشير الى الوسام الذى منحه السلطان هذا النقيب وما أسداه الوالى الى الممدوح

ليهنك النصر والفتح المبين وما بلغت من جانب السلطان من أرب

لئن حباك بنشان تسر به فانه بك من بين الرجال حبى

هذا المشير أعز الله دولته أبان فضلك اعلانا لكل غبى[٤٠]

وما حول النص هنا يدل بصراحة على ما كان للزعماء والوجهاء من تهافت لارضاء الدولة واكتساب عطفها وأوسمتها لكى يظهروا أمام الاهلين بأنهم هم المقربون والمتنفذون •

ويكرر الاخرس تهنئته بهذا (النيشان) الممنوح للنقيب فيقول له

دمت بالنيشان والعيد سعيدا فترى أيامك الغراء عيدا[٤١]

أما القائد (نافذ) فان له نصيبا من مدح الاخرس لانه شارك فى هذه الحملة مشاركة فعالة ، ومن ذلك قوله

ألا من مبلغ عنى سلامى رئيسا فى العراق على النظام[٤٢]

رآه مفخر الدنيا حساما وقد يغنيه عن حمل الحسام

فقدمه المشير ليوم بأس يقدّ من الخوارج[٤٣] كل هام

(٤٠) الطراز الانفس ص ٦١ ــ ٦٣

(٤١) راجع المصدر السابق ص ١٣٨ و١٣٩

(٤٢) يريد بالنظام (الجند) وهو تعبير عصره

(٤٣) يرى (جب) أن الوهابيين وقعوا فى مثل ما وقع فيه الخوارج من الخطأ فتعرضوا لاضطهاد الاكثرية وقضى عليهم سياسيا راجع Modern Trends in Islam. p. 26-32. 2 nd

ويمدح بهذه الابيات الوالى مدحة لانه بذل خدمة عظيمة للسلطان

رمى من بالعراق عصاة نجد   وزير ما رمى مرماه رامى
وأدى خدمة عظمت وجلت   بهمته لسلطان الانام[٤٤]

وهذا شاعر من مدينة كربلاء التى تطلب الوهابيين بثأر كبير يقدم تهانيه للوالى مبتدئا بمدح السلطان أما الشاعر فهو السيد أحمد رشدى[٤٥] وهذا بعض ما قاله

بدا نور ظل الله يشرق كالصبح   فطبق وجه الارض بالعدل والنجح
مليك على العرش استوى ولعزه   جميع ملوك الارض تعلن بالمدح

أما الوالى مدحة فانه

وزير على متن الوزارة قد رقى   أحاط بها خبرا فما احتاج للشرح
وسير جيشا نحو نجد فخفقت   قلوبهم خوف العساكر فى جنح

ولا أرى حاجة للتعليق على ما فى البيت الاخير من ركة ومن استعمال كلمة (جنح) بدل جناح لتتم الاستعارة ، ومهما يكن من شىء فقد أراد الشاعر أن يظهر براعة فى التاريخ فقال متمما هذه الابيات

ومذ فتحت نجد دعا السعد أرخوا   لقد جاء نصر الله يزهر بالفتح[٤٦]

وهذا شاعر آخر من كربلاء أيضا وهو الشيخ (فليح)[٤٧] يمدح السلطان عبدالعزيز ويمجد الوالى مدحة والجيش الذى سار لفتح الاحساء ويتطرق لفرار سعود بن فيصل فيقول باسلوبه الضعيف

ألا فليسر المجد اذا فتحت نجد   ديار تولى فتحها الجد والجند
لعبدالعزيز المستطيل بعزه   على كل موجود لقد وجب الحمد
شهنشاه ظل الله راعى عباده   مليك هدى ملك الملوك له عبد

---

(٤٤) الطراز الانفس ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧
(٤٥) لعله الرشتى
(٤٦) الزوراء ـ العدد ١٥٨ من السنة الثالثة ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٨هـ
(٤٧) يلفظ بتشديد الياء وهو تصغير فلاح وقد يكون عند العامة تصغير فالح

به جهز الوالى تبارك جده   جنودا عليها رفرف النصر والسعد
ولما تعالى سعد (مدحة) رفعة   بأوج المعالى واستنار به المجد
سعود (سعود) الشر غابت فأرخوا   بحزم عزيز الجند قد فتحت نجد[٤٨]

وتهز هذه الحادثة شاعرا آخر من موظفى الدولة وهو أحمد عزة العمرى[٤٩] فيمدح السلطان والوالى ، ويؤرخ الحادثة أيضا فيقول

من أرض بغداد الى قطر الحسا   غند الصاح حمد القوم السرى
جهز جيش النصر منا مدحة   والى حمى الزوراء فخر الوزرا
أركب نصف شقه البيد ضحى   وأركب النصف الاخير الأبحرا
سخر نجدا وقطيفا بعدما   صاحبها لقد بغى واستكبرا
أحاطها الجيش بعزم (نافذ)[٥٠]   أضحى على تسخيرها مقتدرا
جند أمير المؤمنين قد غدا   أرخ بنجد أبدا مظفرا[٥١]

ولم يكتف أحمد عزة بهذه المقطوعة بل نظم قصيدة اخرى يصف بها السيف المهدى الى الوالى مدحة ويمدح هذا الوالى لانه عمر العراق وأنقذ الاحساء كما يرى الشاعر فيقول

لله سيف لاح وهو مذكر   فى حده غدت الأعادى تنحر

ويخاطب الوالى قائلا

يا أيها المولى المشير ومن به   بدر الوزارة يستنير ويزهر
عمرت أطراف العراق وانه   لولاك ما كان الولاية تعمر

ثم تأتى العامة المبهمة التى لا تربط بين شطرى البيت ربطا موفقا فتقول مستخدما الجناس

---

(٤٨) الزوراء العدد ١٥٨ من السنة الثالثة
(٤٩) كان اذ ذاك مديرا لشركة (الترامواى) فى بغداد ثم صار محررا لجريدة الزوراء فكاتبا فى ديوان الوالى ومترجما من التركية الى العربية وهو ابن أخى عبدالباقى العمرى ، توفى فى الاستانة سنة ١٣٠٩هـ وله شعر غير قليل فى (الجوائب) و (منتخبات الجوائب)
(٥٠) يورى بالقائد نافذ الذى قاد الحملة
(٥١) الزوراء ـ العدد ١٦٤ من السنة الثالثة

قطفت يداه من القطيف ثمارها والغصن يكثر حسنه اذ يثمر
ثم احتسى الأحسا بكأس تعرض والكأس فى بعض المواضع تسكر

ثم يلتفت الى الوالى ويشير الى القطر الذى كان مغلقا ففتحه فيقول

وفتحت قطرا كان عنا مغلقا فغدا به ماء العدالة يقطر
وجعلته فوق العراق ضميمة والملك فى حين الضميمة يكبر
فحباك سلطان الانام بسيفه كرما وفضلا شكره لا يحصر

ويؤرخ وصول السيف الى الوالى فيقول

وغدا الفخار يقول فيه مؤرخا سيف ترصع بالكمال مجوهر(٥٢)

ونظم محمد أمين العمرى(٥٣) أبياتا بهذه المناسبة فهنأ الوالى ووصف خصومه بالبغى وعبر عن نجد بأنها فرع من بغداد وان الفرع قد ضم الى الاصل وطلب من الوالى ألا يكتفى بنجد بل يمد يده الى جنوب الجزيرة العربية أيضا فقد كان الجنوب ولاسيما اليمن فى صراع مستمر مع الدولة فقال

أيا والى الزورا الذى لجلاله جميع ولاة الارض تدنو وتخضع
لك المنشآت الغر فى البحر انها تروح بنصر الله طورا وترجع
أضفت الى الزوراء نجدا بأسرها ولا شك أن الفرع للاصل يتبع
ومن ظلم أهل البغى أنقذت أهلها فأضحت بجنات العدالة ترتع
عليها جعلت الجند سورا مشيدا وحصنا حصينا للمفاسد يمنع
فأنعم ظل الله سيفا مجوهرا عليك به أنف الشقاوة تجدع

★ ★ ★

وانى لأرجو أن تكون ضميمة عليها بلاد حازها قبل تبع(٥٤)

---

(٥٢) الزوراء ــ العدد ١٨١ من السنة الثالثة

(٥٣) كان (كهية ــ كتخدا) فى بغداد أى (باب العرب) وهذه الكلمة تعنى الآن مدير شؤون العشائر وهو ابن أخت عبدالباقى العمرى وقد توفى سنة ١٢٨٨هـ اى فى السنة التى نظم فيها هذه الابيات راجع (المسك الاذفر) ص ١٥٥

(٥٤) راجع (العراق بين احتلالين) ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ من الجزء السابع

وهذه مقطوعة اخرى لشاعر لم أهتد الى معرفة اسمه وهى مثل سالفاتها من حيث التعبير والفكرة ففيها مدح للسلطان والوالى وذم للذين حاربهم الجيش وفيها يقول

بشـــائر الفتح فتح نجـد	قـد أسـفرت مثل ضوء صبح
اذ جهـز الجيش جيش نصر	من اسـمه شـائع بمـدح
والى العـراق الـذى تـولى	بعزمـه مـع جميـل صفح
طاعت وحوش الاعراب[55] طرا	لبأسـه بعـد حسن نصح
بطـل سلطاننـا المعلّى	سـامى الفتوحـات رب منح
من العـزيز الفتـاح وافى	أرخت هـذا عـزيز فتح[56]

وهذه أبيات لشاعر من شعراء النجف وهو السيد ابراهيم الطباطائى المتوفى سنة ١٣١٩هـ وقد أغفل ذكر المناسبة الا أن الابيات صريحة فى أنها نظمت فى هذه الحادثة لان فيها مدح السلطان عدالعزيز وذكر نجد وقد جاء فيها قوله

أعـز ملوكنـا عبدالعزيز	أذل عـداه بالأسـل العـزيز
فيا بحر العروض جرى طويلا	بظهـر البر يرشـح بالنزيز
ويـا نجدا بـه نجد استقلت	مشـرعة العمـاد على النشـوز
رسا جبـلا على الجبل المسامى	ثبـيرا لا يزلـزل بالهـزيز
أبى السيف الصنيع سوى قراع	بكفك والقناة سوى الغموز[57]

شاعر مع الوهابيين

لقد كان الشعر الذى قدمته فى الصفحات السابقة موجها ضد الدعوة الوهابية وأنصارها مستنكرا أعمالها وحروبها مادحا مقاوميها من رجال الدولة العثمانية ، وجميع هذا الشعر على اختلاف منابعه وعواطف أصحابه وعلى

---

(٥٥) هذا التعبير من أساليب حكومة بغداد آنذاك راجع العدد ١٩٥ من جريدة الزوراء ـ السنة الثالثة ٢٨ شعبان ١٢٨٨هـ .

(٥٦) العراق بين احتلالين ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ من الجزء السابع

(٥٧) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ١٤١ ـ ١٤٢

ما بين بعضه وبعض من بعد فى الزمن وتفاوت فى الاساليب يلتقى عند نقطة واحدة وهى مناهضة الوهابيين وأعمالهم ، ولكن شاعرا عراقيا واحدا انفرد بتمجيد الوهابيين وسار فى ركابهم ومدح عقيدتهم وبرر أعمالهم وتملق رؤساءهم ، وهو السيد عبدالجليل[٥٨] الطباطبائى البصرى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ غير أن هذا الشاعر لا يستطيع أن يضع نفسه فى مصاف شعراء عصره من حيث الاسلوب والصياغة بل كان شعره وسطا وقد يسف فيه الى ما دون الوسط فيأتى به ألفاظا لا تخضع لغير الوزن كما أنه لم يستطع أن يسلك فى مبدئه السياسى طريقا واحدا لا ينحرف عنه فهو مع السعوديين حين يكون فى نجد وعلى ساحل البحر العربى وهو مع الدولة العثمانية وسلاطينها وولاتها حين يكون فى البصرة موطنه وموطن أسرته وهو مع شرفاء مكة حين يحج بيت الله الحرام ، والدولة العثمانية وشرفاء مكة خصوم الدعوة الوهابية ، لذلك خلا شعره من الصدق وحرارة العاطفة ولكنه على كل حال يمثل لونا من ألوان الشعر العراقى فى تصوير جانب من جوانب الحركات السياسية وبخاصة تلك الحركات التى مثلتها الدعوة الوهابية فى نجد والاحساء وعلى الساحل العربى • ولو لم يكن السيد عبدالجليل يتردد على الاقطار الساحلية بين الاحساء والكويت والبحرين لاعماله التجارية ولو لم تلجئه الضرورة لما رضى أن يقعد فى مكان المعارضة لمعاصريه من شعراء العراق ففى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الشعراء يرون الدعوة الوهابية مروقا على الاسلام وخروجا على الاجماع كان عبدالجليل يرى فيها احياء للدين وتشييدا لاركانه وقمعا للبدع وهو فى ذلك لا يختلف عن أى شاعر يعيش مع السعوديين آنذاك •

وأول قصيدة ينظمها فى مدح الوهابيين كانت بمناسبة حرب سعود بن عبدالعزيز مع أمراء البحرين سنة ١٢٢٤هـ وكان هؤلاء قد رفضوا الخضوع

---

(٥٨) اسرته معروفة فى البصرة ولها بساتين من النخل وقد ولد عام ١١٩٠هـ وسافر الى البحرين واشتغل بتجارة اللؤلؤ وكان كثير الاسفار وتوفى بالكويت وترك ديوان شعر سماه (روض الخل والخليل ـ ديوان السيد عبدالجليل)

لسعود عن طواعية فأرسل اليهم جيشا أخضعهم وأمر رؤساءهم بالذهاب الى الدرعية فوصلوها في محرم من سنة ١٢٢٥هـ[٥٩] وكان هؤلاء من آل خليفة أصدقاء الشاعر وكان هو في البحرين عندما غلبوا على أمرهم ولحقه من الضرر ما لحقهم فقد أسره أتباع سعود وبقي في أيديهم من صفر سنة ١٢٢٥هـ الى صفر سنة ١٢٢٦هـ[٦٠] وقد قضى من هذه المدة ثلاثة أشهر في الدرعية عند سعود وسعى لفكاك آل خليفة[٦١] وكانوا قد بقوا في الدرعية الى رمضان سنة ١٢٢٥هـ[٦٢] .

ويشير الشاعر الى أنه نظم هذه القصيدة في ذي الحجة سنة ١٢٢٤هـ[٦٣] وأرسلها الى سعود بن عبدالعزيز ومعنى ذلك أنه أرسلها بعد المعركة التي وقعت بين سعود وأمراء البحرين[٦٤] وقبل أن يقع هو أسيرا بأيدي السعوديين واذا صح ما زعمه فانه يكون قد خاف من الضرر فأراد أن يتجنبه بنظم القصيدة ولكنه وقع فيما خاف منه .

والقصيدة طويلة بدأها بالشكر للباري الذي أتحف الناس بدين (محمد) فأنار القلوب به فقال

تباركت يا مولى الملوك الأعاظم و(عزيت)[٦٥] يا مبدي الجميل وراحمي

---

(٥٩) عنوان المجد لابن بشر ص ١٤٧ من الجزء الاول

(٦٠) مباحث عراقية - ص ١٩٥ من الجزء الاول

(٦١) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٦٢) هذه رواية الشاعر كما جاء في (مباحث عراقية) ص ١٩٦ ج ١ اما عثمان بن بشر فيشير الى أن عودتهم كانت سنة ١٢٢٦هـ باذن من سعود راجع (عنوان المجد) ص ١٥٤ ج ١

(٦٣) روض الخل والخليل - ص ١٤ طبع مصر و ص ٢٠ من طبعة الهند

(٦٤) حدثت حرب أخرى بين قوات سعود وبين أبناء الامراء من آل خليفة سنة ١٢٢٥هـ وكانت بحرية أكثر منها برية وقد تغلب فيها آل خليفة راجع (مباحث عراقية) ص ١٩٥ ج ١ و (عنوان المجد) لابن بشر ص ١٤٧ و١٤٨ ج ١

(٦٥) يريد بها (عززت) وهي لغة من يقلب الحرف الثاني من المضعف ياء

ثم قال

جزى الله رب العرش بالصفح والرضى ... وبالخير من قد كان أصدق قائم

هو الورع الاواه شيخي (محمد) ... هو القانت السجاد فى جنح فاحم

وبعد أن يستمر فى مدح محمد بن عبدالوهاب ودعوته التى جاء بها فى زمن كثرت فه البدع وانتشر الفسوق والعصيان وقل الناهون عن المنكر والآمرون بالمعروف بعد هذا كله ينتقل الى مدح عبدالعزيز بن محمد الذى آزر محمد بن عبدالوهاب فى بداية الدعوة ومكن للعدل حتى تساوت لديه الرعايا وفازت بالعيش الرغيد ، وقاد الجيوش مثل السيول

فألبس أهل الشرك أثواب ذلة ... بأسر وقتل واكتساب المغانم

وبعد أن يحكم الشاعر على المسلمين بالشرك كما حكم عليهم الوهابيون يقول

الى أن أباد الله كل معاند ... وفرق شمل الباطل المتراكم

ورد جموع المشركين بغيظهم ... وما قط نالوا غير شر الهزائم

ثم يمدح سعود بن عبدالعزيز فيقول

سعود أدام الله أيام سعده ... وكان له الاقبال خير ملازم

امام الهدى بحر الندى من سقى العدا ... كؤوس الردى حتى اهتدى كل راغم

وبعد أن يسبغ على سعود ما شاء من الصفات والنعوت يستعرض حادثة آل خليفة أمراء البحرين والجيش الذى زحف عليهم من نجد والقواد البواسل الذين قادوا ذلك الجيش فأخضعوا أمراء البحرين

وألقى اليهم أمره ابن خليفة ... وعض لأمر غره كف نادم

فأولاه غفرانا وصفحا امامنا ... وناصحه فى أخذه للكرائم[٦٦]

---

(٦٦) بعد أن أفلت الشاعر من السعوديين ناقض نفسه فقد جاء فى رسالة بعث بها الى صديقه فتح الله بن نعمة الله الحلبى مشيرا الى عودة أمراء البحرين بعد أن أعطوا ابن سعود المواثيق بالطاعة وانهم نبذوا المواثيق جاء فى الرسالة قوله « والذى ألجأهم الى نقض العهد هو ما أذاقهم سعود من الذل والهوان وأخذ كريم الاموال من الخيل والركاب والسلاح » راجع الرسالة فى (مباحث عراقية) ص ١٩٦ من الجزء الاول وهى مؤرخة فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٦هـ ١٨١١م

ويختم القصيدة بقوله مخاطبا سعودا

هنيئا لك الملك الذى أنت أهله ومانعه من سوء باغ وظالم

وقد حذفنا من القصيدة أكثرها مكتفين بالاشارة الى ما تضمن القسم المحذوف من أهداف وأغراض تتصل بالدعوة الوهابية ومؤسسها وأنصارها على أن قسما منها غير قليل تعرض للحالة الاجتماعية فى نجد وغيرها ولاسيما ما يتصل منها بالبدع والخرافات والمفاسد وسواء أكانت القصيدة بدافع من خوف أو طمع فانها تصلح أن تكون متنا من متون التاريخ لتلك الدعوة فى بدايتها[٦٧] .

وفى موقف آخر من مواقف الطمع والتقرب ينظم هذا الشاعر قصيدة اخرى فى مدح سعود بن عبدالعزيز عندما وفد اليه مع آل خليفة سنة ١٢٢٥هـ فيقول فيها

عليك سلام أيها الملك الذى اليه ملوك العصر قد ألقت الأمرا
جمعت شتات المكرمات سجية فسدت الورى مجدا وفقتهم فخرا
وظاهرت دين الله بالبيض والقنا وبرهانك القرآن والسيرة الغرا[٦٨]

والذى أراه أن هذا الشاعر لم يكن قد نظم هذا الشعر بدافع دينى ولم تكن مواقفه هذه بوحى من عقدة بل كانت بدافع من الخوف والطمع لانه حضرى لا يقوى على مواجهة البدو ولا يطيق خشونتهم ودليلى على تملق الشاعر وعدم صدقه فيما نظم من مدح للدعوة الوهابية وأنصارها ما جاء فى رسالته التى بعث بها الى صديقه الحلبى وهو قوله

« لما كنا فى أرض ابن سعود كنت فى أسوأ حال كارها معاشرة غير المشاكل والمجانس وفى أرض لا نعرفها وناس ما ألفناهم ... ثم ان جماعتنا من بنى عتبة ـ يعنى بهم أمراء البحرين ـ بعدما من الله عليهم بالنصر والظفر على عدوهم وقطع دابرة ابن سعود من جميع ساحل البحر استراحوا

---

(٦٧) راجع القصيدة فى (روض الخل والخليل) ص ١٤ ـ ١٦ من طبعة مصر و ٢٠ ـ ٢٢ من طبعة الهند

(٦٨) راجع (روض الخل والخليل) ص ١٧ طبعة مصر

واستقروا »[٦٩] . فأين نضع هذه الرسالة من ذلك الشعر ؟

فى المرحلة الثانية

وبعد أن استقل تركى بن عبدالله فى الرياض معيدا الحكم السعودى أرسل اليه السيد عبدالجليل هذا مقطوعة مع كتاب تأييد ركيك الاسلوب وكان ارسال المقطوعة مع الكتاب فى سنة **١٢٤٨هـ** وهى جواب على كتاب ورد من تركى كما يدعى الشاعر[٧٠] ، وقد جاء فى المقطوعة قوله

أخذت بالهمة العلياء منفردا ... ما يعجز الجحفل الجرار مجتمعا
ونلت بالحزم ما لم يجر فى خلد ... وأن يمد اليه طالب طمعا
صبرت محتسبا تحت المكاره لا ... من مسعد منجد أن تدعه سمعا
فى قفرة ليس فيها للطريد حمى ... ولم تجد موئلا مهما تكن فزعا
لم يثنك الهول عما رمت غايته ... ولم تكن فى الذى كابدته جزعا
حتى امتطيت ذرى العلياء لا أشراً ... ولا فخورا ولا مستكبرا قذعا[٧١]

وبعد أن قتل تركى بن عبدالله سنة **١٢٤٩هـ** على يد ابن اخته وجاء ابنه فيصل فقتل القاتل وحل مكان أبيه زحف جيش مصرى واحتل الرياض وسيق فيصل الى مصر سنة **١٢٥٤هـ** ثم فر من مصر سنة **١٢٥٩هـ** وعاد الى الرياض فاحتلها واقام فيها يدعو الناس[٧٢] وفى هذه السنة أرسل اليه السيد عبدالجليل قصيدة طويلة قال فيها

امام أتانا بالمسرة والهنا ... وبالعز والعدل العميم وبالرشد

ومن المعروف أن أهل نجد من الوهابيين كانوا يطلقون كلمة الامام على كل من يتولى الحكم من آل سعود . ثم يشير الى ما حدث لفيصل فى مصر

فسل مصر عنه هل رأت غير حازم ... أبى على حمل العنا صابر جلد

---

(٦٩) راجع (مطالب عراقية) ص ١٩٦ ج ١
(٧٠) روض الخل والخليل ــ ص ٦٥ و٦٦ طبعة مصر
(٧١) المصدر السابق ص ٦٦
(٧٢) راجع ص ٣٤

ففوض لله المهيمن أمـــــره وعاذ يرب الناس من شر ذى حقد
وعـاد يحمد الله غـير مدافـع عن الامر ممون النقيبة والقصـد

ثم يصف حالة نجد بعد غياب فيصل فى مصر فيقول

وأنهى اليك الحـال مذ غبت غالنا بغيبتك الدهر العبوس على عمد
جـــلاء وتنكيـد وغرم وذلـة ولا ناصر للحق ذو نخوة يجدى

ثم تنكشف الحقيقة عنـد الشـاعر ويوضح عما فى نفسـه من أنه لم يمدح عن عقيدة بل عن طمع وتقرب وأمل بالعطاء الذى يستريح به من الكد والتعب فيقول

وأرجو من الرحمن يبدل ما مضى بمال يريح القلب من وصمة الكد

واكتفى من هذه القصيدة بما ذكرته لان معظم أبياتها تكرار واعادة للمعانى التى يعرفها الشاعر أو لا يعرف غيرها وهى معان مبتذلة لكثير من النظاميين من أمثاله[٧٣] .

هذا ما استطعت أن أظفر به من الشعر العراقى الذى سار فى ركاب الدعوة الوهابية ومجد أصحابها وأتباعها والمحاربين باسمها ، وهذا الشعر لم يكن من الرصانة والقوة بحيث يمكن أن يوضع من حيث المجموع الى جانب تلك القصائد والمقطوعات التى ناهضت الدعوة الوهابية وأتباعها وان كان بعضها ضعيف الاداء ركيك الاسلوب .

وهذا أيضا مجموع ما استطعت أن أظفر به من الشعر العراقى الذى أوحته الدعوة الوهابية وحوادثهـا سلبا وايجابا وقد رأيت أن الشعر الذى ناوأ الدعوة الوهابية وأصحابها كثير فى الكم فهو لشعراء متعددين كان لهم شأن فى تاريخ الادب والشعر خـلال القرن التاسع عشر وان أية موازنة تعقد بينهم وبين شاعر واحد وقف فى صف الوهابيين موقفا مضطربا تبدو موازنة غير سليمة اذ ليس ثمة من تكافؤ فى الاسلوب والعاطفة يجعل الموازنة ذات أثر فى البحث أو أنها من مستلزماته وقد رأيت أيضا أن العاطفة الدينية

(٧٣) راجع القصيدة فى (روض الخل والخليل) ص ١٤٦ و١٤٧ طبعة مصر وعنوان المجد لابن بشر ص ١٠٦ ـ ١٠٨ ج ٢

كانت أشد تأثيرا من غيرها فى الشعر الشيعى الذى صور هجوم سعود على مدينة كربلاء واذا كانت هذه العاطفة تلتقى مع النظرة السياسية ففى حدود اغفال الدولة العثمانية وعدم الاعتماد عليها فى دفع الشر • أما بقية الشعر الذى وقف الى جانب الدولة العثمانية ومجد أعمالهـا فى محاربة الدعوة الوهابية وأنصارها فانه شعر يدخل فى باب المدح أكثر مما يدخل فى باب العقيدة وان كان للعقيدة تأثير فيه كما فى شعر عثمان بن سند الذى استعمل سـلاح الوهابيين فحاربهم بـه ورماهم بالزيغ والضلال ، وكما فى بعض القصائد والمقطوعات الاخرى التى لم تغفل الجانب الدينى فى تبرير مواقف الدولة العثمانية من هذه الدعوة الجديدة •

الفصل الثانى

الشعر بين الحس العربى

والشكوى العـــامة

مر بنا فى أواخر الفصل السابق ما كان عليه العراق من تأخر فى مجال التيارات الحديثة التى ظهرت فى مصر وسوريا ولبنان وقد بينا الاسباب التى حالت بين العراق وبين التطور والاقتبـاس وأدت الى بقائـه فى تلك الدوامة العثمانية المطبقة فلم تسر اليه الاشعة التى امتدت الى البلدان العربية الناهضة ومنها الشعور بالحرية والانتفاض من سمات الجهل والحرمان وكان القصد مما أشرنا اليه أن نستعين على تفسير الشعر الذى يلمس منه استنكار للحكم أو استياء من مظاهره العامة فى العراق وكذلك الشعر الذى قيل فى الحماسة والفخر والاعتزاز بالعرب وأمجادهم القديمة وتأييد ثورات بعضهم هنا وهناك فى تاريخهم الحاضر أو الشعر الذى شكا فيه أصحابه من الفاقة والحرمان ونكد العيش مما له ارتباط بفساد الاحوال السياسية والاجتماعية ، ومما هو بديهى أن الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر كان يستمد مقوماته من التراث القديم ويستوحى فى موضوعاته عصره وبيئته فلم يستطع الخروج عن هذا المحيط ليتلمس طريقه على ضوء المفاهيم الحديثة التى لم تصل الى العراق آنذاك لذلك بقيت الموضوعات والاساليب التقليدية أهم ما يرتبط به الشاعر فلم يكن باستطاعته أن يتناول الاهـداف العامـة التى تناولهـا بعض

الشعراء فى مصر وسوريا ولبنان من المطالبة بحرية العرب واستقلالهم أو استقلال الشعوب التى ينتمون اليهـا على أقل تقـدير بل لم يكن باستطاعة الشعر العراقى أن يدعو الى استقلال العراق وانفصاله عن الخلافة العثمانية التى كانت هى الاخرى موضوعـا بارزا من موضوعات الشعر ، أما الشعر الذى يمكن أن يسمى ظاهرة من ظواهر الاستياء والمناهضة للحكم فانه كان يدور فى أساليب محدودة لا يدل معظمها على سعة أفق وعمق تفكير وان كان بعضهـا قـد ثار وحرض ودعا الى الانتفاض على الظلم وتناول سياسة الترك بما هى عليه من غدر وبطش ولكن هذا ـ كما قلنا ـ كان يدور فى الافق الضيق المحدود ثم يذهب بذهاب فترة الاستحياء ليعقبه شعر ممالىء للدولة وولاتها ان لم يكن من الشاعر نفسه فمن الشعراء الآخرين ولعل من النادر جدا أن نرى شاعرا خلا شعره من الجمع بين الضدين .

ومهما يكن من أمر هذا الشعر فانه يمثل الفكرة القومية فى بداية المرحلة ويستطيع أن يشارك فى بناء النهضة الحديثة للادب العربى الصاعد ، ومهما يكن من أمر هذا الشعر فى ضيق النظرة فانه كان عدسة تلتقط فى معظم الاحـان صورا مختلفة لتلك الظروف والاحوال السـيئة ، وكانت تتوهج خلال ذلك الشعر التقلـيدى المكبل بأغلال المناسبات ومضات تطلق أشعتها فى طريق المواطنين وان كانت ومضات ضعيفة متقطعة تبـدو حينا وتختفى أحيانا كثيرة .

طرق التعبير

لقـد سلك الشعراء فى التعبير عن فسـاد الحـكم واضطراب الحالة السياسية طرقا متعددة لا تقل عنهـا طرق التعبير عن النزعة العربيـة التى ظهرت فى شعرهم فقد كان بعضهم ذاتيا لا يتجاوز حدود الشكوى من الفقر والفاقة والسخط على المجتمع وظلمه وقسوته وعلى الحياة وضيقهـا ، وكان بعضهم يخرج عن ذاتيته فيصرخ بقومه ويحثهم ويناديهم ويندد بالظلم ويتألم ويدفعه ألمه الى اليأس حينا والى الرجاء حينا آخر ، وكان بعضهم فى شعره

القومي قبلي النزعة لا يفاخر الا بنفسه ولا يتحدث الا عن آبائه وأجداده ومثل هذا الشعر لا يختلف في موضوعه عن أي شعر افتخر به القدماء في عصور الحكم العربي غير أن بعضهم كان يصور الاماني التي يفكر بها ويرسم لها طريق الوصول ولكن بحروب خالية فيها كل خصائص الحروب ثم لا يقع شيء من ذلك الا في عالم الشعر وحده • والى جانب ذلك كان نوع من الشعر يعبر عن نزعة خاصة لا تريد الحكم الا لبيت خاص من بيوت العرب وهذا الشعر هو الذي يتغنى به بعض الشعراء العلويين فهم حين يصرخون ويفتخرون وحين تثور حماستهم لا يرون موضوعا لهذا الفخر غير الانتساب للنبي وآله ولا ينتظرون قيام حكم صالح الا على أيديهم[1] في حين أن هؤلاء الشعراء مدحوا السلاطين والولاة في الدولة العثمانية شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الشعراء الذين جمعوا بين الضدين فما تناولوه من موضوعات ، وفما يلي عرض لأهم تلك الطرق والصور التي عبر بها الشعراء عن نزعاتهم العربية أو عن ثوراتهم وسخطهم على السياسة وما فيها من اجحاف وقسوة •

الفخر والحماسة

هذا اللون من الشعر ولد مع الشعر العربي وصوره شائعة في العصر الجاهلي وما بعده وعلاقته بالسياسة ناشئة من ارتباطه بالحياة القبلية أيام كانت القبيلة صورة مصغرة للدولة فالشعر الذي يفاخر بها انما هو تأييد لها ولساستها ومثله الشعر الخاص الذي يعبر عن ذاتية الشاعر ونفسه دون الاشارة الى القبلة أو البت الذي ينتمي اله اذا كان ذلك التعبير يتناول الدوافع والبواعث التي حملته على الفخر والحماسة ومنها الشعور بالذل وعدم الاستقرار ، غير أن هذا الذي قلناه لا ينطبق على القرن التاسع عشر تمام الانطباق فان وجود القبلة العربية في العراق لا يعني أنها مستقلة سياسا وانها تحكم نفسها بنفسها فما يقال فيها من الشعر يعد شعرا سياسيا

(١) سيأتي فصل خاص بالشعر السياسي عند الشيعة

لانه يدافع عنها ويفاخر بها ، أو ما ينظمه بعض الافراد لذاته ونفسه يعد أيضا شعرا سياسيا اذا كان فيه تعبير عن البواعث والدوافع ، ولهذا السبب لا يمكن الحكم على هذا اللون من الشعر بأنه يمثل رأيا سياسيا واضحا وانما تبدو أهميته فى كونه تعبيرا عن نزعة لا تريد الذوبان فى تيار العجمة الحاكمة وفى كونه من عوامل التنبيه الى مواطن العزة والتماسك ازاء ذلك التيار المخيف وان لم يكن ذلك من قصد الشعراء فى بعض الاحيان أو فى كثير من الاحيان لانهم شعراء مقلدون فى موضوعاتهم وشعر الفخر والحماسة قد تكون صلته بالتقليد والمحاكاة أقوى من صلته بالاستقلال النفسى والشعورى فى القرن التاسع عشر ، ومثل هذا الشعر كثير لا يمكن استيعابه ولما كانت صوره متشابهة فان بعضها يكفى للدراسة والحكم ومن صوره قول عبدالباقى العمرى فى تخميسه قصيدة السموأل

لئن نزت أعدادنا فنزارنا حبانا بما تحمى به الجار دارنا
فعز على كل البرايا جوارنا « وما ضرنا انا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل »[٢]

وللاخرس البغدادى صور كثيرة من الفخر الذاتى والحماسة المتدفقة ، وهو ـ وان أكثر من مدح السلاطين والولاة ـ لم يكن يردد فى الغالب فخره وحماسته الا فى الشعر الذى يكون ممدوحه فيه عربيا أو علويا شريفا ومن ذلك قوله من قصيدة فى مدح أبى الثناء الالوسى

اذا رأيت الذل رحلت له أنضاء أسفار وناوحت النوى
ونازعتنى شيمة لا ترتضى الا المعالى غاية ومنتهى
وكم هجرت موطنا من أهله والدار من سكانها قد تجتوى[٣]

وقوله فى قصيدة يمدح بها نقيب بغداد[٤]

ولست مقيما ما أقمت بمنزل وعشي أنكاد تسوء وأنكال

---

(٢) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣
(٣) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٨
(٤) هو السيد على النقيب وقد توفى سنة ١٢٨٦هـ

وتصحبنى فى كل فج عزيمتى   وأبيض هندى واسمر عسال
وما ملكت منى المطامع مقودا   لصاحبها فى موقف الضيم اذلال[٥]

واذا كان عيش الاخرس أنكادا واتكالا فانه لم يكن ذا سيف ورمح ومغامرات وانما هى خطرات تقليدية فيها شىء من التعبير عن واقع حياته المرة .

ويجرد الاخرس من نفسه شخصا آخر فيخاطبه مثيرا مستفزا لحمل السلاح وخوض الحروب فيقول

فاترك الهزل يوم جد بجد   ان هزل المقام بالشهم ذام
واطلب العز بالقنا والمواضى   انما العز ذابل وحسام
فمرام المنى ونيل المعالى   بسوى البيض والقنا لا يرام
واقتحمها اذا نبت بك يوما   فأرى المجد بابه الاقتحام
وادفع الشر ان علمت بشر   ربما يدفع السقام السقام
وتقلد بالرأى قبل المواضى   ليس يجدى بغير رأى صدام[٦]

ان هذه المقطوعة من الشعر التعليمى وفيها حس قومى يؤمن بضرورة العمل والكفاح ، وتثور حماسة الاخرس فى قصيدة اخرى تدل على ما كان يشعر به من ألم شديد فى موطن لا يجدى الاحرار فيه غير حمل السلاح فيقول

ألا ثكلت أم الجبان وليدها   وفازت بما حازته أم المخاطر
أحن الى يوم عبوس عصبصب   تتوق له نفسى حنين الأباعر
الى موقف بين الأسنة والظبى   ومنزلة بين القنا والمشاجر
يكشر فيه الموت عن حدنا به   وتغدو المنايا داميات الأظافر
ترفعت عن قوم اذا ما اختبرتهم   وجدت كباراً فى ثياب الأصاغر
اذا ما رأيت الحى بالذل عيشه   فأولى بذاك الحى أهل المقابر[٧]

---

(٥) الطراز الانفس ص ٣٠١
(٦) الطراز الانفس ص ٣٤٢
(٧) من مجموعة للاخرس لم تنشر · الورقة ١٢ من نسختى الخطية

وهذا شاعر آخر من أسرة عربيـة معروفة فى بغـداد والعراق وهو عبدالحميد بن أحمد الشاوى المتوفى سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٦م فقد ترك لنا هذا الشـاعر من فخره وحماسته مـا يدل على طموح وثورة واندفاع وتصوير لعصره ولبلده الذى صعدت فيه الانذال واللئام واستخذى الاماجد ، ومن ذلك قوله مفاخرا بنفسه وبأسرته

أرقت وهـل يهجـع المقصـد ... وليس لليـل المعنى غـد
وبت أراقب سـير النجـوم ... كأنى بهـا سـاهر أرصـد
بقلب قـريح لـه لوعـة ... تشب ضرامـا فمـا تخمـد

ويقول فيها معبرا عن استنائه من بغداد موطن أسرته

فلولا عـواد عـدت جمـة ... لقلت ـ وان كنت لا أقصـد ـ
سقى الله بغـداد صوب الحيـا ... وطالعهـا الطـالع الأسـعد
وان لـم يكن لى فى شطهـا ... ـ وان لج بى ظمـأ ـ مورد
ولـكن تركت بهـا معشـرا ... لهـم طارف المجد والأتلـد
هم الناس ان عُد أهل العـلا ... وان ذكـر الاصـل والمحتد

ثم يحن الى الكرخ موطن أسرته ويشكو من دهره غير آبه بأحداثه

وفى الـكرخ لى كبـد غودرت ... وقلب أضـع فمـا ينشـد
لقيت من الدهـر مـا بعضـه ... يذوب لـه الحجـر الجلمـد
ولست لاحـداثه ضارعـا ... ولا أنـا مكتئب مكمـد
ولـكننى أنـا جـار على ... مدى همـة شأوهـا أبعـد

* * *

ولست أبـالى اذا الحـادثات ... عظمن الى أيهـا أعمـد
وقومى الألى الصيد سادوا الورى ... وشادوا من المجـد مـا يخلـد
فتعسـا لدهـر أخوه اللئيم ... وأكـثر أعدائـه الأمجـد[٨]

وبرز الحس العربى على لسان هـذا الشاعر فى قصيدة اخرى لعلها

---

(٨) أخذت بعض هذه القصيدة من الاستاذ محمد بهجة الاثرى وبعضها الآخر من مجموعة مخطوطة لآل الشواف

أشد عنفا من القصيدة السابقة وأوضح تصويرا لما كان يشعر به من غبن فى بغداد وما كان يلاقيه من جفوة وعدم تقدير لكفايته وكفاية أسرته فى بلد ساد فيه الاراذل والعبد ـ كما يقول ـ أو كما يشهد واقع الامر فيرسم لنا صورة من صور هذا الانفعال وهو بعيد عن بغداد وكان قد أرسل من لدن الحكومة العثمانية الى نجد لقوم بسفارة خاصة بين الدولة وبين رؤساء نجد ، وقد أرسل القصيدة الى أبيه أحمد الشاوى وفيها يقول

تذكرت بغداد بعد الهدوء ونحن بنجد وقيعاتها
وما ذكر بغداد من حبها ولا من مودة سكانها
ولكن تذكرتها اذ زهت بمطعام حمير مطعانها
بسدها وابن ساداتها ملوك الورى حلى تيجانها
أبى وأبو كل أكرومة توارثها صيد قحطانها

وبعد هذا الفخر بأسرته وبأبيه يستنكر الاقامة فى بغداد التى لم تعترف بالجميل لآل الشاوى حين دافعوا عنها وصدوا الجيوش الايرانية عن العراق فيقول

ففيم الاقامة فى بلدة تناكرنا بعد عرفانها ؟
كأن لم نذد عن حماها الجيوش ناكصة نحو ايرانها
ببيض يعجل تضرابها فراق الرؤوس لأبدانها
وسمر يزرن قلوب العدا خلف مضاعف أبدانها(*)
وخيل اذا أقبلت فى الوغى حسبت تتابع عقبانها
حقنا دما أهلها بالدماء وصنا عقائل نسوانها
ولو لم ندافع لظلت تباع سبايا بأبخس أثمانها

★ ★ ★

وبغداد نلقى بها جفوة وضيما لقلة انسانها
يضام أفاضل أشرافها وتسمو أراذل عدانها
تدنس فيها صدور الندى بعور القرود وعميانها

(*) البدن = الدرع القصيرة أو الدرع عامة

فلا خير يرجى لدى شيبها وقبحا وتعسا لشبانها
تساووا بجمع خصال اللئام تساوى الحمير بأسنانها[٩]

وقد يخيل لبعضهم ان الشاعر كان يهجو أهل بغداد ويشتمهم ولكن الحقيقة التى تكمن خلال القصدة وتسمد عنصرها من واقع الحياة انما هى غير ذلك ، انها اثارة الحس حين يخمد ، والشعور حين ينام ، انهـا نفثة شاعر عربى يريد أن يرى بلاده غير خاضعة لظلم مخيم عليهـا وأن يكون للمدافعين عنها من أبنائها مكان الصدارة بين الناس •

الشكوى من الحياة :

عندما يطفح الالم فى قلب الشاعر ونفسه لا يلبث أن يتحول الى صرخة شاكية وكثيرا ما يكون ألم الشاعر من ضيق الحياة وقسوة الحوادث العامة وهذا ناشىء من اضطراب السياسة وفقدان العدل والامن ، وفى الصور التى سأعرضها ما يمثل هـذا الرأى ويكشف عنه لانهـا لم تكن مقصورة على الشكوى والالم وعلى النظر الى الحياة من زاويتها السوداء التى يراها الشاعر بل سلكت الى جانب ذلك مسلكا مثيرا وشكت من الضيم والذل والهوان وقد كان الاخرس البغدادى أكثر الشعراء تلمسا لهـذه الناحية فقد استغل مدائحه فى (عبدالغنى الجميل) وأمثاله من العراقيين ممن لهـم شأن فى المجتمع للتعبير عن ألمه وشكواه وكانت وثباته خـلال هـذه المدائح شديدة الانفعـال ومن ذلك قولـه فى قصيـدة يمـدح بهـا عبدالغنى الجميـل سـنة ١٢٦٤هـ

أسـفا على أيـام عمر تنقضى كـدرا وتذهب بالمنى تأميـلا
وبنـات أفكار لنـا عربيـة لا يرتضين سوى الكرام بعولا
تأبى المروءة أن أرانى واقفـا فى موقف يدع العزيز ذليـلا
أو أننى أرضى الهوان وأبتغى بالعز ـ لا عاش الذليل ـ بديلا[١٠]

---

(٩) هذه القصيدة نشر كثير منها فى بعض الـكتب الحديثة وقـد أخذتها من بعض المجموعات الخطية

(١٠) راجع (مجمـوعة عبدالغفـار الاخرس) ص ٢٩ ـ ٣١ وفى (الطراز الانفس) ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨

ويقول فى قصيدة اخرى يخاطب بهـا عبدالغنى الجميل وقد نظمهـا سـنة ١٢٦٥هـ

اليك أبا (محمود)[١١] أشكو حوادثا كثير على الحر الكريم أذاهـا
أرى هـذه الدنيا لمن ذل أصبحت ذلولا وان كان الأبى أباهـا
تسنمها من كان من دون خُفّها وكنا نراه تحتهـا فعلاهـا[١٢]

ويمدحه بقصيدة اخرى فى سنة ١٢٦٧هـ فيقول فيها

متى أترك النوق الهجان كأنهـا لهـا ـ كلما ضل الدلل ـ دليل
وأتخذ البيـد القفـار أخلة (اذا ما جفانى صاحب وخليـل)
الى حيث لا يشقى النزيل بجـاره ولا الدهر يعـدو بالأذى ويصول
وأترك دار الهون مأوى لمعشر عزيزهم فى النائـات ذليـل
وما عن قلى أجفو العـراق وأهله ولـكن روضى بالعراق محيـل
ولو كنت ممن يشرب الماء بالقذى رويت وفى رى الذليل غليل[١٣]

ان هذه المقاطع ليست مجرد شكوى من الزمان والحياة وليست مجرد ثورة نفسية ينفرد بهـا الشـاعر لو لم تكن ثمة بواعث مثيرة ولو لم يكن تجاوب بين المادح والممدوح فى اسبطان هذه البواعث والاحساس بها ، بل لو لم يكن هناك ظلم وفساد نظام •

وهذه قصيدة اخرى لعل فيها شيئا من الظرافة ولكنهـا تنطوى على جانب غير يسير من تصوير الحالة السياسية ، وظرافة القصيدة تأتى من أن الشاعر سرقت داره فى ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٦٧هـ فنظم هـذه القصيدة لنخبر عبدالغنى الجميل بما حدث لـه ويصور الدار والسرقة والاولاد الصغار وأمهم فيقول

---

(١١) هـو محمود بن عبدالغنى الجميل وقـد توفى سنة ١٣٢١هـ ١٩٠٣م

(١٢) راجـع (مجموعة عبدالغفـار الاخرس) ص ٣٣ ـ ٣٦ و (الطراز الانفس) ص ٤٣٠ ـ ٤٣٢

(١٣) مجموعة عبدالغفار الاخرس ص ٥٦ ـ ٥٩ ـ والطـراز الانفس ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢

يـــا ليـلة فى آخـر الشــهر قـد جئت بعـد الصوم بالفطر
كشف الصباح لنـــا حوادثها وتكشفت عـن مضمـر الغـدر
أصبحت منهــــا غــير مفتقر أبـدا الى حرس عـلى وكـر

وانما ذكرت هـذه الابيات لتكون دليلا على عدم استقرار الامن فى بغداد وعلى جرأة اللصوص الذين كانت أيديهم تمتد حتى الى بيت الشاعر الاخرس وحتى فى شهر رمضان •

ثم يأتى بعد ذلك تصوير الحالة السياسية فى بغداد فيقول

بعـــد الرجـاء بموطن خشن يُلفى الـكرام بجانب وعـــر
بلـــد كـــــار ملوكه بقـر صـاروا ولاة النهى والأمــــر
لا يفقهون حـديث مكرمــــة فيهزهـــــم نظمـى ولا نثرى
أصبحت أشقى بـين أظهرهـم فكأننـى أصبحت فى أســـر
يرقى الدنى الى مراتبهـــــم حتى يريك النعل فى الصدر(١٤)

وفى الحق انها جرأة من الشاعر أن يشبه حكام بغداد بالبقر وأن يعبر عن المقربين لديهم بأنهم ليسوا الا من الادنياء وان تظاهروا بالنفوذ والقوة • ولكن صرخة الاخرس تشتد فى مكان آخر وفى قصيدة اخرى يخاطب بها عبدالغنى الجميل فيبدو أكثر صراحة وأشـد ألما من الحيـاة ومن الظلام الذى لا يريد أن ينجلى حتى صار العراق موردا عذبا للكلاب وصار الاحرار لا يجدون متسعا فه فيقول

وحسبك مى صبر أروع ماجـد بمسوطن ضاقت بمثلى رحابـه
تذاد عن المـاء النمير أسـوده وقد تلغ العذب الفرات كلابه
ألـم يحزن الآبى رؤوس تطامنت وفاخر رأس القـوم فيـه ذنابـه
وأعظم بهـا دهياء وهى عظيمة اذا ا كتنف الضرغام بالذل غابـه
متى ينجلى هذا الظلام الذى أرى ويكشف عن وجه الصباح نقابـه
وتلمع بعـد اليأس بارقة المنى ويصدق من وعد الرجاء كذابه(١٥)

---

(١٤) مجموعة عبدالغفار الاخرس ص ٥٩ ـ ٦٢ و (الطراز الانفس) ص ١٩٧ ـ ١٩٩

(١٥) المجموعة ص ٨٨ ـ ٩٠ ـ والطراز ص ٥٢ ـ ٥٤

وفى قصيدة اخرى يثور الاخرس حتى كاد صبره أن يتمزق فيقول

أنى تغيرت البــلاد وأهلهــا وأتى عليها الدهر وهو مفرق
هذى هى الدنيا كمـا تريانهـا حرم اللسب بهـا وفاز الأحمق
فصبرت فيهـا والخطوب مُتاحة لا ضاجر منهـا ولا أنا مشفق
حتى رأيت النائبـات تقول لى عجبا لصبرك كيف لا يتمزق[16]

ثم تأتى قصـدة اخرى فى مدح عبدالغنى الجميل ويندس خلالهـا مقطع ثائر فيه شعور بالقوميـة الكريمة المهانة واحساس بهوان تلك القومية لدى الاعجام الحاكمين وسخط على الاقامـة فى موطن الذل والهوان ذلك الموطن الذى تساوى فيه الاشراف والانذال فيقول

أسفى على عمر تقضى شـطره فى خيبة المسـعى الى الآمـال
وبنات أفكــار لنــا عربيــة رخصت لدى الأعجام وهى غوالى
عجبـا لمثلى أن يقيـم بموطن متشــابه الاشــراف بالأنذال
تقـذى نواظره بأوجـه معشـر لا يعثرون بصـالح الأعمـال
ولعت بهـم أيامهـم من دوننـا ما أولع الايـام بالجهـال[17]

ويستغل الاخرس عزل أبى الثناء الالوسى من وظيفة الافتاء فى بغداد وحرمانه الاوقاف التى كان يعيش منها[18] فينظم قصيدة يستعرض بها هذه الحادثة ويجعل لنفسه وتصوير حياته نصا منها فيقول

أمثلى يطوف الارض شرقا ومغربا على أدب يرضى من الكثر بالقـل
وتقذفنى الاسـفار فى كل وجهـة فمن مهمه وعرالى مهمه سهل
وتحرمنى الايـام مـا استحقه فلا كانت الايـام اذ ذاك فى حل
وأرجع أختـار الاقامة خامـلا حليفالجهول الوغد والحاسد النذل

(١٦) المجموعة ص ١١٥ ـ ١١٦ والطراز ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠
(١٧) مجموعة عبدالغفار الاخرس ص ١٠٢ ـ ١٠٧ والطـراز الانفس ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨
(١٨) كان تعيينه مفتيا لبغداد فى سنة ١٢٥٠هـ أيام الوالى على رضا وبسعى من الشاعر عبدالباقى العمرى وكان عزله فى سنة ١٢٦٣هـ ١٨٤٧م أيام الوالى محمـد نجيب راجـع (غرائب الاغتراب) ص ٢٣ ٢٤ (مقامات الالوسى) ص ٥٢

وقد عكفت قوم على كل جاهل كما عكفت أقوام موسى على العجل
فتبا لدهر تستذل قرومه وتستكبر الانذال فيه وتستعلى

★ ★ ★

الام أمنى نفس حر أبية شديد عليها فى الدنا موقف الذل

ثم يخاطب الالوسى قائلا

يحط سواك العزل عن شرف العلا ومثلك لا ينحط ما عاش بالعزل
وكم منصب قد قال يوما لأهله اليك اذا عنى فما أنت من أهلى(١٩)

فالاخرس استاء وتألم لعزل الالوسى وندد بالسياسة التى اندفعت الى مثل هذا العمل مع رجل فى طلعة رجال الدين ومن أعوان السلطان والولاة والمدافعين عن الخلافة فما ألف وكتب ولكن الاخرس لم يكن ثائرا فى كل ما مدح به الالوسى كما كان موقفه فى مدائحه لعبدالغنى الجميل وسر هذا انما يرجع الى شخصية عبدالغنى نفسه والى موقفه من الحكم وصلابته فى ذلك الموقف أكثر من غيره من رجال بغداد حتى ملأ قلب الاخرس(٢٠) فاستجاب له بقصائد كثيرة •

ولم يكن الاخرس وحده الشاعر الثائر على الحياة وعلى فساد نظامها بل كان لشعراء آخرين ما يشبه الصور التى رسمها فى هذه الثورة النفسية وان كانوا أقل منه تصويرا وحسا ومنهم عبدالباقى العمرى الذى نال من المكانة السياسية ما يمكن أن يحسد عليه مثله فى عصر الولاة وغيرهم ولكنه فى بعض لحظاته الذاتية كان يشعر بالالم لقلق مركزه السياسى بين العواصف التى كانت تهدده دائما حتى تعرض لما يتعرض له أى موظف فى الدولة وفى مثل هذه اللحظات استجابت له شاعريته فقال

ما لزمانى دون كل الأزمن أوقعه الله بداء مزمن

---

(١٩) الطراز الانفس ص ٣٠٩ ـ ٣١١

(٢٠) قال الاخرس « ولم أر فى مدينة السلام من العلماء الاعلام والسادات الكرام من يضاهيه فى علو الهمة وبعد المرام ومكارم الاخلاق وشدة البأس والتوغل فى معالى الامور على أنى قد سبرت أغوارهم واقتفيت آثارهم » راجع (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ٢٣

يقصى الأعالى ويقرب الدنى ويعتنى بهم وعنهم يغتنى
فكل طاووس طويس المدنى وكل قرنان أويس القرنى
من زمنى واحربا واحزنى واأسفى والهفى من زمنى[٢١]

وهذا السد راضى القزوينى[٢٢] يعبر عن ألمه من الحياة وفساد الاوضاع فى قصيدة من الشعر المخمس فيقول

أترجو أن تبل صدى رجاء ببحر كالسراب لعين رائى
فوالهفى لآمال ظماء متى تصل العطاش الى ارتواء
اذا استقت البحار من الركايا

تساوى الناس منخفض وعال وذو نقص يعد كذى كمال
فزر يا موت أرباب المعالى اذا استوت الأسافل والأعالى
فقد طابت منادمة المنايا[٢٣]

شعراء علويون

مر بنا فى الصفحات السابقة نماذج من الفخر والاعتداد بالنفس وتصوير الحياة القاسية وفساد الاوضاع العامة فى شعر عبدالغفار الاخرس وراضى القزوينى وهما شاعران علويان فى نسبهما غير أن هذا النسب لم يظهر أثره فيما عرضنا من الصور لهذين الشاعرين كظهوره فى شعر آخرين من شعراء العراق فقد وجدنا شعرا يمثل النزعة العلوية الهاشمية ويفاخر بها كالذى حدث للشريف الرضى وأضرابه من الشعراء العلويين القدماء ، ومما لا شك فيه أن تاريخ العلويين تاريخ مصبوغ بالدماء وقد بدأ هذا التاريخ منذ صدر الاسلام ومنذ أن شعر هؤلاء بأن حقهم مغصوب فحملوا السيف وخاضوا المعارك وقتل منهم عدد غير قليل ، ومنذ أن انتقل الحكم الى بنى

---

(٢١) الترياق الفاروقى ص ٣٩٧
(٢٢) هو ابن الشاعر السيد صالح القزوينى وقد توفى سنة ١٢٨٧هـ فى تبريز
(٢٣) راجع (ديوان السيد صالح القزوينى) الورقة ١٤١ من مخطوطات مكتبة الآثار ببغداد

أمية كانت حياة العلويين عرضة للقتـل والتضييق بسبب ثوراتهم ومناوأتهم للحكم ولم يختلف العصر العباسي عن العصر الاموى بالنسبة لمحاربة العلويين الذين لم يقف دون طموحهم قتـل أو تشريد أو سجن وقد رافقت هـذه الاعمـال الطـامحة من لدن العـلويين خطرات من الشـعر القوى النابض بالحركة والحس ولعـل قصـائد الشريف الرضى خير مثل لتسجيل ذلك الطموح ، أما القرن التاسع عشر فقد استمع الى أناشيد العلويين على ضفاف الفرات والى أمانيهم التى تعبر عنهـا تلك الاناشيد وهى لا تأتى على الاكثر الا فى مراثى الامام الحسين فثاروا ونادوا بحمل السلاح واستنهضوا قومهم لاخذ الثأر من أعدائهم وخصومهم واذا كان الاخذ بثأر الحسين قد انتهى بانتهاء بنى أمية فان من المؤكد أن العلويين كانوا يريدون حكما غير الحكم الذى يتزعمه العثمانيون آنذاك ، وقد سلك الشعراء العلويون فى التعبير عن أمانيهم مسالك شتى فمنهم من اقتصر على الفخر والاعتزاز ومنهم من نادى بحمل السـلاح ومنهم من مجد ثورة بعض الهاشميين العلويين هنا وهناك ، ومنهم من مزج بين السياسة والدين فيما نظم فاستوحى العقيدة الشيعية ودعا الى قيام حكم علوى وثار على أعمال الدولة العثمانية واستنهض الامام المهدى للقضاء على هـذه الدولة ، وسأتى فى فصل خاص أثر العقيدة فى الشعر لذلك لا أرى حاجة لاستعراض هـذا الشعر الـكثير المصبوغ بالدم وانما أكتفى ببعض النماذج التى تمثل خطرات العلويين فى مجال الاعتزاز والفخر وتمجيد بعض الثورات التى حدثت لغير واحد من العلويين فى البلاد العربية .

ولعـل صور الفخر والاعتزاز والحماسـة المتدفقة انما تظهر جليـة واضحة فى شعر السيد حيدر الحلى المتوفى سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٧م ولاسيما فى قصائده التى رثى بها الامام الحسين فقد كان هذا الشاعر فى مراثيه من أدق الشـعراء تعبيرا وأقدرهم على تصوير الالم والحزن واذا كانت هـذه المراثى تتصـل ـ أكثر ما تتصـل ـ بمأساة تاريخية آلمت جميع الطوائف الاسلامية فان صلتها بالعقيدة الدينية أشد من صلتها بالناحية السياسية الا اذا عرضنا الى هـذه المأساة من زاوية التاريخ السـياسى وظهور الاحزاب فى

العصر الاموى ومنها الحزب العلوى المناوىء للسياسة الاموية ومن هذه الزاوية يمكن ربط الاندفاع فى شعر السيد حيدر الحلى الى مخاطبة الهاشميين وحثهم على النهوض بالخيط السياسى الدقيق فى القرن التاسع عشر فهو لا يريد أن يستقر أو يهدأ حتى يرى العلويين قد استعادوا حقهم وأسسوا الحكم الذى يريدون ولو كان بعد هذه المأساة بمئات السنين ولما كان السيد حيدر الحلى قد أسهم اسهاما فعالا فى تكوين الفصل الخاص بالعقيدة الشيعية وأثرها فى الشعر فان مجاله هنا انما يأتى فى الخطرات المعبرة عن نزعته الهاشمية وحماسته واثارته العلويين لكى يحملوا السلاح فى وجه أعدائهم ومثل هذه الخطرات كثير فى شعره ، ومن ذلك قوله فى مقدمة قصيدة يرثى بها الامام الحسين

يا آل فهر أين ذاك الشبا ليست ظباك اليوم تلك الظبى
للضيم أصبحت وشالت ضحى نعامة العز بذاك الأبا

* * *

ما بقيت فيك لمستنهض بقية للسيف تدمى شبا

* * *

حى على الموت بنى غالب ما أطيب الموت بحر الظبى[٢٤]

وقوله متحمسا فى قصيدة اخرى يرثى بها الامام الحسين وهى من أعنف قصائده أداء وتعبيرا

ان لم أقف حيث جيش الموت يزدحم فلا مشت بى فى طرق العلا قدم
عندى من العزم سر لا أبوح به حتى تبوح به الهندية الخذم

* * *

مالى أسالم قوما عندهم ترتى لا سالمتنى يد الايام ان سلموا[٢٥]

ولكن الشاعر مات ولم يحمل سيفا ولم يقف فى معركة ٠

وفى لحظة اخرى من لحظات الانفعال ندد بموقف الاستسلام

---

(٢٤) ديوان السيد حيدر الحلى ص ٩٠ طبعة الهند
(٢٥) المصدر السابق ص ٣٦٦

والركون الى الضيم وحث على حمل السلاح لدفع ذلك الضيم فقال

حلولك فى محل الضيم داما وحد السيف يأبى أن تضاما
وكيف تمس جانبك الليالى بذل أو تحل به اهتضاما
ولم تضرم بحد السيف حربا الى كبد السماء ترى الضراما
أتبذل للخمول جناب حر يحاذر أن يعاب وأن يذاما
وآلك فى الظبى شرعوا المعالى وجيش الموت يزدحم ازدحاما[٢٦]

ومثل هذه المقاطع الحماسية الثائرة ما قاله السيد صالح القزوينى[٢٧] فى قصيدة رثى بها الامام الحسين

فما أنا ان لم أدرك المجد والعلا بجدى وجدى من على وفاطم
من الضيم أن يغضى على الضيم سيد نمته أباة الضيم من آل هاشم[٢٨]

ومثله السيد ابراهيم الطباطبائى فانه يجدد لنا حماسة الشريف الرضى بقوله

الام على الضيم اغضائيه وكم ذا على الهم اغماضيه
وكم ذا أكتم أسراريه أما آن يظهر اعلانيه
فاما أنال المنى بالقنا والا المنية أولى ليه
واما لأقضى العلا حقها والا فيا ليتها القاضيه[٢٩]

أما السيد جعفر الحلى فانه يصدر قصيدة فى رثاء الامام الحسين بمقطع حماسى مندفع الى الحرب وحمل السلاح فيقول

فى طلب العز يهون الفنا ولا يروم العز الا أنا
لابد لى فى العمر من وقفة بين الظبى البيض وسمر القنا
لا عشت ان لم استدر للوغى رحى سوى الهامات لن تطحنا

(٢٦) المصدر السابق ص ٣٦٩
(٢٧) توفى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٤م
(٢٨) راجع (الدرر الغروية) الورقة ٦٠ من مخطوطات مكتبة الآثار ببغداد
(٢٩) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ص ٢٧١ ـ ٢٧٣

وانتضيها في وجوه العدى بارقة اما لهم أو لنا(٣٠)

ان هذه النماذج والالوان التي ذكرتها لهؤلاء الشعراء العلويين ليست الا خطرات عرضت في مجال الرثاء أو لمجرد الحماسة والفخر اذ لم يعرف عن هؤلاء الشعراء أنهم حملوا سلاحا أو استعانوا بعمل حربي ليحققوا آمالهم غير أنهم كانوا بهذه الاناشيد والقصائد من الناقمين المحرضين على الثورات وقد كثر في شعرهم هذا استعمال كلمات الضيم والذل والظبى والرماح وهي من الكلمات المثيرة الدافعة •

ولكن الشعور العلوى لم يقف عند حدود الخيال الاسترجاعي ليتخذ من مأساة الحسين مصدرا للشعر الناقم الثائر بل كان بعض الشعراء قد استوحى الحوادث المعاصرة واتخذ من وثبات بعض الهاشميين مادة للشعر القومي وغنى واستبشر وفرح وهتف للارهاص الجديد بتطلع الهاشميين الى الملك والى مناهضة العثمانيين أو غيرهم ممن يقفون في طريق الحكم العلوى ومن ذلك ما استوحاه السيد جعفر الحلي من ثورة امام اليمن محمد بن يحى المتوفى سنة ١٣٢٢هـ فقد نظم قصدة أرسلها الى الثائر في سنة ١٣١٢هـ وقد جاء فيها قوله

مر وانه واحكم فانت اليوم ممتثل والأمر أمرك لا ما تأمر الدول(٣١)
عنك الملوك انثنوا عجزا وما علموا أأنت زدت علوا أم هم سفلوا
خلاص ذي التاج أن يعطيك طاعته لأمه ـ ان عصاك ـ الويل والهبل

* * *

(٣٠) سحر بابل ص ٤٢٢

(٣١) جاءت هذه القصيدة في ديوان الشاعر موجهة الى العالم الديني المعروف السيد حسن الشيرازي في سامراء وقد غير فيها الشاعر وأضاف وقدمها اليه في السنة التي أرسلها فيها الى امام اليمن وكان ارسالها الى السيد الشيرازي في مناسبة خطيرة وهي منح الحكومة الايرانية امتياز (التنباك) الى شركة أجنبية وكان هذا العمل قد أثار السيد الشيرازي فافتى بتحريم دخان التنباك وأدت فتواه الى فسخ عقد الامتياز ولعل الشاعر أراد أن يتخلص من مسؤلية سياسية ففعل ذلك راجع (سحر بابل) ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩

هـذا سبيل رسول الله أنت به   أعطاكه أولـاء الله والرسـل
الدولة اليـوم فى أبنـاء فاطمة   بشرى فقد رجعت أيامنا الأول
محمد اليوم قـد أحيا بنى حسن   كأنهم قط مـا ماتوا ومـا قتلوا
سيوفكم لـم تزل يا آل فاطمة   منها نجيع الطلا المحمر ينهمل[٣٢]

ومن الواضح أن اسبشار الشاعر بثورة امام اليمن على الترك دليل ايمانه بشـرعية تلك الثورة التى هى جزء من ثورات العرب على الحـكم العثمانى ودليل تطلعه الى قيام حكم علوى يحقق آمال العلويين ورغباتهم •

ويوجه السيد جعفر الحلى نداء الى شريف مكة فيقول له

انشـر لـواك مؤيـدا منصورا   حـا الالـه لواءك المنشـورا
واقصد بخلك يمنـة أو يسرة   الله جـارك لا ترى محـذورا
يا ابن النبى محمد وسميه[٣٣]   طابت حجورك أولا وأخـيرا
أعطاك ربك بسـطة فى دينـه   فانهض وطهـر بيـه تطهـيرا
أوليس سيفك ذو الفقار بـه ظمآ   لا يسـتقى الا الـدم المهدورا
ماذا انتظارك بالألى جحدوا الهدى   لم لا تصيرهـم هبـا منثورا
عدلوا عن النهج القويم وغادروا   قرآن جـدك خلفهـم مهجورا
يا وارث العليـاء عن آبائـه   مـا زال ذكرك بيننا منشـورا
وصـل العراق كتابكم فتهللت   فرحا وأصبح من بهـا مسرورا
فكأنهـا قـل الـكتاب ونشره   كانت ظلامـا فاستحالت نورا
كم سد لك بالعراق يود أن   يلقـاك لو كان اللقـا مقـدورا

---

(٣٢) راجع هذه القصيدة فى (تأريخ اليمن) للواسعى ص ١٣٤ ــ ١٣٥ وجواب امام اليمن عليها بقصيدة من الوزن والقافية ص ١٣٦ ــ ١٣٧ وفيها يقول

انا نهضـنا وللاتراك صلصـلة   وشدة ضاق عنها السهل والجبـل

(٣٣) يظهر من هذا البيت أن هذا الشريف اسمه محمد ولم يعرف من بين الشرفاء المعاصرين للشاعر من اسمه محمد سوى محمد بن عبدالله بن محمد بن عون وقد منح رتبة (الباشوية) سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٣م وفى هذه السنة ثار بعض القبائل فى أطراف مكة فقضى الشـريف عون على ثورتهم راجع (خلاصة الـكلام فى بيان امراء البلد الحرام ص ٣٣١) •

لو لم تقم بحدود مكة حارسا   ما حج شخص بيتها المعمورا[٣٤]

ومن هاتين القصيدتين يظهر أن ثمة صلات بين النجف واليمن وبينها وبين مكة ، وهـذه الصلات تدور فى محيط الهاشميين وتعمل لاقامة ملك فاطمى علوى ولعل كلمة (سيد) فى البيت ما قبل الاخير صريحة فى هذا الاتجاه لانهـا لا تعنى فى ذلك الحين غير العـلوى الهاشمى ، ويتضح من القصيدة الاخيرة أن شريف مكة كان يكاتب بعض العلويين فى النجف ولكن الشك يحوم حول المناسبة التى نظمت فيها هذه القصيدة اذا أهمل ذكرها كما أهمل ذكر مناسبات كثير من القصائد فلا يمكن القطع بأن هذه الدعوة كانت ترمى الى محاربة الاتراك[٣٥] فقد تكون غير هذه وقد تكون فى بعض الحوادث القبلية أو الوهابية ولعل بعض الدراسات فى الآتى تكشف عن المناسبة فتضع القصيـدة فى مكانهـا من التاريخ ومهما يكن من أمر هـذه القصدة والقصيدة التى قبلهـا فانهما لا تخرجان عن كونهما دعوة علويـة هاشمية لاقامة حكم هاشمى ان لم يكن فى الحجاز ففى اليمن وهذا الحكم أينما كان سيجد له استجابة فى نفوس العلويين فى العراق ، غير أن القصيدة الاولى أصرح من الثانية فى هذه الدعوة العلوية .

الثورة الجريئة :

ان النماذج التى مرت كانت فى حدود التعبير الذاتى والتفاخر بالبيوت والأسر أو فى حدود الشكوى العامة من الحياة والاوضاع وليس فيها كثير من الصراحة والجرأة حيـال الحـكم العثمانى فقد كان الشعراء يحومون بأجنحتهم الضعيفة دون الوصول الى هذا الهدف الكبير غير أن بعض الشعراء قد لمس جانب الصراحة والجرأة وكشف عن أمانيه وغاياته وندد بالسياسة الظالمة وصرخ فى وجه الحكم وسار فى طريق الاثارة والبعث واستمد من

---

(٣٤) راجع (سحر بابل) ص ٢١٧ ـ ٢١٨

(٣٥) يرى الدكتور محمد مهدى البصير من مجرد الاستنتاج أنها تدعو الى محاربة الاتراك راجع (نهضة العراق الادبية) ص ١٦٤ ـ ١٦٥

نفسه وحياته قوة الانطلاق ووضع أصابعه على الجراح الدامية وآلمه ما كان يجرى من الظلم والاستهتار ولكن كل ذلك أفرغ فى قالب قديم ليس فيه ما يدل على اتجـاه جديد فى مناوأة السياسة ومن هؤلاء الشعراء عبدالغنى الجميل مفتى بغداد(٣٦) ولعل شيئا هامـا فى تاريخ هـذا المفتى يمكن أن يوضح أسباب ثورته واندفاعه وذلك أنه كان فى الشـام مسافرا عندما قدم الوالى علي رضا وقضى على المماليك فى بغداد وعلى أثر هذا استدعاه من الشام وعينه مفتيا لبغداد سنة ١٢٤٧هـ غير أن التعسف الذى رافق حكم هذا الوالى وتضييقه على الاهلين لجمع اعانات للجيش وتقـديم المال للسلطان واعتداء جنده على سكان بغداد كل ذلك أدى الى غضب عبدالغنى الجميل فنبهه الى خطر ما يعمله الجند ، واشتدت النفرة بين المفتى والوالى وثار أهل بغداد يريدون قتل الوالى فاضطر عبدالغنى الجميل الى ترك بغداد ثم نهبت داره وأحرقت وأتلفت مكتبته ، وبعد أن هدأت الفتنة استدعاه الوالى مرة اخرى وعرض عليه المقاطعات الجسيمة فلم يقبل شيئا منها(٣٧) وبقى غاضبا ثائرا طوال حياته وقد عبر عن غضبه وثورته بقصائد شديدة اللهجة عربية الروح والاندفاع وكان يقف فى وجه السياسة والحـكام دون ما خوف أو وجل ويبعث صيحاته المؤثرة طالبا من كل عربى أن يقف معه ويشاركه فى الدفاع عن الوطن الذليـل ، وهـذه احدى قصـائده الطوال تعبر عن قوة جنانه ودعوته الى النهوض وقد تفاخر بهـا وتحمس وعاب خصومه وذم الجبناء الذين كانت الوظائف الحقيرة تستهويهم فيبذلون فى سبيلها العزة والكرامة ، وأول القصيدة

ألم يأن للاحبـاب أن ينصفوا معنّا   فزاغوا وما زغنا وحالوا وما حلنا

---

(٣٦) هو عبدالغنى بن محمد جميل بن عبدالجليل ولد فى بغـداد سنة ١١٩٤هـ ١٧٨٠م وتوفى فى ذى الحجة سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م وقد سكنت اسرته بغداد فى عهد المماليك قادمة من سوريا

(٣٧) راجع التفصيل فى (مجموعة عبدالغفار الاخرس) ص ١١ و ١٢ وفى (المسك الاذفر) ص ١٢٦ ـ ١٢٨

ومنهـا

بلينا بقوم حافظ الود عنـدهم ... أخو سفه بل عادم الرأى لا يعنى
وانا لنأبى الذل فى موطن الغنى ... ولا يزدهينا مطمع حيثما كنا
ولا نرتضى الا المروءة مذهبـا ... وان لا منا من لا منا عنه أعرضنا
ومـا ساءنا حرب الزمان وبؤسـه ... ولا حادثات الدهر هدت لنا ركنا
وننكر ان شـئنا خـلائق معشـر ... فقل للئام القـوم مـا أنكروا منـا
هم زعموا أنْ كل برق يخيفنا ... فخابوا بمـا قالوا وقلنـا فما خبنـا
وطاشوا ببرق خُلَّبٍ لا أبا لهم ... وصالت علينـا المرهفات وما طشنا

ويتساءل عن هؤلاء بأى الآباء يفتخرون وان تسنموا القمم

فقل لى بماذا يفخرون على الورى ... اذا عددوا الآباء أو ذكروا الابنا ؟
فهبهم على المجد الأثيل تسنموا ... أما يعرفون المجد بالقول لا يبنى ؟
ومـا المجد الا دولة وحفاظهـا ... صليل المواضى البيض والسمر اللدنا

ويفتخر بنفسه فخر الشامخ العامل لا القائل المتوارى

أجامل أقوامـــا حيـــاء وعفـة ... فيزعم قـوم أننا منهـــم خفنـا
واسـكت ابقـــاء لود علمتـه ... وعندى مقـال يقصم الظهر والبطنا
صحائف عندى جمة قـد طويتهـا ... ولو نشرت يوما لعضوا لهـا الذقنا

ثم يصور حالة العراقيين آنذاك فيقول

اجول بطرفى فى العراق فلا أرى ... من الناس الا مظهر البغض والشحنا
فخيرهـــم للاجنبى وقبحهـــم ... على بعضهم بعضا يعدونه حسنا
وشبانهم شـابوا المودة بالجفـا ... وشبنا ومـا للصفو فى كدر شـبنا
حضرنا متى غابوا بموقف حربهم ... وان حضروا فى موقف للخنا غبنا
سمرنا مـع السـمر العوالى لياليا ... وهم سمروا فى ذكر سعدى وفى لبنى
الى الله أشكو من زمان تخاذلوا[٣٨] ... خيار الورى فيه وساؤا بنا ظنا
وبـاع بفلس كل خـــل خليلـه ... وعاد الـكريم الحر يسترفد القنا

---

(٣٨) جرى فيها على لغة (آكلونى البراغيث)

ثم يهدد خصومه فيقول

وعصبة لؤم قد تناجوا لحربنا | فيا ويحهم ماذا يلاقونه منا

وتشتد صرخة الشاعر فيدعو الى الثورة ودفع الظلم

ألا نخوة منهم فيصحوا الى التى[39] | أيادى سبا قد غادرت ذلك المغنى
ألا حازم للرشد شد حزامه | لموزمة ينسى بها الطائر الوكنا
ألا مرشد منهم عن الغى قومه | فيوقفهم منه على السنن الأسنى
ألا غيرة تدعو الصريخ اذا دعا | ليوم عبوس شره يوقظ الوسنى
ألا رافع عن قومه بغى ظالم | اذا فقدوا فى الحرب من ينطح القرنا
ألا مبلغ عنى سراة بنى الوغى | وأقيال عرب كيف صبرهم عنا ؟

ثم يعود مفاخرا حينا وساخطا على بغداد حينا آخر فيقول

ألا لقل لقوم خامر الجهل عقلهم | فحاؤا بما جاؤا وظنوا به حسنا
أنحن بعسا للمقاعد نسوة | بهن لجلب المال يوما توصلنا[40]
أنحن نبذنا العهد خلف ظهورنا | وهل نحن بعد العهد للوعد أخلفنا
سلوا الشام عنا والعراق وعنكم | فانا رضنا بالذى أخبرا عنا
طوينا عن الزوراء لا در درها | بساطا متى ينشر يعدونه طعنا[41]
وانى وان كنت ابنها ورضيعها | فقد أنكرتنا لاسقاها الحيا مزنا[42]

وفى سنة ١٢٦٦هـ ثارت عاطفة عبدالغنى الجمل ثورة عربية صارخة وتفجرت عن قصيدة تتضرم حسرة وألما وتنساب فى خلال صورها الحزينة القاتمة ومضات من الامل والتفاؤل فقال

---

(٣٩) فى الاصل (الذى) وهو غير صحيح
(٤٠) فى (مقامات الآلوسى) ص ٨٦ ـ ٨٨ تفصيل للوسائل الذميمة التى تسلك للحصول على الوظائف
(٤١) رفع جواب (متى) الشرطية على وهن القاعدة
(٤٢) راجع هذه القصيدة فى (مجموعة الاخرس) ص ٢٣ ـ ٢٧ وقد نسبت خطأ الى الوالى داود فى مجلة (الرسالة) العدد ٧٠٦ من سنة ١٩٤٧م لان داود غير معروف فى نظم الشعر ولان البيت ما قبل الاخير صريح فى نسبتها وهو

وانى لعبد للغنى ولا أرى | علىّ لغير الله فضلا ولا منا

علام الاقامة في بلدة نعد بها مثل حمر النعم ؟
ويسأل عن عمره كل من أقام بها من جميع الامم
فهلا رحلنا الى غيرها لنحظى بعز وعيش أتم
فلا بارك الله في بلدة تعد الأسود بها كالغنم
وفي كل يوم ترينا الخطوب وتسطو علينا بعلج أغم
اذا بلدة أنكرت أهلها فدعها فمرجعها للعدم

ولكنه يتفاءل بعد هذا الذم والمقت لبغداد فيقول

فصبرا فان الليالى تحول ويرجع للخيب من قد ظلم
وقد يورق الغصن بعد الذبول وقد يسفر الصبح بعد الظلم
وقد تنجلى ظلم الحادثات اذا ما ظلام الخطوب أدلهم
فلا تحزنن لأمر عرا ولا تأسن لخطب هجم
فقد خصص الله دار السلام بلطف خفى اذ الخطب عم

وبعد هذا التفاؤل والانتظار يستصرخ قومه استصراخ البائس ويأسف أشد الاسف لانه لم يجد في بغداد من يملأ نفسه فيقول

أهم ومالى من مسعد وقومى كسالى ودائى الهرم
فأين سراة بنى هاشم ومن لعظام الأعادى هشم ؟
وأين الكماة الحماة الدعاة اذا شب نار الوغى واضطرم[٤٣]
أنادى وما لى من سامع وهل يسمع القول من في صمم
الى كم نراعي الخسيس الدنيء ونرعى له حرمة كالحرم
فما لى في الكرخ من مسكن ولا في الرصافة مأوى العجم[٤٤]
وكيف وقد سار عنها الكرام وفوض عنها حليف الشيم
وكل رفيع بها ضائع وكل وضيع بها محترم

---

(٤٣) لعلها (جمر الوغى) وان كان حذف التاء مع المؤنث المجازى جائزا ولكن العطف لا يستسيغ هذا الحذف لان الفاعل في الثانى ضمير

(٤٤) كانت الرصافة مقر الوالى وموظفيه والجند وعوائلهم جميعا وكانت لهؤلاء محلة قرب (السراى) سميت باسمه كما كان بعض الجاليات من الامم الاخرى يقيم في الرصافة أيضا

وتضيق بغداد بالشاعر فلا يرى له فيها مكانا يسعه فيفكر فى تركها لانه أحس بالذل وفقد الامل بالانصار والاعوان

أميم دعينى أجوب الفلاة فأنى وعينيك عالى الهمم
أما تعلمين بأنى امرؤ أبى عن الضيم مهما ألم
وكنت أظن بقومى الوفاء فخابت ظنونى وحل الندم
وكم لى على الكرخ من وقفة تسيل دموعى لها كالديم
أسائل أين الرفاق الكرام وأين الأعزة أهل الشيم ؟
فلم أر لى من مجيب بها وأنى تجيب العظام الرمم(٤٥) ؟

وفى قصيدة اخرى يتشوق بها الى الشام نفثات حارة صدرت عن قلب مكلوم قد آذاه ما كان يحدث فى العراق من ظلم وما كان يقابل به هذا الظلم من سكوت وخضوع وقد بدأ القصيدة بمقدمة تقلدية فى الغزل والحنين ثم قال بعد المقدمة

يا ليت شعرى هل لجلق عودة يوما فألثم تربها بجفونى
وأبيت فى وادى السفرجل ليلة حيث النسيم يمر بالنسرين
ماذا أريد من العراق وكرخه بالعين ان شاهدته يقذينى
ومن البلية اننى فى بلدة فيها ارتقى للمجد كل رعين
ويصول فيها كل محلول الوكا لا يرعوى لمؤنب ومشين
ويلاه من فتكات دهر جائر جعل الخيار بكف كل مهين

★ ★ ★

واذا المنازل بالكرام تغيرت فارحل بأنف شامخ العرنين
واختر لنفسك منزلا فيه العلا فالحر لا يرضى بعيش دون(٤٦)

وفى قصيدة اخرى يشتد غضب الجميل وتثور حماسته ويهتف بقومه ويتمنى أن يلتف حوله البهاليل من العرب ليعمل ما يفكر به ، وهو بصيحته

(٤٥) راجع (مجموعة الاخرس) ص ٢٧ ـ ٢٩
(٤٦) نظم هذه القصيدة فى سنة ١٢٦٧هـ راجع (مجموعة الاخرس) ص ٤٢ ـ ٤٣

ودعوته لا يكتم استياءه من بغـداد التى لا تريد أن تنهض وتثب فقد ألفت الذل وتخثر الدم فى عروق أهلها ، ومن هذه القصيدة قوله

وكيف أرى بغداد للحر منزلا ... اذا كان مفرى الأديم نزيلهـا[٤٧]
ويسطو على آسـادها ابن عرسـها ... ويرقى على هام السماك ضئلها
فما منزل فيـه الهوان بمنزل ... وفى الارض للحر الكريم بديلهـا
وأصعب ما ألقى رياسـة ناقص ... مساويه ان عـدت كثير قليلهـا
وما سـاد فى أرض العراقين ماجد ... من الناس الأفدمها ورذيلهـا
فسر عن بلاد طوحت لا ترى بها ... مقـل كريم للعثار مقيلهـا

ثم يجوب الآفاق ويقطع المفارز التى أعيت معالمها الدليل فلم يهتد الى الطريق الا حين يستاف التراب ويشمه ليعرف أين مكانه من الصحراء وهو فى تطوافه هذا انما يفتش عن قوة من العرب تشد أزره وتساعده فى حمل الاعباء التى ينوء بها

عفـا الله عنى كم أجوب مهامهـا ... من الارض يستاف التراب دليلهـا
لعـلى ألاقى عصبـة عبشـمية ... فروع مناجيب كرام أصولهـا
ينمُّ بهم مجـد رفيع ومنطق ... وينبى عن الخيل العتاق صهيلها

ثم يتلهف ويستفهم ــ مستبعدا مستبطئا ــ عن اليـوم الذى يحقق فيه رغبته

متى يلثم اللبات رمحى وترتوى ... سيوف بأعنـاق اللئام صليلهـا ؟
وحولى رجال من معد ويعرب ... مصالث للحرب العوان قبيلهـا
اذا أوقـدوا للحرب نارا تأججت ... مجامرها والبيض تدمى نصولها

---

(٤٧) ارسل هذه القصيدة الى أبى الثناء الالوسى عنـدما كـان فى الاستانة أثناء رحلته التى قام بها فى خلال ١٢٦٧ ــ ١٢٦٩هـ وقد خمسها الاخرس البغدادى وأرسلت الى الآلوسى فى صفر سنة ١٢٦٨هـ مع التخميس الذى بلغ ثمانية وخمسين مخمسا كلها منشورة فى مجموعة الاخرس اما فى ديوانه فلم ينشر منها سوى ثلاثة وثلاثين ويظهر أن الناشر حـذف ما لا يمكن نشره آنذاك اما الآلوسى فقد ذكر منها ثلاثة وأربعين مخمسا فى (غرائب الاغتراب) ص ٢١٨ ــ ٢٢٤ ويلاحظ القارىء بعض الاختلافات فى الاسطر والكلمات وفى التقديم والتأخير

ويشير الى النظرية القائلة بأن العز لا يكون الا عند سكان الخيام أما سكان المدن فانهم قد يميلون الى الخضوع والذل[٤٨] فيقول

وما العز الا في بيوت تلفها ... عذارى وأبكار المطى حمولها
تحف بها من آل وائل غلمة ... لهم صولة فى الحرب عال تليلها

ثم يستصرخ ويتألم

ألا غيرة تقضى المنازل حقها ... وتوقظ وسنان التراب خيولها
عليها رجال من نزار وعامر ... مطاعين فى الهيجا كريم قتيلها

ويفتخر بنفسه

فلم ألو للانذال جيدى ، ومعشرى ... بها ليل مستن المنايا نزولها

ويسوؤه ما فى بغداد من عدم تقدير للاكفاء

وكم باسقات بالرصافة أقعدت ... على عجزها حتى استطال فسيلها
رعى الله نفسى لم ترد مورد القذى ... وتصدى وفى ظل الهجير ظليلها
وما المجد الا دولة ورجالها ... اسود الوغى والسمهرية غيلها
لحا الله دنيا نالها أحقر الورى ... وتاه على القوم الكرام سفيلها
سأحمل أعباء الخطوب وأننى ... لانتظر العقبى وربى كفيلها[٤٩]

ويسجل عبدالغنى الجميل تاريخ بغداد السياسى فى عصره تسجيلا واضحا لا يحتاج الا الى شيء من الصراحة فى ذكر المسميات من الاشخاص الذين يحكمون وذلك فى قصيدة أرسلها الى ابى الثناء الالوسى ايضا عندما كان فى الاستانة ، وقد صور بها الظلم الذى عم الناس والخراب الذى شمل البلاد ومنها

لهفى على بغداد من بلدة ... قد عشعش العز بها ثم طار
كانت عروسا مثل شمس الضحى ... لمستعير حليها لا يعار

★ ★ ★

كانت لآساد الوغى منزلا ... والخائف الجانى بها يستجار

---

(٤٨) راجع (مقدمة ابن خلدون) ص ١٢٥ طبعة المكتبة التجارية
(٤٩) راجع هذه القصيدة مع تخميسها فى (مجموعة الاخرس) ص ٤٥ ـ ٥٥ .

واليـوم لا مـأوى لذى فاقـة ... فيهـا ولا فى أهلهـا مستجار
واليوم قد حلّ بها من ترى ... فانفر والا بيـديك الخيـار
حل بهـا قوم وهم فى عمى ... ما ميزوا أشرارهـا والخيـار
وأصبح القرد بهـا مقتـدى ... يلعب بالألبـاب لعب القمـار
واللث قـد غاب وفى غابـه ... فطبا غـدا الثور عليـه المدار
وللخنا لمـا غـدت مربضـا ... قد سـجد الليث بهـا للحمار
بارت بهـا أسنى تجاراتهـا ... وهـكذا عـادة دار البـوار

★ ★ ★

قـد نعق البوم على جدرهـا ... يصيح بالنـاس البوار البوار
والـكرخ قـد أقفر من أهله ... من بعد ما كانوا كورد البهار
مـا سـميت زوراء الا لمـا ... فيهـا عن الرشد من الازورار
قد حط فيهـا كل طود علا ... ومـا عـلا الا خفيف العيـار
وكل من كان بهـا واثبـا ... الى العـلا عادت خطـاه قصار
قـد خلع النـاس عذار الحيـا ... فجار فيهـا الوغد والحر حار
والـكل فيهـا قادح زنـده ... وأول الأحراق يبـدو الشرار
لا يشـتفى غيظ أخى نخـوة ... الا اذا جـرد بيض الشـفار

ثم يخاطب الالوسى بمثل ما سبق

أيـا شـهاب الدين يـا سـيدى ... قـد هجم النـذل علينـا وغار
بغدادكم أخنى عليهـا الذى ... من أسره لا يسـتطاع الفرار
قـد بليت بالغمـرات التى ... قد علمت مثلك خوض الغمار
يا نازحا عنـا ومـا قـد درى ... من بعده ما قـد جرى فى الديار
برمـة من مسـد رثـة ... بالذل قد قاد الصغار الكبار(٥٠)

ان تاريخ هذه القصيدة ينص على أنهـا أرسلت الى الالوسى فى أثناء رحلته الى الاستانة ورحلته قد بدأت فى جمادى الاولى سنة ١٢٦٧هـ ١٨٥٠م

---

(٥٠) راجـع (مجمـوعة الاخرس) ص ١٢٣ ـ ١٢٤ و (غرائب الاغتراب) ص ٢١١ ـ ٢١٢

وانتهت فى ربيع الاول سنة ١٢٦٩هـ[٥١] المصادف لنهاية ١٨٥٢ وبداية ١٨٥٣م وفى هذه الفترة تعاقب على ولاية بغداد ثلاثة من الولاة كان ثالثهم (محمد نامق) فى سنة ١٢٦٨هـ ١٨٥٢م واذا استعرضنا ما كتبه الالوسى نفسه فى وصف بغداد خلال هذه الفترة وبخاصة زمن ولاية محمد نامق[٥٢] أدركنا فداحة الخطب وتفاقم الظلم فى بغداد ، واذا عرفنا ذلك أكبرنا لعبد الغنى الجميل هذه الثورة العنفة التى تدل على ما للشاعر من حس عربى وشعور وطنى •

ويسمعنا عبدالباقى العمرى صوتا من أصوات التذمر والاستياء مع كونه موظفا كبيرا فى بغداد ولكنه لم يستطع أن يكتم ما يحس به من المضايقات ولم يستطع أن يتجاهل فساد السياسة وحالة العراق آنذاك فقال

قد استحال العراق مفسدة	ليس سوى ضرب السيف يصلحها
وأهله كالاغنام عاث بها	أذؤبة والكلاب تنحها
هذا بساطور الشر يسلخها	وذا بسكين القهر يذبحها
وكم تيوس على العراق نزت	من أين لى ذو القرنين ينطحها
جاشت خلال ديارهم فئة	أحسنها فى الخلال أقبحها
فى كل يوم من شر طائفة	تطوف من حولها يصحها
صدورها كالأعجاز خاوية	على عروش قد ساء مطرحها
أعيانها كالعهون باكية	آماقها للدموع تنزحها
تحير الشاعر الفطين بها	يمدحها تارة ويقدحها
أبواب خير غدت مقفلة	عنها عسى رب الفتح يفتحها[٥٣]

وهذا شاعر آخر من شعراء النجف اسوطن بغداد وجاور مقر الحكم فيها وهو السيد صالح القزوينى المتوفى سنة ١٣٠١هـ ١٨٨٣م ان هذا الشاعر ثار على الترك لانهم غدروا بزعيم خزاعة (مطلق بن كريدى) وكان هذا قد ثار على الحكومة ثم سلم نفسه بعد أن أعطى المواثيق والعهود

(٥١) غرائب الاغتراب ص ٢ و ٤٤١
(٥٢) راجع ص ٦٦
(٥٣) الترياق الفاروقى ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ مطبعة طبعة الحروف بمصر

بألا يمس بسوء ولكن الحكومة سجنته في بغـداد مع أصحابه ثم نفي الى الخارج وقتل في منفاه وكان ذلك في أيام ولاية محمد نامق الثانية (١٢٨٤هـ ١٨٦٧م) وفي أثناء قيام شبلي العريان الدرزي على ادارة لواء الحلة[٥٤] ، وقد أثارت هذه الحادثة بغدرها وبطشها عاطفة السيد القزويني فنظم فيها المقطوعة الآتية

وكم لملوك الترك هتك لحرمة | لاهل النهى والغدر من شيم الترك
وما خلت حتى سرت في الفلك أنني | أرى الفلك الاعلى يسير في الفلك
ولـمـا نظمت الملك بعـد بداده | بحد المواضي نظمك الدر في السلك
سـعوا سـعي موتور بواتره وقد | حذوا حذو همدان يصغين في عك
وانك لم تجنح الى السلم خفيـة | كما جنحوا للسلم خوفا من الفتك
ووافيتهم لـمـا دعوك ومـا وفوا | بعهدك قدمـا والمواثيق في الصك
ولا عجب من غدرهم بعـد أمنهم | وكم مضحك قولا ومن فعله مبكي
يلوح لعيني شمس سعد خزاعـة | بوجهك مثل الشمس لكن بلا دلك
فلا تخش من سـجن فانك مطلق | بعون اله النـاس منهـم بلا شـك
وان العـلا والمجد والحلم والندى | بسجنك قد وافى على جرف الهلك[٥٥]

ولكن السجين لم يطلق وانما غدر به بعد تلك المواثيق[٥٦] .

ويسمعنا أحمد الشاوي المتوفى سنة ١٣١٩هـ صرخة تنبعث من أعماق قلبه في حين أنه كان موظفا في دوائر الدولة ولكن وظيفته هذه لم تحد من شعوره العربي وهو بهذا الشعور وبما يراه من الظلم الذي اشتد في أواخر القرن التاسع عشر والعنجهية المتعصبة التي تحاول أن تجعل العرب تركا قد اندفع الى ما هو أشد وأعنف مما قاله الشعراء فقال

ألا ليت شـعري والأماني ضلـة | وعمر الفتى ــ ان عاش ما عاش ــ للهلك

---

(٥٤) راجع (تأريخ الديوانية قديما وحديثا) ص ٤٩ و٥٠

(٥٥) ديوان السيد صالح القزويني الورقتان ١١١ و١١٢ من مخطوطات مكتبة الآثار ــ بغداد .

(٥٦) من المفارقات المضحكة ان السيد جعفر الخرسان استبشـر بسجن مطلق راجع (شعراء الغري) ص ٢٠ ج ٢

أمخترمي ريب المنون ولم أكن
لأدرك للاسلام ثأرا من الشرك
وأبرد من صهب العثانين غلتي
واشفي واستشفي بسيفي من الترك[٥٧]

ان هذه الابيات الثلاثة تنطوى على رأى فه عنف وشدة وهو اتهام الترك بالمروق عن الاسلام ولعل هذا الشاعر قد قال هذه الابيات فى لحظة حادة أنسته صلته بالدولة ومدحه بعض سلاطينها وولاتها[٥٨] وليس لهذه الشدة من تفسير سوى طموح الشاعر وكونه من أسرة عربية ذات نفوذ وزعامة فى بغداد التى هيمن عليها الترك وأذلوا أهلها أيما اذلال ٠

وبلهجة أخف يندفع السيد راضى القزوينى الى ذم الترك فى (تبريز) ويؤثر النزعة العنصرية على النزعة الدينية وكان اذ ذاك عابر سبيل فيقول متشوقا الى وطنه

أحبتنا بزوراء العراق لقد طال النوى فمتى التلاقى

* * *

وما تبريز للفصحاء مأوى وأين الترك من عرب العراق[٥٩]

ويخمس السيد راضى القزوينى بيتين لعبدالغنى الجميل قالهما فى ذم بغداد وفى وصف الذل الذى لحق الاحرار فيها فيقول

أفى الزوراء ذو الهمم العوالى ينال من العلا أقصى المنال
فيا متكلفا طلب المحال (دع الزوراء ان رمت المعالى
وسر عنها تجد عنها بديلا)
وقم متبدلا رفعا بخفض بحكم المجد من ندب وفرض
ولا (ترضى) ببعض دون بعض (فان الحر لا يرضى بأرض
يرى فيها مهانا أو ذليلا)[٦٠]

---

(٥٧) المدخل ــ لمحمد بهجة الاثرى ص ١٧٢ وورقة بخطه ارسلها الىّ

(٥٨) سيأتى هذا فى بحث الشعر المالىء للدولة

(٥٩) راجع ديوان السيد صالح القزوينى الورقة ١٧٩

(٦٠) المصدر السابق الورقة ١٣٧

وفى أخريات القرن التاسع عشــر قدر لشاعر عراقى أن يخرج من القفص الضيق وأن يزور مصر ثم يسافر الى الاستانة ويطلع على بعض ما فيها من السياسة والاحوال العامة ثم ينتهى به المطاف الى وثبة من وثبات النفس • أما الشاعر فهو جميل صدقى الزهاوى وقـد كان سفره فى سنة **١٣١٢**هـ **١٨٩٦**م وفى ذلك الظرف قربــه الســلطان عبدالحميد وعينه واعظا لليمن فسافر ثم رجع بعد سنة وعندما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية واليونان سنة **١٨٩٧**م نظم الزهاوى قصيدة يمدح بها الســلطان ويؤيد الدولة فى حربها[٦١] هذه غير أنه تأثر ببعض أدباء الاتراك فشعر بالفجوة البعيدة بين الحكم والاصلاح فنظم قصيدة فى حدود سنة **١٨٩٨**م وهو فى الاستانة[٦٢] وكانت أول قصدة ثائرة تحمل عنوانا قبل أن يكون ذلك للشعر العراقى ، أما القصدة فعنوانها (حتام تغفل) وفيها يقول

ألا فانتبه للامر حتــام تغفــل ... أما علمتك الحــال ما كنت تجهل
أغث بلدا منهــا نشأت فقد غدت ... عليهـــا عواد للدمــار تعجــل

ومنهــا

وكم وعدوا أن يصلحوا قبل هذه ... فما بالهــم زادوا فســادا وأوغلوا
لك الله كم ترجوا حياة لدولة ... ترى كل يوم أمرهــا يتعرقل
توالت عليهـــا النائبــات فكلما ... ترحل عنها مشكل حل مشكل

ويصف فيها الظلم الذى تعانيه الاقطار العربية آنذاك فيقول

لهم أثر للجور فى كل بلدة ... يمثل من أفعالهــم مــا يمثــل
اذا نزلوا أرضا تفاقم خطبهـــا ... كأنهم فيهـــا البـــلاء الموكل
فمدت الى سورية يـد عسفهم ... تحملها من ظلمهم ما تحمــل
وبغداد دار العلم قد أصبحت بهم ... يهددها داء من الجهل معضل

---

(٦١) سيأتى ذلك فى مكانه الخاص
(٦٢) هكذا يستنتج من حياته التى كتبها بقلمه وأملاها على الصحف ومن ديوان (الــكلم المنظوم) ص ٦

وسل عنهم القطر اليمانى انه ... يبث بما يجرى عليه وينزل
بلاد بها الاموال من يد أهلها ... تنزع غصبا والنفوس تقتل

ويقول عن السلطان عبدالحميد

وذى سلطة لا يرتضى رأى ناصح ... اذا قال قولا فهو لا يتبدل
أيأمر ظل الله فى أرضه بما ... نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفى مبرأ ... ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل

ويهدده فيقول

تمهل قليلا لا تغظ أمة اذا ... تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك ان طالت فلا تغترر بها ... فان يد الايام منهن أطول[٦٣]

هذه الصور والنماذج التى عرضناها فى هذا الفصل تمثل النزعة الساخطة على الحكم وعلى الأوضاع السياسية وهى فيما صورته من أمور وأوضاع لست على نسق واحد وفى اتجاه معين فقد كان بعضها شاكيا ساخطا على الحياة ونكدها وبعضها كان يمثل جانب الحماسة العربية أو الروح العلوى الناقم وبعضها صريح جرىء يدعو الى الثورة والانتقام .

ولس فى تقسيم هذه الصور والنماذج الى الاقسام التى احتواها هذا الفصل تحديد تام لاغراضها واتجاهاتها فقد يكون فى هذا القسم ما يصلح للقسم الآخر بالنظر لتكرار المعانى وتشابه الصور غير أنى أردت بهذا التقسيم أن أحدد جهد الطاقة ما يمكن أن يصور اتجاها أو يعبر عن غاية وهدف واذا لم يكن هذا التقسيم تاما واضحا فى كل هذه الصور والنماذج فانه فى الكثير منها قد جاء سلىما معبرا عن الاتجاه الذى سيق له والغاية التى ذكر من أجلها .

---

(٦٣) راجع (الكلم المنظوم) ص ٦ ـ ٩

الفصل الثالث

ثورة الشعر

في ظل العقيدة

مر فى بحث الحالة الاجتماعية توضيح للديانات والمذاهب التى تسيطر على سكان العراق وتقسمهم فيما بينها وأهم هذه الديانات الديانة الاسلامية فان أغلبية سكان العراق من أتباعها غير أن هؤلاء الاتبـاع قد انقسموا فيما بينهم الى سنّة وشيعة وكان القصد من هذا الايضاح ـ مضافا الى كونه جزء مهما من وصف الحالة الاجتماعية ـ أن أقدم به دراسة لون من ألوان الشعر السياسى يتصـل بالعقيـدة ويستوحيهـا وهو خاص بشعراء الشيعة ، ومن الواضح أن شيعة العراق امامية اثنا عشرية امامهم الاول علي بن أبى طالب وامامهم الثانى عشر محمد المهدى المنتظر وان اعتقادهم بالخلافة الاسلامية منذ البداية يختلف عن غيرهم فهم يرون أنهـا نص فى الأئمة الاثنى عشر وقد جر هذا الاعتقاد عليهم مصاعب جمة فى مختلف العصور ومنها العصر العثمانى فقد كانت الدولة العثمانية ترى فى هذا الاعتقاد ما يسبب لها المتاعب من عدم الخضوع للسـلطان والولاة ولاسيما أن الشيعة لا يقرون بالامامة الحاضرة لغير المهـدى الذى ينتظرونه لينقذ الناس من هـذه الحكومـات المستبدة الظالمة فهو عندهم امام العصر وولى الامر وصاحب الزمـان لذلك بقيت الدولة العثمانية نافرة من الشيعة وان كانوا معها فى حروبها مع الدول

الاجنبية أو فيما يتصل بخدمة الامة الاسلامية ولكنها ميزتهم عن غيرهم بكثير من المقاومة والمناوأة[1] ودعت الى وقف دعاوتهم ونفوذ رجال الدين منهم وتسرب عقائدهم فى البوادى والارياف السية[2] ، وحث بعض رجال الدين لكتبوا ويؤلفوا ضدهم وكان بعض رجال الدين من الشيعة أيضا يقابلون هؤلاء بالمثل ولم يكن كل ذلك سوى أكوام من الحطب تلقى فى النار المتأججة[3] ، واذا كان احترام آل البيت وتقديسهم لس من مميزات الشعة وحدهم[4] فان الاعتقاد بالخلافة والامامة وما يترتب على هذا الاعتقاد هو السبب المباشر فى جر المتاعب على الشيعة من جانب الدولة العثمانية وان كانوا شركاء فى معظم هذه المتاعب مع غيرهم من بقية السكان الذين لم يكونوا بأحسن حالا منهم الا أن توجيه النقد والتجريح الى عقائدهم كان أشد عليهم من تلك الحوادث الكثيرة التى وقعت فى مواطنهم واستنزفت دماء كثيرة منهم ، وقد فصلت فى بحث الحالة السياسة كثيرا من تلك الحوادث التى كانت تتكرر دائما فتبث الرعب بين السكان وتتمخض عن عدم الاستقرار والامن ، ان هذه العوامل وغيرها وكون العصر عصر توسل وتضرع بالاولياء والصالحين كل ذلك قد ترك لنا شعرا يمثل جانبا من جوانب الثورة على الظلم لعله أعنف الجوانب وأفضلها اثارة للشعر السياسى المناوىء للدولة ، واذا كانت مراثى الامام الحسين فى القرن التاسع عشر تحتوى على كثير من هذا الاتجاه السياسى فان صورا اخرى من شعر العقيدة كانت تشارك فى رسم هذا الاتجاه وقد اسوحى معظم هذه الصور عقيدة الشيعة بالامام المهدى فانه فى اعتقادهم قد غاب خوفا من العباسيين واختفى لبقى حيا يرزق حتى

---

(١) بلغ من مناوأة الدولة العثمانية للشيعة أنها حالت بينهم وبين دخول المجلس النيابى الاول الذى افتتح فى ١٩ مايس من سنة ١٨٧٧م فى حين أن اليهود ــ وهم أقلية ــ مثلهم نائب وهو (مناحيم)

(٢) راجع (الزوراء) العدد ٥٥٦ من السنة السابعة ١٢٩٢هـ

(٣) لا يزال كثير من هذه الكتب مخطوطا فى بغداد وغيرها

(٤) فى ديوان عبدالباقى العمرى وغيره مدائح كثيرة لآل البيت

يأذن الله له بالخروج(٥) فيملأ الارض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا لذلك كان شعراء الشيعة يتخذون من المهدى مثابة لهم كلما حزبت حازبة أو وقعت حادثة أو اشتد ظلم فيفزعون اليه ويتوجهون الى الله ليأذن له بالظهور فينقذ الناس من الظلم ويعيد الدين الاسلامى الى مكانته الاولى من القوة والعمل والتطبيق . ان هذا الاعتقاد قد ظهر أثره واضحا فى كثير من القصائد التى مزجت بين الدين والسياسة وتناولت الحوادث العامة والخاصة وفى معظم هذه القصائد ما يمس الخلافة العثمانية التى وسمها الشعراء ـ بطريق التلميح ـ بالمروق والزيغ ، وما يمس السلطان الذى احتل مكان غيره ، وكانت المناسات التى تحفز الشعراء وتستثيرهم مناسات مختلفة أهمها مقتل الامام الحسين فيقدمون الكثير من قصائد الرثاء بمثل هذه الاتجاهات التى تستوحى العقدة وتستنهض الامام المهدى ، وقد تكون المناسبة احتفالا بمولد المهدى نفسه ، أو استجابة للحوادث والثورات التى كانت تحدث بين حين وآخر فستعمل فيها السلاح من جانب الدولة الى غير ذلك من المناسات الكثيرة التى شغلت العراق فى القرن التاسع عشر

وأخيلة الشعراء وانفعالاتهم فى هذا المجال تختلف قوة وضعفا تبعا للاستعداد الذهنى والفنى وتبعا لطاقة الشاعر وقدرته ولكنهم لا يختلفون فى انتظار المهدى وقيام دولته وعودة الحكم الى آل الست وهم لا يختلفون أيضا فى الاحساس بالظلم الذى عم العراق والفساد الذى شاع وانتشر فى كل مكان من الدنيا وكل هذا لا ينتهى ولا يقضى عله الا بظهور المهدى وقيام دولته .

وقد شاع هذا اللون من الشعر فى القرن التاسع عشر مع ما شاع من

---

(٥) قال أبو الثناء الآلوسى فى (غرائب الاغتراب) ص ١١٣
« وانكار مجيء المهدى أشبه شيء بانكار المتواتر نعم لا بأس بانكار ظهوره على الوجه الذى يزعمه الشيعة » وقال فى (نشوة المدام) ص ٧٨
« ولاخفاء فى ظهوره بعد حين عندى وقد ذهب بعض علماء الشافعية الى كفر من انكر ظهور الامام المنتظر »

مدائح آل البيت ومراثيهم[٦] وتناوله معظم شعراء الشيعة واذا كان من عوامل انتشاره التأثر بمأساة الامام الحسين فانه لا يعدم عاملا هاما آخر وهو اشتداد القسوة والظلم والفرق البارز بين سلوك الحاكم وطبيعة المحكوم الى جانب الاعمال التى يلاحظ فيها مناوأة الشيعة ومضايقتهم فى عيشهم وعقائدهم ·

ولما كان هذا اللون من الشعر متشابها فى الهدف والفكرة فان الاجتزاء ببعضه كفيل بتوضيح الدراسة ، والكشف عن الجانب السياسى المهم فيه ·

قال الحاج هاشم الكعبى[٧] فى مقدمة قصيدة يرثى بها الامام الحسين ويستنهض المهدى للاخذ بثأر الحسين ، والقضاء على الظلم

فيا آخذ الثأر المرجى لأجله
على فترة أفديك من آخذ ثارا

أمنتظرى طال انتظارى لطلعة
ملأت لها عينى قذى والحشا نار

أما آن للسيف الذى أنت ربه
يبيد رقابا فاجرات وفجارا ؟

فقم ـ سيدى ـ فالسيل قد بلغ الزبى
وقد عمت البلوى سهولا وأوعارا

---

(٦) ان مدح آل البيت ورثاءهم كثير فى الشعر القديم وفى شعر الفترة المظلمة ولم يقتصر هذا على العراق وحده أما التبشير بالامام المهدى فقد ورد أيضا فى شعر القدماء ومنهم الشريف الرضى فانه ذكر الائمة الاثنى عشر باسمائهم فى قصيدة طويلة (ص ٣٥) من ديوانه ـ طبعة بيروت · وقبله دعبل الخزاعى فقد قال

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد — تقطع قلبى اثرهم حسرات
خروج امام لا محالة خارج — يقوم على اسم الله والبركات

راجع (روضات الجنات) ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠

(٧) راجع فصل (الشعر والحوادث الوهابية) فى أول قصيدة منه ·

علانـا ـ عـداك ـ العـار والثأر سـيدى
خذ الثأر يا ابن المصطفى واكشف العارا[٨]

امام منتظر ، وشاعر ينتظر بعين قذية وقلب ملتهب نارا ، وبلوى قـد عمت جوانب الارض ، وعار وثار ، !! انها كلمات شديدة توحى بأن حشدها فى هذا المقطع دليل النقمة من جانب ، واشتداد الظلم من جانب آخر .

وتؤثر حادثة كربلاء ايام الوالى محمد نجيب بالشاعر الشيخ صالح الكواز[٩] ، تأثيرا شديدا ، ويستاء لها استياء مرا لانها كانت فى مدينة مقدسة تضم أجداث الشهداء من الحسين وأنصاره ، ولانها وقعت فى عيد الاضحى ، ووجهت فيها المدافع الى السكان[١٠] ، فوصفهـا الكواز وصفا مؤثرا وندد بالسياسة التركية وبالعمل الذى قام به الوالى من غير رحمة ولا شفقة . وقد صبغ الشاعر هـذه الصورة الحزينة بصغة العقيدة فوجه خطابه الى الامام المهدى طالبـا منـه النهوض لتدارك الدين الذى أوشك أن يتلف ، ودفع الظلم الذى حاق بالناس ، واسترداد الخلافة المغصوبة . فقال

وشـعواء فيهـا الدهـر يرعـد خيفة
وينسد منها الافق ، والارض ترجف
تزاحـم برج (الحوت) حتى يعومهـا
وتدنو من (الكف الخضيب) فتغرف[١١]

ثم يخاطب المهدى

أبا القاسـم المهدى لا عز أو ترى لك الكتب تتلى والكتائب تزحف[١٢]

---

(٨) ديوان الـكعبى ص ٧٣

(٩) ولد سنة ١٢٣٣هـ وتوفى سنة ١٢٩٠هـ وكان يتعاطى بيـع الـكيزان والجرار لذلك لقب بالـكواز راجع (البابليات) للشيخ محمدعلى اليعقوبى ص ٨٧ ـ ٨٩ من الجزء الثانى

(١٠) وقعت هذه الحادثة سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٢م وقد مر تفصيلها فى القسم الثانى من الفصل السياسى

(١١) الحوت والـكف الخضيب نجمان معروفان وفى البيت تورية

(١٢) أبو القاسم كنية النبى ص ثم اطلقت على كل من اسمه محمد

فقم طالبا حق الخلافة معلما　　فها هي في أيدي العدى تتلقف
أتصدر ورادا لكم عن ركيّها　　محلأة ، والقوم منهن تنزف
وتوحش هاتيك المنابر منكم　　وتنزو عليهن القرود وتشرف ؟
وهذا لواء المسلمين بزعمهم　　على رأس أشقى العالمين يرفرف

من الواضح في هذه الابيات أن السلطان العثماني أشقى الناس في نظر الشاعر وانه يتقمص وظيفة لست له ، ويرقى منبرا لم يكن لامثاله . ويستمر الشاعر قائلا

دعوتك للتوحيد قد غال أهله　　اناس على الاوثان تحنو وتعكف
دعوتك للقرآن راح ممثلا　　بأيدي أناس غيروه وحرفوا[١٣]
دعوتك للمظلوم ضاعت حقوقه　　ولس له من عصبة الجور منصف
أترضى ـ وأنت المستجار ـ بأننا　　بأيدي العدى من أرضنا نتخطف ؟

ثم يصور هروب السكان من كربلاء موجها خطابه الى المهدي

وأيسر ما يشجيك أن مجاوري　　ضريح أبيك السبط من أرضه نفوا
بعيدون قيد الرمح عنه مسافة　　فكيف بهم والبعد وعر ونفنف
ومن لم تطق حمل الرداء متونه　　فكيف بحمل الراسات يكلف ؟

★ ★ ★

فآه لارض الطف في كل برهة　　يجدد فيها حادث لا يكنف
وان نساء المسلمين ذواعر　　تراع كما ريع القطاحين يغدف
يلاحظها رجس ويقذف عرضها　　غبي بأصناف اللعائن يقذف
لئن ضرب الامثال في فقد يوسف　　وما نال من يعقوب فيه التأسف
فها نحن في جيل به كل والد　　من الناس يعقوب ينائه يوسف

ثم يلمس الشاعر الناحة القومية فيتألم للعرب أشد التألم لان الذي يملك زمام أمرهم لم يكن منهم ، فلابد لهم من حر يغار عليهم

أيملك أمر العرب من لا أبا له　　ولم ينمه منهم نزار وخندف ؟

---

(١٣) يقصد بالتغيير والتحريف　عدم تطبيق نصوص القرآن كما يجب

لئيم فما للصفح عند اقتداره محل ولا للحلم ـ ان هاج ـ موقف
أحب الورى من لس يحنو عليهم لديه ، واعداهم له المتلطف !!
وما لنى الاحرار الا ابن حرة يغار عليهم ـ أن يضاموا ـ ويأنف

ولكن الشاعر لم يكن يائسا بل كان لديه شيء من الامل وان ضاق به الرحب

اقول لنفسي ـ عدما ضاق رحبها وكادت على سل المهالك تشرف :ـ
رويدا كأنى بالأمانى صدقننى بانحاز وعد للهدى ليس يخلف[14]

ويعمد السيد صالح القزويني البغدادى الى نظم ديوان خاص بآل البت ويسميه (الدرر الغروية فى العترة المصطفوية)[15] ، ولا تكاد قصيدة من قصائد هذا الديوان تخلو من استنهاض للامام المهدى ، وتصوير للظلم والجور ، وعدم وجود حكم عادل تطبق فيه الشريعة الاسلامية كما يجب أن تطبق ، وكان الشاعر صريحا فى آرائه ، وهذه احدى قصائده التى يمدح المهدى وينتظره ويعاتبه فيقول

ملك يرغم الملوك وتنقا د أعزاؤها له اذلالا
أصد من بنى النبى ترى فى وجهه نور جده يتلالا
عاقدا راية الهدى ناشرا للأمن واليمن فى الورى سربالا

★ ★ ★

وينادى جبريل فى الافق بشرا كم فقد أظهر الجلل ثمالا
أقبلت دولة الرشاد وعنكم أذنت دولة الفساد زوالا[16]

وصراحة الشاعر واضحة فى وصف الدولة العثمانية بأنها دولة

---

(١٤) أرسل الىّ هذه القصيدة الشيخ محمدعلى اليعقوبى معتمد جمعية الرابطة الادبية فى النجف نقلا عن ديوان الشيخ صالح الكواز المخطوط فى مكتبة اليعقوبى نفسه

(١٥) هذا الديوان مخطوط فى مكتبة الآثار ببغداد برقم ٢٠٩٨ وهو غير ديوانه الكبير المخطوط أيضا

(١٦) من الطريف ان الطحاوى ألف رسالة فى بقاء دولة آل عثمان بعد انقراض دولة صاحب الزمان راجع (نشوة المدام) ص ٧٨

فساد ، ثم يخاطبه قائلا

يا امـــام الهدى أطلت المـــدى فاظهر وفك القيـــود والاغلالا

مـا ترانـــا اليك فى كل يوم نشـــتكى منهم الأذى والنكالا ؟

كم على بعدك احتملنـا رزايـا من أعاديك لا تطاق احتمالا[17]

ويقول فى قصيدة اخرى

يا ابن الهداة متى تجرد للهـدى سيفا تفل بـه الضـلال وتقمع ؟

ومتى نرى أنـوار جـدك أحمد وأبيك حيدر من جبينك تسطع ؟

والعدل يزهو مورقا والدين يز هر مشرقا والدهر غض ممرع[18]

ويقول فى قصيدة اخرى وهو يستقبل الحوادث قبل أن تقع

ملْك يطبق أقطار البـلاد لـه عدل يسيم بـه شاء وسرحانا

مؤيد بجنـود مـا لهـم قبـل بهـا له نزلت مثنى ووحدانـا

تعم دعوتـه الدنيــــا مطبقة جميع أقطارها سهلا وأحزانا[19]

يشفى به الله من أكبادنا قرحا وتنطفى حرق قرحن أجفـــانا

ويستفهم بلهفة

متى ينادى المنادى فى السـماء ألا بشراكم ظهر المهـدى اعلانـــا

قد أظهـر الله سلطانـا لعزتـه تعنو السـلاطين ارغاما واذعانا

ثم يخاطبه ويشكو اليه الجور والظلم

يا غائبـا لم تغب عنـا رعايته ولا يزال بعين اللطف يرعانـا

ألا ترانـا وأعدانـا تعاهدنـــا بالظلم مصبحنا فيـه وممسانا ؟

اليك نشكو ويشكو الدين جورهم فاسمع لنا يا امام العصر شكوانا[20]

ويخاطب المهدى فى قصيدة اخرى فيقول

متى تطلق الأسرى وتستأسر العدا وتطفى لظىالبلوى بفيض المراحم ؟

ويرقد من أشياعكم كـل سـاهر ويســهر من أعدائكم كـل نائم ؟

---

(١٧) الدرر الغروية ـ الورقة ١٥

(١٨) الدرر الغروية ـ الورقتان ٢٤ و٢٥

(١٩) الاشهر جمع (حزن) على حزون

(٢٠) الدرر الغروية ـ الورقة ٥١ ـ ٥٣

أتغضي جفونا عن مواليك والعدا تسومهم جرما بغير جرائم[٢١]

ويشتد في قصدة اخرى فيصف الولاة وأتباعهم بأنهم وحوش مفترسة ، وان الشدائد تقع كل يوم فتشعل القلوب نارا

امام الهدى أدرك بطلعتك الهدى فقد طمست أعلامه والمدارس
نساءُ ولم يشهد لك الطرف مشهدا يسر الى أن تحتوينا المرامس !
قد افترسونا فالعمارس منهم ضوار غواش والضوارى عمارس
نمارس منهم كل يوم شدائدا لها بين أحناء الضلوع مقابس[٢٢]

وبمثل هذه الصرخة يخاطبه أيضا فيقول

طال انتظار الوعد منك لآمل ما آن أن تقضى له الموعودا ؟
أدرك عاد الله منك بطلعة تبرى السقيم وتنعش المجهودا
وتلاف شمل العدل والتوحيد من قوم أبادوا العدل والتوحيدا
تغضى وتنظر فئكم متقسما وعدكم للملحدين عديدا ؟[٢٣]

وأظن ان هذا الشاعر لم يطل فى استنهاض المهدى ويستصرخه ، ويصف الحكم بأسوأ ما يوصف به لو لم يشعر بالجو الذى كان يخنقه بظلمه وطغيانه ، واذا عرفنا أن الشاعر قد عمر فأدرك معظم القرن التاسع عشر أدركنا مبلغ تأثره بالحوادث وشعوره بفداحة الظلم ، بل أدركنا بوضوح مقدار ما وصل اليه الظلم فى القرن التاسع عشر

أما الشيخ حسن قفطان المتوفى سنة ١٢٧٩هـ فانه يستفهم عن اليوم الذى يرى نفسه فيه متهجا بدولة الامام المهدى الذى تعود الدنيا به شابة بعدما شاخت ، فيقول

متى امتطى نهد الجزارة فارها بدولة سلطان الورى مدرك الثار ؟
تعود به الدنيا شبابا نعيمها لها زهو أزهار ويانع أثمار

---

(٢١) المصدر السابق ـ الورقة ٦٥
(٢٢) المصدر نفسه ـ الورقة ٦٩
(٢٣) المصدر السابق الورقة ٧٧

ويملؤها بالعدل من بعد جورها ويكلؤها من موبقـات وأخطار
وتخصب أقطـار البـلاد بنائل لها من نداه لا بوابل أمطـار

وبعد هذا التخيل والتصور المبنى على الروايات والكتب يخاطبه قائلا

أمولاى يا ابن العسـكرى الى متى على الدين من أعداك اسمال أطمار ؟
اعزاء فيـا نرتضيهـم ، واننـا أذلاء فيهم ، تلك قسمة اجبار !!
دعوا حرنا رقّا لهم فمتى نرى عليهم سمات الذل رقا لأحرار !
فأسيافنا صدأى ، وظمأى رماحنـا وأيماننا غرثى الى جزر جزار
سجا ليلنا جورا ولم يعترض به من العدل فجر مستند باسفار[٢٤]

أرقاء وأحرار وليل لا فجر له !! ، ذلك ما يقوله الشاعر عن الحاكمين والمحكومين وعن العصر الذى شاهده وعاش فيه ، ولا شك أنه لم يقل هذا عنا وجزافا لو لم يكن يشعر بهذا كله ، ولو لم يكن يحس بالذل والخضوع لدولة جائرة ظالمة لا ترعى حقوق الناس ، ولا تقيم للدين وزنا فيما تجرى من الاحكام والنظم .

وكان أقدر الشعراء تعبيرا وأشـدهم عاطفة السـيد حيدر الحلى فان انعكاس الحياة فى نفسه انعكاسا داكنا قاتما وجهه توجيها حزينا ظهر أثره فى مراثيه للامام الحسين ، وكان نسبه الى الامام الحسين من عوامل هـذا التوجه أيضا ، غير أن ثورته على الحيـاة لا تخلو من شعوره القوى بالظلم الذى كان يراه فى الحلة وغير الحلة من مدن الفرات ، وما كان يسمع به من ذلك فى جهات العراق عامة ، وقد دعاه كل ذلك الى التقاط صور غير يسيرة من صور الحكم الهزيل فى عرف الدول ، والقاسى الشديد القسوة فى نظر الشـاعر ، وفى ظل العقيدة هـذه كان السيد حيدر يوجه عدسته للالتقاط والتصوير ، فيصف الظلم فى قصـائد كثيرة ويوجه خطابـه الى المهدى فى مقدمات بعض القصائد التى رثى بهـا الامام الحسين وقد يقصر الموضوع على الامـام المهدى وحـده . ومن الاول قوله فى قصيدة يرثى بهـا الحسين

(٢٤) شعراء الغرى ـ ص ١٧ ـ ١٩ ج ٣

الله يا حامي الشريعة أتقر وهي كذا مروعه
بك تستغيث وقلبها لك عن جوى يشكو صدوعه

ويقول فيها

مات التصبر بانتظارك أيها المحيي الشريعه
فانهض فما أبقى التحمل غير أحشاء جزوعه

★ ★ ★

كم ذا القعود ودينكم هدمت قواعده الرفيعه ؟
فيه تحكم من اباح اليوم حرمته المنيعه[٢٥]

ويستنهضه في قصيدة اخرى فيقول[٢٦]

من حامل لولى الله مألكة تطوى على نفثات كلها ضرم
يا ابن الألى يقعدون الموت ان نهضت بهم لدى الروع في وجه الظبي الهمم
الخيل عندك ملتها مرابطها والبيض منها عرا اغمادها السأم
لاتطهر الارض من رجس العدا أبدا ما لم يسل فوقها سيل الدم العرم

★ ★ ★

جرائم آذنتكم ان تعاجلهم بالانتقام فهلا أنت منتقم ؟[٢٧]

وبمثل هذه العاطفة يخاطب المهدى في قصيدة اخرى فيقول

ان ضاع وترك يا ابن حامي الدين لا قال سيفك للمنايا كوني
عجبا لسيفك كيف يألف غمده وشباه كافل وتره المضمون
لله قلبك وهو أغضب للهدى ما كان أصبره لهتك الدين !
فمتى أراك وأنت في أعقابها بالرمح تطعن صلب كل ركين ؟
فتمهد الدنيا بامرة عادل وبنهي علام وقسط أمين[٢٨]

ولا شك ان الحلي حين يستنهض المهدى للاخذ بثأر الحسين يعرف أن قاتليه قد استحالوا ترابا ، ولكنه يعتقد بأن الحكم متشابه وأن الدولة

---

(٢٥) راجع (الدر اليتيم) ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩
(٢٦) مر من هذه القصيدة مقطع في الفصل الثاني
(٢٧) الدر اليتيم ـ ص ٣٦٦ .
(٢٨) الدر اليتيم ـ ص ٣٩٤

القائمة آنذاك لا تحرج عن كونها غاصة لحكم ليس لها • وبمثل هذ التعليل والتوجيه يمكن أن يقال عن كل ما نظم فى رثاء الامام الحسين مصدرا باستنهاض المهدى •

غير أن السيد حدرا لا يكتفى بذلك بل يستوحى الحوادث التى عاصرها وشهدها وينطلق معها فى ثورة نفسية تتخذ من العقيدة مجالا للانتفاض فيصرخ ويحتدم ويشتد غضبه ويحيل الدنيا كلها الى غضب وثورة ، ولكنه لا يعدو الواقع فيما يصور من الظلم والعسف اللذين اشتدا مع السكان ، حتى صاروا كأنهم الانعام بأيدى الجزارين •

وهذه احدى قصائده وقد قصرها على استنهاض الامام المهدى وصور فيها الظلم الذى كان يلاقيه السكان فقال

أقائم بيت الهدى الطاهر	كم الصبر ؟ فُتّ حشا الصابر
يمد يدا تشتكى ضعفها	لطبك فى نبضها الفاتر
يرى منك ناصره غائبا	وشرك العدا حاضر الناصر
نهزك لا مؤثرا للقعود	على وثبة الأسد الخادر
ونوقظ عزمك لا بائتا	بمقلة من ليس بالساهر
ونعلم أنك عما تروم	لم يك باعك بالقاصر
ولم تخش من قاهر حشما	سوى الله فوقك من قاهر
ولابد من أن نرى الظالمين	بسيفك مقطوعة الدابر
بيوم به ليس تبقى ظباك	على دارع الشرك والحاسر
ولو كنت تملك أمر النهوض	أخذت له أهبة الثائر

وهذا البيت الاخير انعكاس للعقيدة التى تنص على أن المهدى لا يخرج حتى يأذن الله له لذلك يعذره الشاعر اذا تأخر ولكنه يرجوه أن يسأل الله تعجيل الظهور لنقذ الناس

وانا ـ وان اضرستنا الخطوب ـ	لنعطيك جهد رضا العاذر
ولكن نرى ليس عند الآله	أكبر من جاهك الوافر
فلو تسأل الله تعجيله	ظهورك فى الزمن الحاضر

لوافتك دعوتــــه فى النهوض   بأســــرع من لمحـة الناظـر
فثقف عـدلك مـن ديننــــا   قنــا أعجمتهــا يــد الآطر
وســكن أمنـك منــا حشــا   غـدت بـين خافقتى طائـــر

ولكنّ الشاعر لم يكتف بالتوسل وحده بل يشتد ويستنهض لقيام ثورة يتزعمها المهدى ويستظل براياتها بنو هاشم ، فيقول

أمــا لقعودك مـن آخـــر   أثرهــا فديتك مـن ثائـــر
وقدهــا تمت ضحى المشرقين   بظلمــة قسطلهــا المائـــر
يردن بمن لا بغير الحمــام   أو دركِ الوتــر بالصـــادر

★ ★ ★

اولئـك آل الوغـى الملبسـون   عدوهــم ذلــة الصــاغر
هـم صفوة المجـد من هاشم   وخالصــة الحسـب الفاخـــر

وأحب أن أسير مع الشاعر فى هذه القصيدة فان فى كل بيت منهـا صورة من صور الامل الذى يتخيله الشـاعر ، وفى كل بيت منهـا حركة تعبيرية صادقة تجسد ما كان يحس به الشاعر من ظلم وجور

ويا ابن الألى ورثـوا كابــرا   حميـد المآثـر عـن كابــر
تدارك بسـيفك وتـر الهـدى   فقـد أمكنتك طـلا الواتـــر
كفى أســفا أن يمر الزمـــان   ولست بنــاه ولا آمـــــر

ثم يســرع النبض عند الشـاعر وتموج الصورة بالحركة القوية ، وتطغى الثورة

علمك امـام الهـدى عزّ مـا   غـدا البر يلقـى من الفاجـر
لك الله حلمك غـر البغـــاة   فأنســـاهم بطشـــة الغـــادر
وطـول انتظـارك فت القلـوب   وأغضى الجفون عـلى عائـــر
فكـم ينحت الهـــم أحشــاءنا   وكم تســتطيل يــد الجائـر
وكم نحن فى لهوات الخطوب   نناديك مـن فمهــا الفاغـــر
أصبرا عـلى مثـل حز المدى   ولفحة جمر الغضا السـاعر ؟

أصبرا وهذى تيوس الضلال قد أمنت شفرة الجازر
أصبرا وسرب العدى راتع يروح ويغدو بلا ذاعر ؟

ويعتقد الشاعر أن ظلم العثمانيين متسلسل من الظلم القديم وأن السيف الذى حارب الشيعة فى العصور السالفة هو السيف نفسه الذى يحمله الاتراك

نرى سيف أو لهم منتضى على هامنا بيد الآخر
به تعرق اللحم منا وفيه تشظى العظام يد الكاسر
وفيه يسوموننا خطة بها ليس يرضى سوى الكافر
فنشكو اليهم ولا يعطفون كشكوى العقيرة للعاقر
وحين التقت حلقات البطان ولم نرى للبغى من زاجر
عججنا اليك من الظالمين عجيج الجمال من الناحر
وبتنا نود الردى كلنا لننقل عنهم الى قابر[٢٩] !!

صيحة مدوية ، وصرخة هادرة وتساوق بين الاسلوب والعاطفة ، ونفثة حارة مضطرمة ، وخاتمة فيها يأس يود الشاعر معه الموت !! ولم هذا كله والعراق قد تساوى سكانه فى كل ما يعمله الاتراك ؟ لا شك ان الحلى كان فى أدق ساعات الانفعال ، وان هذه القصيدة لابد أن تكون فى حادثة قاسية من الحوادث الكثيرة التى تقع بين حين وآخر وقد رآها الشاعر بعينه فهزته هزا عنيفا والتجأ الى العقيدة يستوحيها ، والى الملاذ يستنهضه .

وهذه قصيدة اخرى تمثل ثورة السيد حيدر فى حادثة من الحوادث الهامة التى وقعت على الفرات سنة ١٢٧٤هـ ١٨٥٧م ، وعلى أثر عمل استفز أهل العراق وأزعجهم فثاروا وتمردوا وحاربوا وحوربوا وأوذوا ايذاء شديدا ، وقد كانت هذه الحادثة أيام الوالى (عمر) حين أعلن عزمه على تطبيق نظام التجنيد الالزامى ففعل ذلك بكل عنف وشدة[٣٠] وبطريقة مليئة بالرعب والارهاب زيادة على كره العراقيين للجندية ، ونفورهم منها لاسباب

(٢٩) راجع هذه القصيدة فى (الدر اليتيم) ص ١٨٣ ـ ١٨٦
(٣٠) مر تفصيل هذه الحادثة فى القسم الثانى من الفصل السياسى

واضحة[٣١] . وقد أثارت هذه الحادثة شاعرية السيد حيدر الحلي وكان عمره اذ ذاك ثمانية وعشرين عاما فأعلن ثورته وسخطه ، ولكنه لم يكن صريحا فى مواجهة الحكم ولم يشر الى تلك الحادثة وانما تناول الصورة فى مظهرها العام ورسمها لتنطبق على كل حادثة مماثلة لا يعرف تاريخها ولا مسببها ، وقد لاذ بالعقدة ليستمد منها الشعور ، وبالغ فى الوصف مبالغة شديدة فاعتقد أن الدين تغير وان الضلال قد ملأ الارض ، وأن هذه الشدة لا تضاهيها أية شدة فى العظم والعنف ، ثم استصرخ المهدى ليحمل سيفه لان الشيعة قد أخذوا ، والهدى قد مات !! الى أمثال ذلك فى صور التهويل والمبالغات ، قال

يا غمرة من لنا بمعبرها	موارد الموت دون مصدرها
يطفح موج البلا الخطير بها	فيغرق العقل فى تصورها
وشدة عندها انتهت عظما	شدائد الدهر مع تكثرها
ضاقت ولم يأتها مفرجها	فجاشت النفس فى تحيرها
الآن رجس الضلالة استغرق	الارض فضجت الى مطهرها
وملة الله غيرت فغدت	تصرخ لله من مغيرها

من مخبرى ، والنفوس عاتبة	ماذا يؤدى لسان مخبرها ؟
لم صاحب الأمر عن رعته	أغضى فغصت بجور اكفرها ؟
ما عذره نصب عينه أخذت	شعته وهو بين أظهرها ؟

---

(٣١) كان من كره العراقيين للجندية أن بعض الاسر العربية فى النجف وغيرها أثر الالتحاق بالدولة الايرانية وسجل تابعيته لها وكانت الدولة لا تقبل هذا الادعاء فى كثير من قضايا الجندية لانها على علم بأن هذا العمل انما هو هروب من الجندية وللشيخ حسين الدجيلى المتوفى سنة ١٣٠٥هـ قصيدة تشير الى هذه الناحية وقد نظمها فى مناسبة دعوة شاب للجندية ومنها

فقيل من أنت فارتاعت فرائصه	وقد كسا الخد ثوب الحمرة الخجل
فقال للفرس أنمى فامتوا غضبا	فقال أشهد من شئتم فما قبلوا

راجع هذه القصيدة فى (شعراء الغرى) ص ٢٠٩ ـ ٢١١ ج ٣

والبيت الاخير يوضح جزءا هاما من العقيدة وهو الايمان بكون المهدى يرى هـذه الاعمال بعينه ويطوف بين ظهرانى شيعته • ولكن لـم يهوّل الشاعر ؟ ولم يعتقد أن الشيعة قـد أخذوا لان الوالى جند بعض شبانهم ؟ الجواب يكمن فى الرعب الذى بثه الوالى وفى الارهـاب الذى أشاع بين السكان ، وفى نظرة الشاعر الخاصة وهى أن كل عمل مثير يوجه الى مناطق الشيعة لم يكن الا عملا عدائيا مذهبيا !!

ويستمر الشاعر فى مثل هـذه الصرخة

يا غـيرة الله لا قـــرار على	ركوب فحشائهـــا ومنكرهـــا
ســفك والضـرب ان شيعتكم	قد بلغ السيف حز منحرهـــا
مات الهدى سيدى فقم وأمت	شمس ضحاها بليل عثيرهـــا
واترك منايـا العـدا بأنفسـهم	تكثر فى الروع من تعثرهـــا
لم يشف من هذه الصدور سوى	كسرك صدر القنـا بموغرهـا
وهذه الصحف محو سفك للأ	غمـاد منهـم أمحى لاسطرهـا
فالله يـا ابن النبى فـى فئـة	مـا ذخرت غيركـم لمحشرهـا
مـاذا لاعدائهـــا تقـول اذا	لم تنجها اليوم من مدمرهـا ؟
أشـقة البعـد دونك اعترضت	ام حجت منك عين مصرها ؟
فهـاك قلّب قلوبنـا ترهـا	تفطرت فيك من تنظرهـا !!
كم ســهرت أعين وليس سوى	انتظارهـا غوثكـم بمسهرهـا
تغضى وأنت الأب الرحيم لهـا	ما هكذا الظن يا ابن أطهرهـا !!
ان لم تغثها لجُرم أكبرهـا	فارحم لها ضعف جرم أصغرها[٣٢]
كيف رقـاب من الجحيم بكـم	حررهـا الله فى تبصرهـا
ترضى بأن تسترقهـا عصبـ	لم تله عن نايهـا ومزهرهـا

وبعد أن يستنكر الشاعر هذا الاسترقاق والخضوع لاقوام مشغولين باللهو يتمنى الموت لانه أفضل من الحياة

---

(٣٢) فى البيت جناس بين (جرم) بمعنى الذنب وبين (جرم) بالـكسر بمعنى الجسم

أبعد بهــا خطة تراد بهــا لأقرب الله دار مؤثرهـــا
الموت خير من الحيـاة بهــا لو تملك النفس من تخيرهـا

ثم يهدد أعداءه بغضب الله ، وان هذا الغضب اذا لم ينزل لان دعوة الناس قد حجبت لسوء أفعالهم فان دعوة الامهات اللائى أخذ أولادهن منهن سكون السبب فى غضب الله

ما غــر أعــداءنا بربهــم وهــو ملّى بقصم أظهرهــا
مهـــلا فلله فــى بريتـــه عوائد جـل قـدر أيسرهــا
فدعوة النــاس ان تكن حجبت لانهـــا ســاء فعـل أكثرهـا
فرب حـــرّى حشـــا لواحدها شكت الى الله فى تضورهــا
توشك أنفاسـها وقـد صعدت أن تحرق القوم فى تسعرهـا[٣٣]

واذ أترك هذا الشاعر أود أن أشير الى أن قصائده هذه لا تمثل الا اهتزاز النفس واضطراب الاعصاب وعدم الوقوف امام الحوادث بثبات وقوة ، وان كانت هذه الحوادث فى حد ذاتها مثيرة مزعجة ، ولكن الاتكال على العقيدة وانتظار الفرج دون عمل وتنظيم كل ذلك جعل الســكان عرضة للاذلال والاستهتار بحقوقهم ، ولو كان ثمة وعى منظم لوجه السكان توجيها موحدا ولكانت قوة القــائل الموزعة بين الثورات الارتجالية قوة واحدة لا يستطيع أى وال أن ينال منها أو يزعزعها .

ويستفهم السيد ابراهيم الطباطبائى عن اليوم الذى تشرق فيه الدنيا بظهور المهدى فيطوى الغى وينشر الرشد بين الناس

متى تشرق الدنيــا بيوم محمد تنادى بــه الأملاك قد ظهر المهدى ؟
ويطوى لواء الغى من بعد نشــره وتنشر فى الآفاق ألوية الرشد[٣٤]

---

(٣٣) راجع هذه القصيدة فى (الدر اليتيم) ص ١٨١ ــ ١٨٣ وراجع للـكشف عن مناسبتها (جنة المأوى) للشيخ حسين النورى ص ٢٩٠ من بحار الانوار المجلد الثالث عشر و (البابليات) لليعقوبى ص ١٥٤ ج ٢

(٣٤) ديوان الطباطبائى ص ٩٧

والبيت الثالث يحتاج الى ايضاح لان الشمس لا تطلع من الغرب وان ذكرت بعض الروايات ان من علامات الساعة طلوع الشمس من الغرب ، ولكن الذى يريده الشاعر أن المهدى يظهر فى مكة المكرمة لاول لحظة من ظهوره ، ومكة تقع فى الغرب من العراق •

أما السيد جعفر الحلى المتوفى سنة ١٣١٥هـ فانه يستنهض صاحب الزمان باسلوب رقيق ليرد الحق الى أهله فالحكم عارية عند غير آل البيت ولابد أن يرد هذا المعار ، ولكنه لا ينسى أن يبين الاسباب التى دفعته الى هذا الاستنهاض فيقول

يا قمر التم الام السرار	ذاب محبوك من الانتظار
لنا قلوب لك مشتاقة	كالنبت اذ يشتاق صوب القطار
دجا ظلام الغى فلتجله	يا مرشد الناس بذات الفقار
يستنصر الدين ولا ناصر	وليس الا بكم الانتصار
متى نرى بيضك مشحوذة	كالماء صاف لونها وهى نار ؟
متى نرى خيلك موسومة	بالنصر تعدو فتثير الغبار ؟
متى نرى الأعلام منشورة	على كماة لم تسعها القفار

ثم يشير الى الزعامة الدينية وأنها لآل البيت فيقول

رياسة الدين لنا فصلت	ابرادها والناس عنها قصار
أن يلبسوها اليوم عارية	ففى غد سوف يرد المعار[٣٥]

ولكن شاعرا كان من رجال الدين البارزين فى الحلة ومن المقربين لدى الولاة والدولة العثمانية لا يكتم استياءه وتذمره من السياسة والظلم الذى استباح الوطن ، والجور الذى عم البلاد فيجنح الى العقيدة متخفيا وراءها ويوجه نداءه الى الامام المهدى • أما الشاعر فهو السيد محمد القزوينى المتوفى سنة ١٣٣٥هـ[٣٦] • وقد شارك غيره من الشعراء فى

---

(٣٥) سحر بابل ــ ص ٢١٣ ــ ٢١٤

(٣٦) راجع (البابليات) ص ٢٧ من الجزء الثالث ــ القسم الثانى

تصوير الظلم وكان موفقا فى رسم الصورة غير قليل الحظ من صدق العاطفة والحس ومن الموسيقى المنسجمة المطاوعة ، قال

أحلما وكادت تموت السنن   لطول انتظارك يا ابن الحسن
وأوشك دين أبيك النبى   يمحى ويرجع دين الوثن !
وهذى رعاياك تشكو اليك   ما نالها من عظيم المحن

لا شك أن السلطان العثمانى يغضب لو سمع مثل هذا القول وان الناس ــ أو المسلمين ــ ليسوا رعايا الا لصاحب الزمان • وعلى لسان هؤلاء الرعايا يستمر الشاعر ويخاطب المهدى

تناديك معلنة بالنحيب   اليك ومبدية للشجن
وتذرى لما نالها أدمعا   جرين فلم تحكهن المزن
ولم ترم طرفك فى رأفة   اليها ولم تصغ منك الأذن
لقد غر امهالك المستطيل   عداك فباتوا على مطمأن
فطبق ظلمهم الخافقين   وعم على سهلها والحزن
ولم يغتدوا منك فى رهبة   كأنك يا ابن الهدى لم تكن
فمذ عمنا الجور واستحكموا   بأموالنا واستباحوا الوطن
شخصنا اليك بأبصارنا   شخوص الغريق لمر السفن[٣٧]

وتلتقى العقيدة بالسياسة فى مكان آخر دون أن يكون استنهاض للامام المهدى أو التجاء اليه ، بل تأتى الصورة مقصورة على وصف الحادثة وأثرها فى نفوس الناس وكونها موجهة الى ايذاء العقيدة أو مكان من أمكنتها المقدسة • وقد اجتمعت فى حادثة واحدة خطوط متعاكسة متضاربة
من أمكنتها المقدسة • وقد اجتمعت فى حادثة واحدة خطوط متعاكسة متضاربة
ليست الا لونا من ألوان المفارقات فى الشعر ، وتضارب وجهات النظر بسبب العقائد

---

(٣٧) شعراء الحلة ــ ص ٢٧٥ و٢٧٦ الجزء الخامس

والمذاهب فان حادثة كربلاء أيام الوالى محمد نجيب[٣٨] قد دفعت بعض الشعراء فى بغداد الى تأييدها وامتداح الوالى فيها[٣٩] بينما أثرت فى شعراء الحلة وغيرهم تأثيرا سيئا[٤٠] وآلمتهم ايلاما شديدا ومن هؤلاء السيد مهدى ابن السيد داود الحلى المتوفى سنة **١٢٨٩**هـ **١٨٧٣**م فانه رد على أحد الشعراء المؤيدين للوالى بمقطوعة تضمنت بعض الاشطر من أبيات ذلك الشاعر[٤١] عاكسا المعنى الاصلى ومنددا بعمل الوالى ومن هذه المقطوعة قوله

(أحسين دنس دار مرقدك الألى)	كفروا فحاشا منه يدنس مرقد
بعصابة الشيطان لم تدنس ولو	قد حل منهم فى ثراها الملحد
من حقده جلب الجنود لها كما	جاءت اليك جنودها تتجند
دارت على أشياعكم فيها كما	دارت عليك غداة قل المسعد
قتلت بمرقدك الشريف أماجدا	لاذوابه وبجنبه قد ألحدوا
رقدوا به ولكونهم والوكم	(سموا الروافض وهو نعم المرقد)
كم من دم سفكوا وكم من حرمة	هتكوا وكم لأماجد قد بددوا[٤٢]

أما الشيخ سالم الطريحى المتوفى سنة **١٢٩٣**هـ **١٨٧٦**م فانه يقدم قصيدة فى رثاء الامام الحسين بأبيات لا تخفى ألم الشاعر من جنف الحكم فيقول

الام الثوى وعلينا العدى	تجور ولم نستطع ردها ؟

---

(٣٨) مر ذكر هذه الحادثة فى الفصل السياسى

(٣٩) ممن مدحوا الوالى فى هذه الحادثة الاخرس البغدادى وسيأتى ذكر ذلك

(٤٠) راجع قصيدة الكواز فى بداية هذا الفصل

(٤١) نظم هذا الشاعر المجهول أبياتا جاء فيها

أحسين دنس دار مرقدك الالى	سموا الرواقض وهو نعم المرقد
كم من وزير لم ينل تطهيرها	منهم فطهرها النجيب محمد

(البابليات) ص ٧٦ ج ٢

(٤٢) راجع المصدر السابق ص ٦٧ ـ ٧٧

تحملنا ما لو أن الجبال تحمل عشيره هدها
تباغت علينا وقد أدركت على رغم أنافنا قصدها[٤٣]

وفي سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩٠م كان سكان النجف يحتفلون ـ كعادتهم ـ بيوم مقتل الامام الحسين فلم يكن من حاكم المدينة الا أن أمر بقتل بعض الاشخاص فقتلوا في الصحن الشريف وقد اهتزت النجف وأعلنت سخطها واتصلت بالاستانة فأرسلت الدولة من يحقق في شأن هذه الحادثة التي أغضبت رجال الدين وغيرهم ومنهم الشاعر السيد ابراهيم الطباطبائي الذي استجاب لعواطف الناس فنظم مقطوعة يسجل فيها هذه الحادثة ولكنه خلط فيها بين مدح الوالي ـ وكان اذ ذاك سري الكريدي ـ وبين العقيدة الثائرة لانتهاك شهر المحرم على يد حاكم النجف ، ولكن شيئا جديدا في هذه القصيدة لم يشر اليه الشعراء ولم يتناولوه بشعرهم وهو وصف الرشوة التي كانت منتشرة بين الموظفين ، فان الطباطبائي قد كان بارعا حين لم يفته ذكرها ، وهذه أبيات من القصيدة تشرح ما ذكرناه

والي الولاة اليك مظلمتي أشكو بعين الواحد الأحد
لرواقك الشاكون قد عمدوا ورواق عدلك مشرع العمد
بلد به يرشى علانية والمرتشي هو حاكم البلد
كيد ولا فرعون كاد به موسى بنفث السحر في العقد

* * *

لله شهر محرم فلقد فيه استحلوا حرمة الصمد
واست بعاشر يومه نفر شهداء يوم الطف أو أحد
فلقد أباح به حرام دم هدرا بلا عقل ولا قود[٤٤]

هذا ما استطعت أن أضعه من الشعر في مجال السياسة الثائرة في

(٤٣) شعراء الغري ـ ص ١١٩ ج ٤
(٤٤) راجع ديوان الطباطبائي ـ ص ١٠١

ظل العقيدة[٤٥] ، وهو جزء من كل ولكنه جزء هـام فيه تصوير للعقيدة حين لا يرضيهـا الحكم القائم فتمد شعراءها بالفكرة والعاطفة وتثيرهم على الظلم والطغيان ، وتوجههم حيث تريد من التوجيه ، وهذا الشعر فى كل ما مر من صوره ليس مجرد تفكير دينى أو سبح فى الاخيلة ، وهيام وراء الآمال البعيدة ، بل هو مظهر من مظاهر التعبير عن الظلم وعدم الاستقرار .

---

(٤٥) مر فى فصـل (الشعر والحوادث الوهابية) نماذج للـكعبى والازرى من هذا اللون

الفصل الرابع

الشعر فى ركاب الدولة

قبل البدء :

فى كل من عصور الادب مفارقات وخطوط يقاطع بعضها بعضا ويصطدم بعضها ببعض وقد تحدث هذه المفارقات لشاعر واحد كما تحدث لشعراء متعددين يختلف بعضهم عن بعض فى الاتجاه والغاية ، وليس من تعليل لذلك غير قسوة الحياة وتفاوت النفسيات قوة وضعفا وغير الحاجة التى ترسم للشاعر طريقته فى تناول الاغراض الشعرية وكونه يعيش فى بيئة ليس لشعرائها الا هذا المسلك الذى وجهوا اليه .

ولقد كان شعراء القرن التاسع عشر فى العراق ـ ومعظمهم ممن ذكروا فى معرض الحماسة والقومية والثورة فى ظل العقيدة ـ قد سلكوا فى شعرهم مسلك أى شاعر لا يرى بأسا من جعل الشعر وسيلة للتقرب والزلفى عند السلاطين والولاة أو أى موظف من موظفى الدولة .

وقد يخيل لمن يكتفى بتصوير الحالة السياسية والاجتماعية فى العراق ـ كما سبق فى مكانه الخاص ـ أن الشعراء لابد أن يكونوا فى صفوف الناقمين من المواطنين ولكن الحقيقة غير ذلك فقد سار الشعراء فى خطوط ملتوية تتناسب مع عصرهم وبيئتهم وحياتهم ولا يغطى على هذا السير كونهم قد ثاروا فى بعض المناسبات وأظهروا استياءهم فى بعض اللحظات التى

لا يفسر معظمها بغير تأثير العقيدة أو ضيق منابع العيش أو الاقصاء عن وظيفة قد يكون الشاعر راضيا بها وان كانت تافهة بالنسبة لغيره من موظفى الاتراك أو مقربيهم مع أن الموظفين من الشعراء كانوا قلة لا شأن لهم فى الحساب •

ومن ثم لابد لنا أن نستعين بما مر فى الفصل السياسى من عرض لأهم الحروب والحوادث التى رافقت تاريخ الدولة عامة والعراق خاصة خلال القرن التاسع عشر ، وما مر من ذكر لاعمال السلاطين والولاة فى بناء مسجد أو تكية أو شق نهر لا يكاد يمر عليه عام حتى يندثر ، أو غير ذلك من الاعمال التى يراد بها التمويه على السكان واجتذاب عواطفهم ونفوسهم •

ان تلك الاعمال والحروب والحوادث كانت ميدانا فسيحا يتسابق فيه الشعراء أصيلهم وهجينهم ، قويهم وضعيفهم ، فهم مع الدولة فى حروبها الخارجية باسم الاسلام ، والداخلية باسم المصلحة ، ومع السلطان فى جلوسه وملاده وفيما يعمل من ترميم مسجد أو انشاء تكية ، أو ارسال كسوة الى ضريح أو مرقد ، وهم مع الولاة فى حروبهم مع القبائل ، أو مع جيران العراق ، وفى أعمالهم الصغيرة من تعمير مسجد أو شق نهر صغير ، أو حفر بئر يشرب منها العابرون ، وفى كل عيد وختان ، بل فى كل مناسبة وغير مناسة ، وفى استقبال من يأتى وتوديع من يذهب •

وقد يكون من الهين على تاريخ الادب أن يسجل كل هذه الالوان من الشعر دون أن يضيق بها ، وأن يضمها الى أمثالها مما أنتجته العصور القديمة ، وقد يكون من الهين علينا الى حد ما أن نقبل ما قيل فى مدح السلاطين وفى حروبهم مع الدول الاوروبية أو غيرها ممن يتمردون من الاتباع والمحكومين فى ولايات البلقان والمناطق الاوروبية ، وقد يكون من الهين أيضا أن نقل ما مدح به الولاة فى اصلاح مسجد أو شق نهر أو ختان أو عد •

ولكن الذى يجعل شعراء العراق عرضة للوم والتقريع ، والنقد الشديد اسرافهم فى مدح الولاة خلال الثورات القبلة والانتفاضات الداخلية

التى لا تفسر الا بأنها رد فعل لفساد الحكم وسوء النظام ، فقد كان الشعراء حيال هـذه الحوادث والثورات متبرعين فى شتم القبـائل والثائرين منهـا خاصـة ، وكانوا لا يكتمون استبشارهم عندمـا يقمع الوالى أيـة ثورة أو حادثة ، ولا يبخلون بتمجيد انتصاره على اخوانهم من المواطنين كأن الثورة لم تكن على وال تركى ظالم ، أو دولة لا تربطها بالعراق رابطة جنس أو لغة !! وكأن الثائرين لم يكونوا طلاب حق أو متذمرين من ظلم واضطهاد !! وقد يكون من الثورات والحوادث ما لا صلة له بالسياسة ، وانما للشغب والفوضى حسب ، ولـكن أكثر الثورات كان نتيجة لغطرسة الولاة وسوء أعمالهم ، وحتى فى هـــذه الحـالة كان شـعراء العراق ينتظرون النتيجة ويسعدون لاستقبال الوالى عندما يعود منتصرا ظافرا تاركا وراءه الاشـلاء والدماء وخراب البيوت !!

ولس من تفسير لهذا السلوك المضطرب من الشعراء الا أنهم يعيشون دائما فى ضيق من الحاة وفى حاجة الى هبات الوالى وعطاياه ، وأن أكثرهم أو بعضهم كان فى جوار الوالى أو مستخدما لديه فى وظيفة من الوظائف الصغيرة .

وأكثر هـــذا الشـعر لا يخرج عن الملق والطمع ، وعن التقليـــد والمحاكاة ، ولا يعبر عن عاطفة صادقة يتجاوب معها المواطنون .

ولما كان هذا الشعر من أكثر الموضوعات[1] التى تناولها الشعراء فان اسـتقصاءه كله ليس من وظيفة هـــذا البحث بل من وظيفة تاريخ الادب وحده ، لذلك ساكتفى منه بالقدر المناسب لتوضيح مسلك الشعراء ، أو بتعبير أدق لتوضيح هذا اللون من الشعر فى ظل الساسة والاحداث ، وسأكتفى من هذا اللون أيضا بما يتصل بالسلاطين وكبار رجال الدولة والولاة .

---

(١)اذا استثنينا موضوع الرثاء فى آل البيت

في موكب السلاطين :

ان الشعر في موكب السلاطين لا يخرج عن كونه شعرا تقليديا تمليه العاطفة الاسلامية وخاصة في حروب الدولة مع الدول الاوروبية •

وقد تساوى في هذا اللون شعراء السنّة والشيعة ، فقد كان هؤلاء - ولاسيما الفريق الثاني منهم - ينسون الجراح والآلام حين تعلن الدولة حربا على خصم من خصومها ، أو حين يعلن أحد الخصوم حربا على الدولة ، وكانوا بدافع من الشعور الاسلامي لا يدخرون وسعا في الاشادة بالدولة والسلطان وجنده ، ولا يكتمون فرحهم واستبشارهم بالنصر والظفر ، أما السلطان فهو أمير المؤمنين وامام المسلمين وحامي حوزة الدين من أعدائه الكفار ، وخصومه المعاندين المارقين ، وجيوشه المظفرة المنصورة انما تحارب لاعلاء كلمة المسلمين والمحافظة على الثغور الاسلامية من الاعداء •

فاذا لم تكن حروب ولا حوادث تدفع الى نظم الشعر فان مدح السلطان لابد منه في عيد جلوسه أو ميلاده ، أو حين يبعث كسوة الى مكة أو المدينة أو الى مرقد أحد الائمة والاولياء في العراق ، وعندما يأمر بترميم مسجد أو تكية ، أو شق نهر أو غير ذلك •

وأود في هذه الدراسة أن أسير مع السلاطين الممدوحين وأسجل ما قيل من الشعر في كل واحد منهم وان جاء متأخرا عن المناسبة ، أو نظم بعد حدوثها بسنين غير قليلة •

محمود الثاني

كان لهذا السلطان شأن في السياسة العثمانية وقد وقعت في أيامه حوادث وحروب غير قليلة مر ذكر الكثير منها في الفصل السياسي وكان لحوادثه وحروبه أثر في الشعر العراقي كما كان لاعماله الاخرى بل كان مدحه يأتي لمجرد المدح ومن ذلك ما قاله عثمان بن سند حين ذكر تولية هذا السلطان سنة **١٢٢٣هـ ١٨٠٨م** فقد نظم على لسانه قائلا

وما أنا الا من أناس وليدهم ... لبعث السرايا والجيوش المرشح

ولا عيب فيهم غير أنهـم الألى اذا ملكوا أمر البرية أصلحوا
سلاطين من تقوى أساطين للهدى رهابين مهما عسعس الليل سبحوا[٢]

وقال فى مدحه أيضا

سـلطان عصر لـم يزل يجرى عـلى سنن الاول
متبتـــلا متخشـــــعا متدرعـــا درع الوجـــل
ســل عنــه دمعــا سافحا والليل مســدول الكلل[٣]

وفى الحق أن محمود الثانى لم يكن كما وصفه الشاعر هذا الوصف المبالغ فيـه[٤] .

أما حرب (المورة) سنة ١٨٢٦م ـ وكانت بين الدولة واليونان[٥] ـ فانها أثارت عاطفة هذا الشاعر فقال فيها من قصيدة

لله من هــزوا القنـــا فتهصرا وسقوا سيوفهم النجيع الاحمرا[٦]
ســلوا السيوف لنصر دين محمد ولــكسر من نصروا سفاهاً قيصرا
قافين (محمود) النقيبة مـا غـزا الا بصلمه الفوارس فطـــرا
من آل عثمان الـكرام ومن هـم نصروا الهـدى بسيوفهم فتأزرا

ثم يختمها بقوله مخاطبا السلطان

مد النصارى من سفاهة رأيهـم ومحا فاض بما نضوت مكسرا
وتوهموا أن الغطمطم مانـــع آساد جنـدك أن تعوم وتعبرا
فتحصنوا فى (مورة) فغزوتهـــم بأسود حرب لا تهـاب الأبحرا
ففللت جمعهـــم وأبت بسبيهم وغمزت ذابل عودهـم فتكسرا[٧]

---

(٢) مطالع السعود ـ الورقة ٩٥
(٣) المصدر السابق ـ الورقة ٩٧
(٤) راجع ص ٢٣
(٥) راجع ص ٢٨
(٦) مر قسم من هـذه القصيدة فى الفصل الاول من هـذا الباب ص ١٣٤
(٧) مطالع السعود ـ الورقتان ١٥١ ـ ١٥٢

ولكن الشاعر فاتته الحقيقة لان الدولة لم تنتصر فى هذه المعركة ولم يكتب لها الظفر .

وقد بالغ عبدالباقى العمرى فى مدح السلطان محمود ، ففى سنة ١٢٥٤هـ بعث هذا السلطان بكسوة الى مكة والمدينة وأهدى قطعا ثلاثا من النسيج الى أضرحة الأئمة فى العراق وبهذه المناسبة نظم العمرى قصيدة جاء فيها

ويا لأمير المؤمنين مسرة
بها من أبى الزهراء قد أحرز الفخرا
بخدمة بيت الله قد أحرز المنى
وخدمة قبر المصطفى فاز بالبشرى
حمت بيضة الاسلام أحضان رفعة
فلم تخش ـ ما دامت بأحضانه ـ كسرا[8]

عبدالمجيد الاول :

وفى أيام هذا السلطان جلت جيوش محمد على والى مصر عن سوريا[9] ووقعت حرب (القرم) بين الدولة وروسيا[10] ومدت أسلاك البرق الى بغداد ، وقد كان لهذه الحوادث وغيرها تأثير فى شعراء العراق فقد نظم السيد عبدالجليل الطباطبائى قصيدة بمناسبة جلاء الجيوش المصرية عن سوريا سنة ١٢٥٦هـ ١٨٤٠م ورأى فى هذا الجلاء مناسبة جميلة لمدح السلطان عبدالمجيد الذى أشاع الفرح فى قلب كل موحد بانتصاره على محمد على وقد جاء فى هذه القصيدة الركيكة قوله

بشرى بعز قد أضاء مخلد ... شملت به الافراح كل موحد
سلطاننا عبدالمجيد ومن له الـ ... ـبأس الشديد وكل مجد أتلد

---

(٨) الترياق الفاروقى ـ ص ١٩٢ ـ ١٩٤
(٩) راجع ص ٢٩
(١٠) راجع ص ٢٧

ويشير الى وقوف الدول الاوروبية بجانب هذا السلطان لرد محمد على

ولحربه قاد القياصرة الألى ألفوا الوغى بغرار كل مهند
أجرى اليه السفن كالاعلام قد قدت له متن الخضم المزبد[11]

ومما يدل على أن الشاعر كان يمدح قصدا للمنفعة الفردية ما جاء له فى ختام هذه القصيدة من التماس يطلب فيه من السلطان أن يعفى أملاكه فى البصرة من الضرائب فيقول باسلوب ركيك قريب من الشعر الملحون

جد لى وأطلق أسر نخلى من أذى (الـ ميرى) معافى لم يزل كمؤبد

وفى حرب القرم سنة **١٢٧١هـ ١٨٥٥م** وقف عبدالباقى العمرى يشيد بالدول التى ناصرت الدولة العثمانية ضد روسيا ولكنه لم يذكر السلطان عبدالمجيد وقد كانت هذه الحرب فى أيامه ، ومما جاء له بهذه المناسبة قوله

أقول للدول المنصور عسكرها لا زال عسكرها بالله منصورا
لما اتفقتم على صدق المحبة فى ما بينكم واتحدتم صرتم سورا
بسطوة (دعت) الاطواد راجفة دمرتم محصنات الروس تدميرا

* * *

مدافع غطت الدنيا غمائمها فغادرت صبح يوم الحرب ديجورا

وينهى هذه القصيدة ببيت يؤرخ به هذه الحادثة وفتح حصن « سواستيبول فيقول

سواستبول التى أعيت معاقلها سخرتم حصنها أرخت « تسخيرا

ويؤرخ هذه الحادثة بأبيات ثلاثة اخرى فيقول

يا ملك المسقو سقاك الردى كأسا لها فى كل عضو دبيب
وحزت كسرا ما له جابر وفزت من خزى باوفى نصيب
جاهك قد أسقط[12] اذ أرخوا نصر من الله وفتح قريب[13]

---

(١١) راجع القصيدة فى (روض الخل والخليل) ص ١٣٥ ـ ١٤٠ طبعة مصر

(١٢) فى التأريخ تعمية لطيفة وهى اسقاط كلمة (جاهك) من التأريخ اى اسقاط حساب حروفها من الشطر الثانى

(١٣) الترياق الفاروقى ، ص ـ ٣٨٥ ـ ٣٨٦

وفي سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م صدر أمر السلطان عبدالمجيد بمد خط « التلغراف » الى بغداد فنظم عبدالباقي ارجوزة ضمنها أشطرا من ألفية ابن مالك وقد وصف بها هذا المخترع الجديد وأثنى على السلطان وقد جاء في هذه الارجوزة قوله

نظمتها في نعت من أمدنا	بما به كل بعيد قد دنا
من مدد مسلسل الامداد	يلوح مرفوعا على أعواد
تهتف فوقها هواتف الثنا	على أمير المؤمنين علنا
من بعض تسهيلاته الجزئيه	وهي لعمر جده كليه
صدور أمره الشريف العالي	للخطة الزورا بلا امهال
في مد خط (ألتلغراف) المستوى	على قواعد باحكام قوى

ثم يستمر في وصف الاسلاك بأبيات غير قليلة(١٤) ٠

ولعبدالباقي العمري قصيدة اخرى في مدح هذا السلطان وهي في عيد جلوسه وليس فيها غير المبالغات والبديعيات المتكلفة(١٥) ٠ ولابي الثناء الألوسي أبيات قليلة في مدح هذا السلطان ومنها قوله في الاستانة

فيها لقد حلّ المليك المجتبى	عبدالمجيد أجل أملاك الورى(١٦)

عبدالعزيز

وللسلطان عبدالعزيز نصيب غير قليل من الشعر العراقي ففي أيامه جاء الوالي مدحة الى بغداد وانشأ بعض المرافق وفي أيامه قضى على السعوديين في الاحساء(١٧) ، وممن مدحه من الشعراء عبدالغفار الاخرس

---

(١٤) راجع المصدر السابق ـ ص :ـ ٣٥٢ ـ ٣٥٦

(١٥) راجع الترياق الفاروقي ـ ص ٣٥٧

(١٦) لقد أخذ الآلوسي أبياتا من قصيدة [illegible] الشاعر الدمشقي وأضاف اليها أبياتا من عنده ولم يشر الى ذلك [illegible] غرائب الاغتراب ص ١١٦ ـ ١١٧ وديوان ابن عنين ص ٣ ـ ٨ بعد المقدمة ٠ طبع دمشق سنة ١٩٤٦م

(١٧) مر في فصل الشعر والحوادث الوهابية » شعر غير قليل في مدح عبدالعزيز

فانه لم يكتف بجعله خليفة بل فضله على جميع الملوك بأسا وكرما وجعل منه حاكما عادلا فى النهار وحبرا متبتلا فى الليل ، ومن ذلك قصيدة نظمها أيام الوالى محمد نامق وقد جاء فيها قوله

خليفة الله فى الاقطار محترم ان العزيز عزيز حيثما كانا
فلا كنامق وال للعراق ولا كمثل عبدالعزيز اليوم سلطانا
فلو وزنت ملوك الارض قاطبة لزادهم فى الندى والبأس رجحانا

* * *

يقضى النهار بأحكام يدبرها رأيا ويتلو بجنح الليل قرآنا !!

* * *

فأجمعت أمم الافرنج واتفقت على محبته شيبا وشبانا[18]

ان من المؤكد أن الاخرس ـ كغيره من بقية الشعراء ـ كان مخدوعا لا يعرف شيئا عن هذا السلطان ولم تصله أنباء فسقه واسرافه وما كان عليه من أعمال استحق أن يسمى بسببها السلطان المتهتك[19] .

ولقد بالغ أيضا فى مدح هذا السلطان شاعر بغدادى آخر هو السيد راضى القزوينى فقد شبه جلوسه على السرير بظهور النبى (ص) فى حين أن هذا الشاعر من الذين لا يؤمنون بالخلافة العثمانية ومن ذلك قوله

زهت الملوك وأزهرت تيجانها مذ قر فى تخت العلا سلطانها
وتهللت غرر الممالك بهجة بمليكها وتأودت عيدانها
فكأنما هى جنة وكأنما عبدالعزيز بملكها رضوانها
وكأن يوم جلوسه بسريره يوم النبوة قد بدا برهانها
سجدت له أملاكها لما استوى وسما بعرش سريره خاقانها

ثم يخاطب الممدوح نفسه

مشكاة نور العدل أنت سراجها وقناة دين الله أنت سنانها

(١٨) الطراز الانفس ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥
(١٩) سلاطين بنى عثمان الخمسة للدكتورة مارى ملز باتريك ص ٣٤ من الترجمة العربية

بك ملة الاسلام راق نظامها   وزها بعدلك عصرها وزمانها[٢٠]

وفى سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م أمر هذا السلطان بفتح باب جديدة لمرقد الامام علي فى النجف فنظم الشيخ عباس بن الشيخ حسن آل كاشف الغطاء أبياتا بهذه المناسبة كتبت على الباب ومنها

عبدالعزيز أعز الله جانبه   والدين حُصِّن فيه أيَّ تحصين
والى الرقاب امام الخلق كلهم   خليفة الله فى فرض ومسنون
رأى على البعد ضيق الداخلين الى   مثوى الامام ابى الغر الميامين
فجاد فى فتح باب أورثت سعة   لزائرى قبر باب العلم والدين
فقف خاضعا واسمع مؤرخها   جلت علت باب سلطان السلاطين[٢١]

ويلاحظ من هذه المقطوعة أن فتح باب للمرقد العلوى كاف لان يجعل من عبدالعزيز اماما للخلق كلهم !! وليس بغريب أن يصدر هذا من شاعر بعيد عن عاصمة السلطنة لا يعرف ما يجرى فيها وفى قصور السلاطين منها ولا يدرى أن الناس كانوا يودون سقوط هذا السلطان وخلعه[٢٢] . ولعبدالباقى العمرى أبيات يؤرخ فيها جلوس هذا السلطان سنة ١٢٧٧هـ[٢٣] .

عبدالحميد الثانى

لقد كان نصيب السلطان عبدالحميد الثانى من الشعر العراقى أوفر من غيره مع أن الفترة التى حكم فيها سماها المؤرخون فترة الاستبداد ، غير أن هذا الاستبداد لم يعرف عنه شعراء العراق ما كان يعرفه سواهم من الاتراك أو أنهم لم يدركوا المفهوم الذى أدركه سواهم من المطلعين على التيارات السياسية فقد كان للجامعة الاسلامية التى احتضنها هذا السلطان لتوطيد مركزه أثر كبير عند رجال الدين والشعراء فى العراق اذ

---

(٢٠) ديوان السيد صالح القزوينى الورقة ١٧٧
(٢١) ماضى النجف وحاضرها ص ٤٧ ج ١
(٢٢) راجع (مذكرات مدحة) ص ١٣ و١٤
(٢٣) راجع الترياق الفاروقى ص ٤٣٦

كان دعاة هذه الجامعة ومؤيدوها لا يألون جهدا فى ترسيخها فى نفوس العراقيين ، وكانت تبدو الى جانب هذا بعض الاعمال التى يعدها العراقيون من الحسنات وهى فى الواقع أعمال يمكن أن يقوم بها أى موظف يحسن تصريف الامور ولكن كل شيء من هذه الاعمال كان يعزى الى السلطان والى رغبته ، واذا كان لهذا السلطان شأن كبير فى نفوس الشعراء يوم صار سلطانا نافذ الكلمة فان هذا الشأن قد بدأ يوم مولده سنة **١٢٥٨هـ ١٨٤٣م** وقد ظهر أثر ذلك على لسان الشاعر عبدالغفار الاخرس فانه نظم قصيدة يهنىء بها السلطان عبدالمجيد ويصف الفرح الذى عم الناس بيوم مولد ابنه عبدالحميد ومنها قوله

ولد قد أشرق الكون به من علا سلطاننا عبدالمجيد

* * *

فزهت بغداد حتى أنها قابلت أيام هرون الرشيد

* * *

واذا الكون أضا أرخته فضياء الكون من عبدالحميد[٢٤]

وحين صار سلطانا أراد أن يبرهن على احترامه رجال الدين وطلبة المدارس الدينية ليجعل من هؤلاء رصيدا يعتمد عليه فأمر بأن لا يشملهم نظام التجنيد الالزامى ، وقد سجل حسن البزاز الموصلى هذه المناسبة بأبيات ركيكة جاء فيها قوله

العلم أشرف ما يسمو به السامى لذاك أترعت من صهبائه جامى
والله شرف أهليه فميزهم سلطاننا عز سلطانا لنا حامى
كهف الخليقة ظل الله من ملئت منه البسطة فى عدل وانعام

* * *

وقسم الأمر فينا بين منتظر حربا وداع له تقسيم علام
وقد عفا عن أهيل العلم حين رأى لابد من علماء فيه أعلام

---

(٢٤) راجع الطراز الانفس ص ٩٥ و٩٦

لا يستطيعون حربا غير أنهم   الى المحاريب فيه كل مقدام[٢٥]

وفى الحق أن طلب العلم لا يمنع من التدريب على أعمال الجندية الى حد كبير ولكن الجندية فى العصر العثمانى كانت أشد على رعايا الدولة من وباء الطاعون وقد مرت الاشارة الى موقف العراقيين منها فى أكثر من مكان واحد •

وفى سنة **١٣٠٥هـ ١٨٨٧م** تعرضت مدينة النجف ـ كعادتها ـ للعطش بسبب ارتفاعها وعدم وصول الماء اليها فأمر السلطان عبدالحميد بشق نهر صغير من الفرات يصل الى غربى المدينة حيث تنخفض الارض هناك الى مستوى نهر الفرات وقد استبشر سكان النجف حين وصل الماء اليهم وأقاموا مهرجانا بهذه المناسبة ألقيت فيه الخطب والقصائد التى أطنبت فى مدح السلطان والوالى (مصطفى عاصم) وحاكم النجف وقد سمى هذا النهر (نهر الحميدية) باسم السلطان كما سمى أيضا (نهر عبدالغنى) باسم حاكم النجف • أما الشعراء الذين نظموا بهذه المناسبة فمنهم الشيخ طاهر الدجيلى وقد جاء فى قصيدته قوله

حى الملوك وقل لها بشرى   أجرى الحمد لحيدر نهرا

ومنها فى مدح الوالى وحاكم النجف

كالعاصم الحامى له خضعت   أهل العراق فلم يحق مكرا
وكذلكم عبدالغنى فكم   قد شد فى طلب العلا أزرا[٢٦]

وكان المبدع بهذه المناسبة السيد جعفر الحلى فقد قال يمدح عبدالحميد

دول الممالك طأطأت لك هامها   قدها فقد ألقت اليك زمامها
نظرت مداك فقصرت من خطوها   ورأت لواك فنكست أعلامها
فاهنأ رئيس المسلمين برتبة   شرف الملوك اذا مشوا خدامها

ويمدح الوالى عاصما خلال القصيدة ثم يعود الى مدح السلطان

(٢٥) ديوان البزاز الموصلى ص ٩٠ ـ ٩١ طبع مصر
(٢٦) راجع (مباحث عراقية) ص ٦٦ ج ٢ •

وصف حالة مدينة النجف وما كانت تعانيه من العطش فيقول

واسمع رئيس المسلمين رسالة　　بضاعة عزت على من سامها
فندى يمينك قد سقى أهل الحمى[٢٧]　　عذبا يبل من الصدور أوامها
كان الغرى وأهله فى حالة　　تشكو عن الماء القراح صيامها
وعلى البعاد أغثتهم وأتيتهم　　بالماء يعلو سهلها وأكامها[٢٨]

وقد اهمل هذا الجدول الصغير بعد مدة قليلة فترسبت فيه الرمال وانقطع الماء عن النجف سنة ١٣٠٨هـ فأمر السلطان عبدالحميد بحفر نهر آخر يحاذى الاول وسمى « نهر الحميدية » و « نهر الحيدرية » وقد روعى في الاول اسم السلطان ، وفى الثانى اسم (حيدر) وهو من أسماء الامام علي ، فكان لهذا النهر من الفرح ما كان للاول ، وقد أقيم له احتفال حكومى فى النجف وألقيت القصائد المناسبة ، ومنها قصيدة للسيد جعفر الحلى وقد جاء فيها

جرى ماؤنا من لطف سلطاننا عذبا　　فلذ لنا طعما ولذ لنا شربا
حبانا امام العصر من صدقاته　　مراحم فيها ازداد من ربه قربا
امام الورى عبدالحميد الذى جرت　　أياديه حتى عمت الشرق والغربا !!

ثم يمدح الوالى فيها فيقول

وقد علمت بغداد أن وزيرها　　غدا لأمام العصر أسرع من لبى[٢٩]

ويختم القصيدة ببيت يؤرخ فيه هذه المناسبة فيقول

لقد صدقت أبياتها وهى عذبة
اذا الناس فى تاريخها شربوا العذبا[٣٠]

ويصادف هذا التاريخ سنة ١٣١١هـ .

---

(٢٧) الحمى من أسماء النجف
(٢٨) سحر بابل ــ ص ٣٧٨ ــ ٣٨٠
(٢٩) راجع ــ البابليات ــ ص ٢٥ ج ٣ القسم الثانى للشيخ محمدعلى اليعقوبى .
(٣٠) سحر بابل ص ٧٩

وللسيد جعفر الحلي مقطوعة اخرى بهـذه المناسبة أيضا[٣١] • ومن الشعراء الذين نظموا فيهـا السيد محمد القزويني فقد أرسل الى السلطان أبياتا بطريق البرق يشكره فيها على هـذه المبرة ومنها

شكرا امـام المسـلمين على صنائعك السـنيه
أجريت نهرا في الغرى به مننت على الرعيه[٣٢]

وفي حرب الدولة العثمانية مع اليونان سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٧م[٣٣] نظم شعراء العراق قصائد انتصروا فيها للدولة ووقفوا الى جانبهـا ومنهم السيد جعفر الحلي فقد قال يمدح السلطان عبدالحميد ويصف هذه الحرب

لك طأطأت دول الضلال رقابها — قدها فسيفك قـد أذل صعابها

ومنهـا

أرسلت من جند الآله عساكرا — يستعذبون من المنيـة صابهـا

أما أعداء الدولة فانهم خافوا

وتحصنوا في قلعة قد أحكمت — أسـاً وأعلاهـا يفوق سحابهـا
وتخيلوا فيهـا النجاة وما دروا — أن المنيـة أنشبت أنيابهـا
حتى اذا فتح المظفر (أدهم)[٣٤] — ورأت جيوش الشرك ما قد نابهـا
حلف النصارى بالمسيح وأقسمت — تلك البطارق أن تغير دابهـا[٣٥]

والقصيدة كلها من هذا النسق الذي لا يعدو هـذه الفكرة وهي أن النصارى ثاروا على المسلمين فحاربهم السلطان •

وكان لابد أن يعلن في الاقطار التابعة للدولة العثمانية ان السلطان قد انتصر لئلا تسيء الرعية ظنها بالدولة ، وباعتقاد الانتصار نظم الشيخ يعقوب

---

(٣١) راجع المصدر السابق ص ٢٣١
(٣٢) راجع (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر) ص ٢٧٤ و (البابليات) ص ٢٦ ج ٣ القسم الثاني
(٣٣) راجع ص ٢٨
(٣٤) هو القائد المعروف أدهم باشا
(٣٥) راجع سحر بابل — ص ٥٢ — ٥٤

ابن الحاج جعفر(٣٦) أبياتا يؤرخ بها هذه الحادثة فقال

سلطاننا عبدالحميد الذى صان حمى الاسلام والمسلمين
أعز دين الله فى موقف أذل فيه الشرك والمشركين
حرب بها اليونان قد شاهدت عاقبة الطغيان عين اليقين
فيها أعان الله أجناده على العدا والله نعم المعين
أوحى له الذكر بتاريخها انا فتحنا لك فتحا مبين(٣٧)

ويلاحظ فى هذه الابيات أن الشاعر لا ينظر الى هذه الحروب الا من الزاوية الدينية وهو كالسيد جعفر الحلى فى هذه النظرة ، اذ لم يكن للشعراء علم بالسياسة ولم يكونوا يعرفون ان العامل الدينى كان أضعف من غيره فى أثارة هذه الحروب •

ويشارك جميل صدقى الزهاوى فى مدح السلطان وجيوشه فى هذه الحرب وكان اذ ذاك فى الاستانة فيقول

هو الفتح ألقى فى قلوب العدا هولا وأثبت ان الحق يعلو ولا يعلى

* * *

أضاع بنو اليونان فى الحرب رشدهم فضلوا ، وقد خابت أمانى من ضلا

* * *

نصحناهم ألا يعافوا ولاءنا فلم يقبلوا الا العداوة والغلا
الى أن رددنا كيدهم فى نحورهم بنصر به قد خصنا الملك الأعلى

ويشير فيها الى طلب الصلح من قبل اليونان

ولما سعى الساعون أن نهجر الوغى ونمنح للمغلوب من فضلنا مهلا
عقدنا مع اليونان للحرب هدنة على طلب منهم فكانوا اليد السفلى

ويمدح السلطان فيقول

لسلطاننا عبدالحميد سياسة طريقتها فى المعضلات هى المثلى(٣٨)

---

(٣٦) هو والد الشاعر المعاصر الشيخ محمدعلى اليعقوبى معتمد الرابطة الادبية فى النجف • وقد توفى سنة ١٣٢٩هـ •
(٣٧) راجع (البابليات) ص ١٤٤ – ١٤٧ ج ٣ القسم الاول
(٣٨) راجع (الكلم المنظوم) للزهاوى ص ٣ و٤

ولهؤلاء الشعراء وغيرهم قصائد اخرى فى مدح هذا السلطان بمناسبة عيد ميلاده وجلوسه وبعض أعماله ، ومنها قصيدة للسيد جعفر الحلى نظمها بمناسبة عيد ولادة عبدالحميد سنة ١٣١٥هـ ، وقد جاء فى أولها

ميلاد سلطان البرية عيد وبه سعود للهدى وصعود
بوركت يا دين النبى بليلة فيها خليفة عصرنا مولود

وعدد أبيات هذه القصيدة ثمانية وثلاثون خص بقسم منها والى بغداد اذ ذاك وهو عطاءالله الكواكبى[٣٩] ، وقد بالغ فى مدحه كما بالغ فى مدح السلطان[٤٠] .

الصدور العظام والوزراء :

لم يقتصر الشعر الذى كان يوجه الى استانبول على السلطان وحده سواء سمع هذا الشعر أم لم يسمع ، وسواء وصل أم لم يصل ، بل كان للصدور العظام والوزراء نصيب منه ولكنه نصيب قليل لبعد الشعراء عن العاصمة ولان شهرة هؤلاء الموظفين لم تكن قد بلغت درجة كافية بحيث تملأ أسماع الشعراء كما ملأت أسماعهم شهرة السلطان أو الوالى الذى يقيم بين أظهرهم .

ولذلك لم يكن الشعر الذى قيل فى هؤلاء شيئا يذكر فقد كان لا يتجاوز المقطوعات القصار والابيات القليلة التى كانت تنظم بمناسبة تعيين صدر أعظم أو تقال للزلفى والتقرب لدى صدر أعظم أو وزير .

ومن أمثلة ذلك قول عبدالباقى العمرى عندما صار مصطفى رشد صدرا أعظم للمرة الثالثة سنة ١٢٦٩هـ

رجع الرشيد الى الصداره فلنا الهنا ولك البشاره

والمخاطب بالبيت أبو الثناء الآلوسى حين كان فى الاستانة[٤١] .

---

(٣٩) ولى بغداد سنة ١٨٩٦م وكان طاعنا فى السن
(٤٠) راجع القصيدة فى (سحر بابل) ص ١٥٦ ــ ١٥٨
(٤١) راجع (غرائب الاغتراب) ص ١٢١

ويجمع العمرى بين هذا الصدر وبين مستشاره فؤاد عالى والسلطان عبدالمجيد أيضا فيقول

فؤاد لصدر الملك لا زال لائقا   وهل لائق للصدر غير فؤاده
فذاك وذا جسم وروح تلازما   لخدمة ظل الله بين عباده[٤٢]

وقد جمع الآلوسى أيضا بين هذا الصدر ومستشاره بأبيات ثلاثة فقال

ولما نظرت الى المستشار   وشمت عليه مدار الامور
هتفت أنادى بقول صحيح   عليه يلوح من الصدر نور
يليق بذا الصدر هذا الفؤاد   وهل غيره لائق للصدور[٤٣]

ولا شك أن للاسماء أثرا فى هذا اللون من البديع الذى تلاعب فيه العمرى والآلوسى •

ونرى الآلوسى فى رحلته يبين الاسباب التى الجأته الى ترك بغداد والاتجاه الى الاستانة فيخاطب هذا الصدر ببيتين ضمنهما شطرا لابى فراس الحمدانى فقال

قصدت من الزوراء صدرا معظما   وقد سامنى ضر وقد ساءنى دهر
وقلت لنفسى ـ والرجاء موفر ـ   (لنا الصدر دون العالمين أو القبر)[٤٤]

وهو بهذا التضمين قد استخدم كلمة الصدر بمعنى آخر •

ثم يعود الى مدح المستشار فؤاد ، والصدر ، والسلطان بأبيات يرجو بها قضاء حاجته ليعود الى أهله فيقول مخاطبا المستشار

أرى دولة الاسلام شخصا فرأسه   ملاذ الورى السلطان والصدر صدره
وأنت بلا ريب فؤاد وحبذا   فؤاد حوى العرفان لله دره
فيا سيدى قد طال بالعد غربة   فمنوا عليه أن يحرر أمره
ليغدو الى أهليه بالخير داعيا   ويبقى لكم ما عاش بالمدح ذكره[٤٥]

(٤٢) المصدر السابق والصفحة نفسها
(٤٣) المصدر السابق والصفحة نفسها
(٤٤) المصدر السابق ص ١٢٤
(٤٥) المصدر السابق ص ١٤١ و١٤٢

وحين صار فؤاد عالى صدرا أعظم سنة ١٢٧٨هـ نظم العمرى أبياتا يؤرخ بها هذه الصدارة فقال

صدارة كررت مرارا لواحد الدهر فى الكمال
ما قطعت عنه وقتا الا وحنت الى الوصال
ان رمت تاريخها ارتجالا كرر ثلاثا الصدر عال(٤٦)

وليس فى هذه الابيات سوى الفن التاريخى فاذا كررنا كلمتى (الصدر عال) ثلاث مرات وحسبنا حروفها على طريقة الجمل وجدناها توافق تاريخ هذه الصدارة •

وقد أرخ الاخرس صدارة مدحة باشا الاولى سنة ١٢٨٩هـ وكانت فى أيام السلطان عبدالعزيز فقال

ان الممالك فى صدارة (مدحة) أضحت بطيب مسرة وهناء
ضحكت به دار السعادة بعدما أبكت عليه أعين الزوراء
للدولة العلياء من سلطانها أرخ تصدر مدحة العلياء(٤٧)

ومما تجب الاشارة اليه أن مدحة عين صدرا أعظم بعد أن غادر العراق بمدة(٤٨) •

وقد مدح عبدالباقى العمرى بعض وزراء الدولة ومنهم حفظى باشا فقد أرسل اليه مقطوعة مع القصيدة التى نظمها فى الاستيلاء على حصن (سواستيبول) فى حرب القرم وقد مر ذكرها فى مدائح السلطان عبدالمجيد أما المقطوعة التى مدح بها حفظى فانه يشير فيها الى صداقة كانت بينه وبين

---

(٤٦) الترياق الفاروقى ـ ص ٤٣٦

(٤٧) مجموعة للاخرس لم تنشر الورقة ١٧ من نسختى المنقولة عن نسخة يعقوب سركيس

(٤٨) فى ديوان السيد حيدر الحلى قصيدة فى مدح الصدر الاعظم ولكن ليس فى المقدمة أو فى ثنايا القصيدة ما يشير الى اسم الممدوح ويغلب على الظن أنها فى (مدحة) بعد ان عين صدرا أعظم لان للشاعر فيه بعض المدائح أيام كان واليا فى العراق راجع هذه القصيدة الغفل فى ديوان السيد حيدر الحلى ص ٢٠٨ ـ ٢١٠ وفى العقد المفصل للشاعر نفسه ص ٢٣ ـ ٢٤ ج ٢

هـذا الوزير وأن هـذه الصداقة هى التى حفزته لان يرسل اليـه قصيدة (سواستيبول) • وقد جاء فى مقطوعته التى يخاطب بها حفظى قوله

أيهـا المولى الذى باهت بـه دارة الملك شـيوخ الـوزراء
هـذه منظومة قـد قالهـا عبـدك الداعى بصبح ومسـاء
ذاكرا فى ضمنها ما شاع من فتح حصن الروس من بعد الغزاء[49]

ولم يكن القصد من هـذا الخضوع غير أن يتفضل الوزير بتسجيل هذا الشاعر فى ثبت المخلصين للدولة •

وللعمرى أبيـات أرسلهـا الى أحمد زيور ناظر الاوقاف السـلطانية بالاستانة وكان هـذا قـد طلب من الشـاعر نسـخة من ديوانه (الباقيـات الصالحات) فى مدح النبى وآل البيت لطبعها له وأول الابيات

دعـانى زيور الوكلاء أحمـد لحضرته بظهـر الغيب أحمد[50]

ولاة العراق

ان الشعر الذى قيـل فى مدح الولاة وذكر مناسباتهـم وحوادثهـم وحروبهم شعر كثير لا يمكن استيعابه فى دراسة لا تعرض الا الى النواحى الهامة التى يمكن أن تكشف عن الخطوط والاتجاهات ، وتترك من الشعر ما كان صورا مكررة أو معادة لا تضيف شيئا جديدا الى المطلوب من هذه الدراسة ، كما أن فى مدح بعض الولاة ما لا حاجة لذكره فى هذا المجال لانه مجرد مدح يراد به التماس عطف الوالى ورضاه •

ولما كانت صور المدح فى مناسبة هامة أو فى غير مناسبة صورا كثيرة متشابهة فان الاقتصار على بعضها دون بعض أجمل من تناولها عامة ، لذلك أرى من المفيد أن أتناول فى هذه الدراسة ما قيل فى أبرز الولاة ، وما صدر من أشهر الشـعراء خلال القرن كله ، وأن أتجنب الفضـول والزوائد • واذا كان تحديد الموضوعات مما يعين على فهمها ودراسة جوانبها أكثر مما

---

(٤٩) راجع :ـ الترياق الفاروقى ص ٣٩٥
(٥٠) المصدر السابق ص ٣٩٦

لو درست وهى غير محددة فان دراسة هذا الشعر فى كل ولاية على حدة أفضل فى تنظيم الخطوط التاريخية والسياسية والادبية ، وان تناول كل وال من الولاة وكل شاعر من الشعراء بانفراد مما يساعد على التصوير الواضح المفيد •

ولاة بغداد :

اذا كنت قد بدأت ببغداد فلانها الولاية الكبرى ولان ما قيل فى ولاتها من الشعر أكثر وأغزر مما قيل فى الولاة الآخرين ، وسأتناول من ولاة بغداد من كان لهم أثر فى توجيه الشعراء وجهة حكومية طاوعها الشعر فى مختلف الحوادث والمناسبات •

الوالى داود :

ان هذا الوالى المملوك الذى ختم به عصر المماليك كان أقرب الولاة الى شعراء عصره ، بل كان الشعراء أقرب طبقات المجتمع اليه ، وقد كان نصيبه من مدائحهم ودواوينهم أكثر من نصيب أى وال سبقه أو لحقه ، فقد رافقوه فى كل عمل وكل حادثة ومعركة وسجلوا له ذلك كما يجب ، وكما يشاء ، وارتفعوا به الى مصاف الملوك والامراء بل منحه بعضهم صفة الخلافة وسماه خليفة العصر ، أما هو فقد كان يطرب لهذه المدائح والالقاب ويثيب عليها بمقدار ما يستحق أصحابها ، ومن أبرز الشعراء الذين مدحوه

الشاعر عثمان بن سند :

هذا الشاعر كان من المقربين عند داود وقد ألف كتابه المعروف مطالع السعود(٥١) ، وسجل فى هذا الكتاب ما يرضى هذا الوالى من تاريخه وتاريخ حروبه ومعاركه والثورات التى قضى عليها ، ومدحه بقصائد

---

(٥١) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا وتوجد منه نسخة فى مكتبة الاوقاف ببغداد برقم ٥٨٤٠ ونسخة ثانية فى مكتبة الآثار ببغداد أيضا اما التى اتخذتها مرجعا فى هذه الدراسة فهى نسخة الآثار برقم ٢٣٣

كثيرة كان فيها عونا له وخصما لكل ثائر أو محارب ولو كان من القبائل العراقية العربية ، ولعل من المستحسن أن أترك لشعره كل ايضاح وشرح وألا أتسرع فى الحكم والتعليق .

قال عثمان على لسان هذا الوالى مدعيا ان المعارف والتقوى كانت فى أيامه وان أيام من سبقه كانت حافلة باللهو

وانى لفلال لكل كتيبة ... سريع الى ابطال سورتها عدوى
تفاخر أيامى وأيام من مضوا ... ببغداد ممن أملوا جهدهم شأوى
فكانت لأيامى المعارف والتقى ... وما افتخرت أيامهم بسوى اللهو[٥٢]

واذا كان اللهو لا يحتاج الى دليل فان التقى من مبالغات الشاعر !!

وقال فيه حين أرخ انتصاره على الوالى السابق واسناد ولاية بغداد له وقد تعرض لذكر الوالى السابق ودفاعه عن نفسه

بشراك بشرى بما تهوى قضى الزمن ... والجد منك على والرجا حسن

* * *

أردت حقن دماء المارقين ولكن العصاة أراقوه وما حقنوا
ظنوا الحصون عن الاقدار مانعة ... أمانع من قضاء القاهر الحصن ؟
وما نفوا عن (سعيد)[٥٣] ما تأنفه ... اذ خال فيهم دفاعا رأيه الزمن
استودع الملك لا أهلا فساء به ... رعا ، أذئب على الاغنام يؤتمن[٥٤] ؟

ويخرج عثمان بن سند [illegible] ١٢ بتأثير الزلفى لهذا الوالى فيندد بثورة عشائر الدليم على [illegible] ١٢٣ وكان داود قد قضى على هذه الثورة بقوة الانكشارية ، [illegible]

هو القرم صلت فى الرؤوس مناصله ... [illegible] مناويه وثل مقاتله
مناصل ما سلت على غير معتد ... غشوم يرى أن يدفع الحق باطله

---

(٥٢) مطالع السعود ـ الورقة ٣

(٥٣) هو سعيد بن سليمان [illegible] راجع الفصل السياسى فى بحث المماليك

(٥٤) مطالع السعود ـ [illegible] ٢ ١ ١١٤

غزا فرقة أموا الضلال فاذعنوا لدن ما صعتهم أسده وقنابله[٥٥]

★ ★ ★

وزير به عاد الهدى سامى الذرى وأبيض سفاح العطاء وشامله
رأى من (دليم) نفرة فغزتهم
ـ الى أن أجابوا عن صغار ـ جحافله[٥٦]

وماذا بقى لطلاب الحق بعد هذا الضلال والباطل والصغار الذى وسم به الثائرون العرب ؟

وحين أرخ حرب داود مع الدولة الايرانية سنة **١٢٣٧ـ١٢٣٨هـ ١٨٢١م** وهى الحرب التى لم يعمل فيها جيش الدولة العثمانية شيئا مثل ما عمل بعض عشائر العراق[٥٧] ، رأى عثمان أن يسجل مع التاريخ قصيدة يشير بها الى هذه الحرب فتجاوز الواقع حين نسب الانتصار الى داود ، وتناول الايرانيين من زاوية العقيدة لا من زاوية الخلاف السياسى القائم بين الدولتين ، فقال

تاج العلا داود والصدر الذى بسعوده صدر الوزارة أعظم
من كتبه فى المارقين كتائب منها كتائب كل باغ تهزم

★ ★ ★

قل للروافض كيف ذقتم طعنهم أمجاج نحل طعمه أم علقم ؟
ما أن زجرتم شاهكم عن بغيه بل صلتم لم تعرفوا من أنتم
وزحفتم بخميسكم كى تملكوا بغداد فانقلب البوار عليكم[٥٨]

ولكنه رأى من غير المناسب ألا يذكر يد العشائر فى دحر القوات الايرانية فقال موجها خطابه الى (صفوق بن فارس) رئيس شمر

يا شمّرياً رأينا من مواهبه ما ليس يحصره طرس ولا قلم
انى مدحت لسمعى عنك ما قصرت عن أن تجاريه فى سحه الديم

---

(٥٥) ماصع بمعنى قاتل وجالد ٠
(٥٦) مطالع السعود الورقتان ١١٦ و١١٧
(٥٧) راجع ص ٥٤
(٥٨) مطالع السعود الورقة ١٣٤ ـ ١٣٦

وحتى فى هذه الابيات لا ينسى داود ، ولا يرى لصفوق ما يمدح عليه غير نصرته هذا الوالى

لكننى رجل أهوى الكرام ومن   كانوا لخير وزير فى الورى خدموا
اذ كنت افرغت وسعا فى نصيحته   وكنت قاضيه لما بغى العجم[٥٩]

وفى الثورة القبلية التى بدأت فى الحلة سنة ١٢٤٠هـ وانتقلت الى (عفك) سنة ١٢٤٢هـ وانتهت بانتصار داود[٦٠] يستبشر عثمان باندحار الثائرين ويمدح الوالى المنتصر فيقول

بريد النصر باكرنا فهنا   وزيرا هز للعلياء فنا
أبار من الروافض كل هام   بأسياف يرين القتل سنا
دعاهم للهوادة فاشمأزوا   فشن عليهم الغارات شنا
فادوا مثلما بادت ثمود   ولكن بالسيوف ضحكن سنا
فيا أعلى وزير طال مجدا   وأعطته الليالى ما تمنى
تهنأ بالذى أعطاك مولى   حباك بنصره فنعمت منا[٦١]

وقد بالغ الشاعر هنا مالغة عاطفة ضيقة الشعور لان هذه الثورة كان من زعمائها قاسم الشاوى ومحمد الكتخدا نفسه وليس كل المحرضين أو الثائرين من الشيعة كما أوحت اليه عاطفته ، ولكن اندفاعه الى هذا الحد ناشىء من أن الثورة كانت فى مناطق شعة مضافا الى ذلك كونه متعصبا تعصا شديدا ينسيه فى أكثر المواقف أن هؤلاء عرب وانهم طلاب حق .

ولا أريد أن أطيل الوقوف مع الشيخ عثمان بن سند فان شعره فى داود أكثر مما ذكرته ، وان الذى اخترته أهم ما فيه من الناحية الموضوعية . وممن أكثروا من مدح داود

الشاعر الشيخ صالح التميمى

فقد كان التميمى[٦٢] يعد الشاعر الخاص لداود وكان رئيس ديوان

---

(٥٩) المصدر السابق ـ الورقة ١٣٧
(٦٠) راجع ص ٦١ و٦٢
(٦١) مطالع السعود ـ الورقة ١٥٧
(٦٢) ولد التميمى سنة ١١٩٠هـ وتوفى سنة ١٢٦١هـ ١٨٤٥م وكانت دراسته الاولى فى النجف

الانشاء العربي في حكومة هذا الوالي ، وقد تصدى لتسجيل أعماله وحروبه مع ايران • ومع القبائل والمدن العراقية ، وكان داود نفسه لا يعتمد على غير هذا الشاعر[٦٣] في المناسبات التي تحدث من ترميم مسجد أو بناء جامع فيطلب منه أن يؤرخ تلك الاعمال[٦٤] ولقد كان التميمي كغيره من الشعراء مبالغا مسرفا في مدح داود بل كان موقفه من الثورات القبلية موقفا لا يدل على شيء سوى الذوبان في موقد الحكم ، وعلى ما في شعره من قوة وسلاسة كان في طليعة الشعراء الذين ساروا في ركاب الولاة واندفعوا مع التيار فأكثر من مدح داود في حروبه ومعاركه وأسرف في تمجيد مواقفه من قمع الحركات والثورات الداخلية وندد بالقبائل التي كانت تتمرد وتثور على الوالي ونظر اليها كما ينظر الخصم الى خصمه • ولقد كان شعره في حروب داود ووقائعه مع الفرس أو القبائل العراقية يصطبغ بالدماء ويتلون ببريق السيوف ويزخر بالكلمات المجلجلة الصاخبة كأنها غارات وكتائب[٦٥] • ومن ذلك قصدة نظمها في الحوادث التي وقعت بين العراق وايران في سنتي ١٢٣٧-١٢٣٨هـ ٢٢-١٨٢٣م وهي قصيدة عامرة الاسلوب وقد تناول فيها الفرس من زاوية الجنس وعابهم بالديانة المجوسية القديمة ووازن بينهم وبين الترك في الشجاعة والحروب ففضل الترك عليهم ، وفيها يقول

بطلعتك الزوراء أشرق نورها ... فأعيادها أيامها وشهورها
لعمرك ما زاغت عن الرشد أمة ... اذا كان عن داود تتلى زبورها
حمى جانبيها والعراق بسطوة ... يمينا الى طهران وافى نذيرها

---

(٦٣) كان داود يسميه (سيد شعراء عصره) راجع المسك الاذفر – لمحمود شكري الآلوسي ص ١٤٩

(٦٤) في (تأريخ مساجد بغداد وآثارها) لمحمود شكري الآلوسي – نماذج من هذا الشعر •

(٦٥) مدح التميمي داود قبل أن يكون واليا وذلك عندما ذهب الى خزاعة وأخضعها سنة ١٢٣٠هـ ١٨١٥م راجع (ديوان التميمي) ص ٣١

اذا ما سرت للفرس منها كتائب سرت قبلها عقبانها ونسورها
مجوس لنار الحرب ظلت رؤوسهم سجودا ، كذا دين المجوس سعيرها
عتت فاصطلت نار المواضى وبعدها الى النار فى يوم الجزاء مصيرها
وردت على الاذناب لا ذو وقاية يقيها ولا حصن حصين يجيرها
هى الترك ان صالت فلا يزدجردها يرد مواضيها ولا ازدشيرها

وفى الحق أن الايرانيين لم يردهم داود ولا كتخداه المنهزم ، ولا ضباطه المماليك ولا جيش الترك ، وانما ردهم العرب ، ولو أن الشاعر جرد هذه القصيدة من مدح داود والترك لكانت من خيرة الشعر القومى ولكنه جمع فيها هذا الخليط المتباين وأفرغها فى قالب المدح وحده وقد استمر فيها مادحا داود وأعماله الحربية وبالغ وأسرف فى المبالغة[٦٦] .

ونظم قصيدة اخرى مشيرا الى الصلح الذى عقد بين الدولة وايران فى هذه الحوادث وكان قد توسطه رجال الدين سنة **١٢٣٧هـ ١٨٢١م** قبل المعركة الثانية فقال يخاطب داود

ملكت الورى مستمسكا بعد همة بحبل من الله المهيمن موثق
سل الفرس مذ جرت اليك كتائبا متى وطئتها الشمس بالنقع تغرق
ملاحم وافت من خراسان أثرها ملاحم ترى فيلق بعد فيلق
لقد جمعت من كل قطر وانها لتسعى على أعقاب شمل مفرق
فباكرتهم فى حيهم بكتيبة فلم تبق فيهم غادة لم تطلق
ومذ جنحوا للسلم والصلح طاعة مننت بصلح صادر عن ترفق[٦٧]

ونرى التحريض واضحا فى شعر التميمى اذ يطلب من داود أن يجعل سيفه بين يديه فى معالجة الامور وألا ينسى بذل المال والتأنى أيضا

لا يبلغ الملك المتوج قصده الا اذا جعل الخزائن معبرا
فاسلل سيوفك انها آيات ما أدركت من شرف به فقت الورى
واذا رأيت البغى رافع رأسه فادمغه بالعضب المهند واكسرا

(٦٦) ديوان التميمى ـ ص ٤٠ ـ ٤٢
(٦٧) ديوان التميمى ص ٨٨

هـذا العراق وأنت فيـه مفرد فانظر امورك بالتأنى تقدرا[٦٨]

والى هذا الحد قد يهون الامر فى تفسير مدائح التميمى فى داود ولكن قصائده فى الثورات القبلية ليست ذات اتجـاه مقبول شأنه فى ذلك شأن معاصريه من الشـعراء الذين لم يكن هدفهـم غير التقرب والزلفى وأخذ الجوائز وان كانت يسيرة ، ومن شعر التميمى فى هذه الحوادث ما قاله فى المعارك التى وقعت بين قبائل عنزة وشمر سنة **١٢٣٩هـ ١٨٢٣م** وكان داود فى هذه المعارك بجانب شمر لانهـم آزروه فى محاربة الفرس[٦٩] . ولما كانت قبـائل عنزة[٧٠] من بكر بن وائل فان الشـاعر اسـتهل قصيـدته بالاستخفاف والاستهانة ببكر بن وائل كلها فقال

سلوا حى بكر أين قوض وائله وفى أى أقطـار تولت قبائله ؟
تصابت الى ماء العراق ومـا درت موارده حتف ، ذعـاف مناهلـه
ومـا كل مفتون بليلى ومغـرم اذا رامها فى جنح ليل تواصله
تجـافت عن القيصوم شـوقاً لباسق من النخل طعم النحل حينا يشاكله
تؤمل من دار السـلام سلامة وللرأى زيغ يشبه الحق باطله
فعارضها من أفق بغداد عارض أبى الله الا أن تبيـد زلازله
ثلاثون شهرا قاتل الفرس لم تطش مرامه عن أكـاد قوم تقاتله[٧١]

ان هـذا الاسـلوب الرائع الجميـل يضيع فى فـكرة غير مقبـولة ، اذ يرى الشاعر أن قبائل عنزة لا يجوز لها أن ترد مياه العراق ، بل تبقى فى باديتها بين الشيح والقيصوم ، وانها لا يحق لها أن تسكن فى أى مكان من العراق الذى استباحته سيول من الترك والمماليك والفرس !!

ولقد كان التميمى وفيا لداود حتى بعد أن انطوى حكمه من العراق

---

(٦٨) المصدر السابق ص ٤٢ و٤٣
(٦٩) راجع (مطالع السعود) الورقتان ١٤٠ و١٥١
(٧٠) قبائل عنزه منتشرة فى العراق من البصرة الى الشمال على سقى الفرات الغربى وقد تفرعت الى أفخاذ كثيرة يقيم بعضها داخـل العراق ومنها أفخاذ فى نجد وسوريا
(٧١) ديوان التميمى ص ١١٤

وسفر الى الاستانة ، ومثال ذلك جوابه على القصيدة « الخالية[٧٢] » التى أرسلها داود الى شعراء العراق ليباروها فباراها بعضهم وأبى التميمى أن يسج على منوالها ولكنه أرسل الى داود قصيدة يعتذر فيها عن هذه المجاراة ويتمنى عودة داود الى العراق ، وقد جاء فيها

عهدناك تعفو عن مسيء تعذرا ألا فاعفنا عن رد شعر تنصرا

ثم يشرح أسباب اعتذاره باسلوب فنى يدل على ذوق وملكة أصيلة[٧٣] ويقول بعد ذلك

فدع ذا ولكن اسأل الله بالذي دنا فتدلى ثم بالوحى أخبرا
بشيرا يوافى باللقاء ، وطالما يوافى رسول بعد يأس مبشرا[٧٤]

وهذه الابيات تدل على ما لداود من أثر فى نفس التميمى وعلى ما له من صلة بالشعر والادب حتى فى منفاه .

ومن الشعراء الذين مدحوا داود

الشاعر عبدالباقى العمرى :

ولكن العمرى لم يكن من شعراء داود لانه كان آنذاك فى الموصل ولم ينتقل الى بغداد مقيما فيها الا فى ولاية على رضا الذى جاء لانهاء حكم المماليك ، لذلك كان شعر العمرى فى مدح داود لم يتجاوز قصيدة واحدة وبضعة أبيات فى بعض المناسبات ، ومن هذه الابيات قوله متشفعا لدى داود لساعد على تعين يحى الجليلى واليا على الموصل

يا مليك البلاد أمنيتى حا شاك مثلى يعود منك كسيرا

---

(٧٢) هذه القصيدة نظمها الشاعر اللبنانى بطرس كرامة وقدمها الى داود فى الاستانة ، وأولها

أمن خدها الوردى افتنك الخال فسح من الاجفان مدمعك الخال

وسميت الخالية لان كل قوافيها جاءت على كلمة الخال مختلفة المعانى

(٧٣) ستأتى هذه الابيات فى الفصل الخامس

(٧٤) راجع هذه القصيدة فى ديوان روض الخل والخليل ديوان السيد عبدالجليل الطباطبائى ص ١٧٢ طبعة مصر و ٢٥٣ و٢٥٤ طبعة الهند وفى ديوان التميمى ص ٥٦ ــ ٥٧

أنت هارون وقتــه ورجائـي   أن أرى في حماك يحى وزيرا[75]

ولا شيء في هذين البيتين غير الرجاء ، وتشبيه داود بهارون الرشيد ، والتورية بين يحى الجليلي ويحى البرمكي .

وأما القصيدة فهي التي نظمها مجاريا بهـا القصيدة « الخالية » التي مرت الاشارة اليها ، وقد جاء في قصيدة العمري قوله

الى الروم أصبوا كلما أومض الخال   فاسكب دمعـا دون تسكابه الخال

وعن مدح داود وطيب ثنائـه   فلا القد يثنيني ولا الخد والخال

ويشير في هذه القصيدة المتكلفة الى أيام داود في العراق

عفا الله عنه قد عفت بعد بعده   من البلدة الزورا المعالم والخال

وهيهات ما دار الرصافة بعـده   ولا الكرخ الا السبسب القفر والخال

ولكن العمري يحتاط ويستدرك لان حكمه هـذا مما يغضب الوالي الموجود آنذاك وهو محمد نجيب فيقول

ولكن بهـذا العصر أمست كجنة   بهـا تناهى ربوة الشـام والخال

ورضوانها اليوم النجيب مشيرها   يحافظها مولى عليها هو الخال[76]

والقصيدة هذه تتألف من ستة وعشرين بيتا[77] .

ومن الشعراء الذين مدحوا داود

الشاعر عبدالغفار الاخرس :

وقد كان الاخرس شابا صغيرا عند تولية داود الحكم ، وكان عمره حوالي السابعة والعشرين حين انفصل داود عن الولاية ، ومثل هذه السن لا تتيح للشـاعر أن يشق طريقه بين شيوخ الشعراء لينال من هـذا الوالي

---

(٧٥) تراجم مشاهير الشرق ـ ص ٢٥٠ ج ٢ ـ ط ٣ و (الترياق الفاروقي) ص ٤٤٩

(٧٦) الخـال الاولى البرق والثانية السـحاب والثالثة الشامة والرابعة الاثر والخامسة المكان الموحش . والسادسة مكان بالشام . والسابعة القائم

(٧٧) راجع ـ (الترياق الفاروقي) ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

الخطير مكانة تثير شاعريته للمدح والاطراء غير أنه ركض مع الراكضين وصفق مع المصفقين فسجل فى ديوانه صورة من المدح[٧٨] بعث بها الى هذا الوالى بعد أن سافر الى الاستانة وقد جاءت هذه الصورة فى قصيدة طويلة بدأها بمقدمة بدوية النسج والخيال وأولها

بوادي الغضا للمالكية أربع | سقتها الحيا منا جفون وأدمع

وتستمر هذه المقدمة فى أربعة وعشرين بيتا تعقبها صورة ثائرة على الحياة والاقدار كشأنه فى معظم قصائده ومنها

أرانى مقيما بالعراق على ظما | ولا منهل للظامئين ومرتع
وكيف بورد الماء والماء آجن | يبل به هذا الغليل وينقع ؟

ويصف نفسه متخلصا الى مدح داود

كأنى صفاة زادها الدهر قسوة | من الصم لا تبلى ولا تتصدع
فسالمت حرب النائبات فلم تزل | تقود زمامى حيث شاءت فاتبع
وكنت اذا طاشت سهام قسيها | وقتنى الردى من صنع (داود) أدرع

وقد تمنى الاخرس فى هذه القصيدة عودة داود الى العراق أو أنه نفسه يذهب الى أرض الروم فيلثم أقدامه !!

أبا حسن هل أوبة بعد غيبة | فللبدر فى الدنيا مغيب ومطلع
وانى على خصب الزمان وجدبه | اليك وان شط المزار لأهرع
ولو أننى وفقت للخير أصبحت | نياقى بأرض الروم تحدى وتسرع
الى مالك ما عن مكارمه غنى | وغير ندى كفيه لا أتوقع
فألثم أقدام الوزير التى لها | الى غاية الغايات ممشى ومهيع[٧٩]

---

(٧٨) للاخرس أبيات طلب فيها من داود أن يتسبب فى معالجة لسانه ومنها

هذا لسانى يعوقه ثقل | وذاك عندى من أعظم النوب
فلو تسببت فى معالجتى | لنلت أجرا بذلك السبب

وقد أرسله داود الى الهند ولكن الطبيب حذره من المعالجة لانه قد يشفى وقد يموت ، فقال لا أبيع كلى ببعضى . راجع (المسك الاذفر) ص ١١٧

(٧٩) راجع هذه القصيدة فى (الطراز الانفس) ص ٢٤٩ ــ ٢٥١

ولا أدرى فلعل داود كان ملء النفوس فى ذلك الوقت والا فكيف يتنزل شاعر ثائر علوى النسب الى لثم أقدام هذا الوالى المملوك ؟ على اننا لا نستبعد مثل هذا من شعراء ذلك العصر مهما كان فخرهم بأنفسهم •

شعراء متفرقون :

وقد مدح داود شعراء كثيرون فى بغداد والحلة والنجف ، ومنهم السيد حسين بن سليمان الحكيم الحلى فقد استوحى ثورة القبائل فى (عفك) سنة ١٢٤٢هـ ونظم قصيدة فيها شماتة بالمغلوبين وثناء على الوالى الغالب وقد جاء فيها قوله

خليفة هذا العصر داود من غدت شكيمةهذا الدهر فىيده اليمنى[٨٠]

ثم يقول له

وأضحكت سنالدهر من شيخ حمير وباهلة من بعد ما ملئوا حزنا[٨١]

ومن الواضح أن الشاعر أسبغ على داود لقب الخليفة دون أن يلتفت الى أن الخليفة فى الاستانة وهو سيد داود وأمثاله •

ومنهم الحاج مسعود الازرى وقد جاء فى قصدة له

تـذل لداود الملوك جلالـة وتلثم منـه موطىء النعل بالفم[٨٢]

ومنهم الشيخ ابراهيم قفطان النجفى ، وفى قصيدته اشارة الى صلة داود بعلماء النجف[٨٣] •

---

(٨٠) راجع هذه القصيدة فى (شعراء الحلة) ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ج ٢
(٨١) يريد بشيخ حمير (قاسم الشاوى) وباهلة من عشائر عفك ومن الطريف ان عبدالنبى البغدادى جمع بعض زعماء الثائرين فى بيت ركيك فقال
نادى محمد رستم يا صالح يا قاسم الشاوى جميعا نشرد !!
والمقصود محمد الكتخدا ورستم أغا وصالح اخو شوكه حاكم الحلة المؤقت (ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون) الورقة ١٠ من نسخة يعقوب سركيس
(٨٢) مجموعة الشيخ محمد رضا الشبيبى
(٨٣) راجع (شعراء الغرى) ص ٥٥ ج ١

ومنهم السيد عبدالجليل الطباطبائى البصرى وليس فى شعره ما يستحق الذكر[٨٤] .

الوالى على رضا

وهذا الوالى كان نصيبه من الشعر كثيرا ، وكان موقف الشعراء منه كموقفهم من داود فهم معه فى كل حادثة وثورة ، وهم الى جانبه فى كل عمل ، ان غرب نحو الاكراد هللوا له وكبروا ، وان شرق نحو القبائل العربية زمروا وطبلوا !! وهم فى كل ما نظموه كانوا حربا على بلادهم واخوانهم وبوقا صاخبا لهذا الوالى الذى كان يخدعهم بالبسمة الساخرة ، ويقربهم بأساليبه المختلفة وان كانوا لا يحتاجون الى تقريب !! ومنهم

الشاعر الشيخ صالح التميمى :

الذى أكثر من مدائح على رضا ورافق أيامه وحوادثه كما رافق أيام داود ، ولم تقف به كهولته موقف التبصر والتريث فى الحوادث القبلة والثورات التى اريقت فيها الدماء جزافا ، بل اندفع الى اطراء هذا الوالى والاشادة بحروبه الى حد بعيد ، ولعل أول قصيدة يمكن أن تجعل بداية الاتصال بين الشاعر وهذا الوالى قصيدته التى استعرض فيها ظفره بداود ، وقد دلت على وفاء التميمى لممدوحه الاول وعلى ضخامة الاثر الذى تركه داود فى نفوس الشعراء ، قال

ظفرت بداود الوزير وللردى ... قوارع خطب لا يفك اصطلامها
ولو ظفرت فيه نزار ويعرب ... بيوم هياج ، والذمام ذمامها
فخاطبها مستعجلا عن حياته ... لعاجله قبل الخطاب حمامها
على أنه ما مد كف مسالم ... وترتكب الامر العظيم عظامها

---

(٨٤) راجع روض الخل والخليل ص ٥١ ــ ٥٣ و ١٦٨ ــ ١٦٩ طبع مصر

واعلم حقـا اننى ان ختمتهـا بذكر على قيل مسك ختامها[٨٥]

وقد جمع الشـاعر بين التهويل فى خطر داود على الدولة ، وخطر الوالى الجديد فى سمو نفسه حين عفا وصفح عن داود •

وعندما هوجمت امارة راوندوز فى الشمال سنة ١٢٥٢هـ ١٨٣٦م[٨٦] واكتسح على رضا قلعة أربيـل الواقعة فى الشمال أيضا رأى التميمى أن يسجل هذه الحادثة فنظم قصيدة يهنىء بها الوالى ويمجد قوته ، وقد وصف قلعة أربيـل وصفا بارعـا وشبههـا بعمورية التى فتحتهـا جيوش المعتصم العباسى فقال

لا ترو عن فتح عمورية خبرا ففتح أربيل ما أبقى لهـا أثرا
لو أن معتصما تعـدوه صارخة بقطر أربيل عن ادراكها قصرا
دع ما سمعت وحدث بالذى نظرت عيناك فالصـدق مقرون بمن نظرا
ما فوق فتحـك الا فتح من نزلت عليـه سورة نصر الله فانتصرا

أما قلعة أربيل فهى

صماء سـامية الاعلام غاصبهـا قـد كاد يبلغ حد الكفر أو كفرا
غمامة لا يدانيهـا الغمام علا ولامع البرق مع ارجائها استترا
ما صافح الريح من أركانها حجر الا ويقـدح من حافاتهـا شررا
ما فى جوانبهـا ماء لذى ظمأ وليس فى أرضها ما ينبت الشجرا
مذ كانت الارض ما فيها جرى نهر لكن سيفك أجرى بالدما نهرا
كانت هى «الهبل» الاعلى وكم صنم سما « على » لـه بالكسر فانكسرا
وان من خالف السلطان ما ربحت يومـا تجارتـه بل انما خسرا
لو طار سهمك فى اربيل عن هدف فالصدر تالله بالكردى ما صدرا[٨٧]

واذا تركنا المبالغات التى حشدها التميمى فى أول القصيدة فان ما بقى

---

(٨٥) ديوان التميمى ـ ص ١٢٩
(٨٦) راجع ص ٦٣
(٨٧) ديوان التميمى ـ ص ٥٢ و ٥٣

فيها صورة واقعية لقلعة أربيل فى كونها قائمة على قمة جبل قليل الماء ، أما ان سكانها غاصبون لها وانهم قد بلغوا حد الـكفر أو كفروا لتمردهم على الوالى فذلك من رأى الشاعر ومن يشـاكله !! وقد شبه هـذه القلعة بهبل وهو الصنم المشهور فى مكة ، واستعان بالتورية بين الوالى على رضا الذى احتـل هـذه القلعة وبين الامام على الذى شـارك النبى (ص) فى تحطيم الاصنام .

وكانت حادثة (المحمرة) سنة ١٢٥٣هـ ١٨٣٧م واحتلالها من قبل على رضا وجيوشه وأتباعه من العشائر العراقية[٨٨] ذات أثر فى شاعرية التميمى فقد أشاد بانتصار هذا الوالى على قبائل (كعب) فى جنوبى البصرة وطرد زعيمهـم من مشيخة المحمرة نفســها ، وقـد أثـر عن التميمى البيت الآتى

دع التفاصيل واســألني عن الجمـــل
هذا علي وهـــذي وقفة الجمــل[٨٩]

ويظهر من هذا البيت انه مطلع قصيدة لم تكمل أو انها كملت ولكن ضاعت فيما ضاع لهـذا الشاعر ، غير أنه أفرغ طاقته الشعرية فى قصيدة تناول فيها هذه الحادثة تناولا يرضى هذا الوالى ومن سار فى ركابه ، وقد جاء فيهـا قوله

وكم قلعـة بالمرهفـات حصينـة كما حصنوا بالخدر عذراء كاعبا
جلبت لها من شاسع الدار شاحط كتائب للهيجـاء تزجى كتائبـــا

ويشير الى جيش على رضا الذى جاء به من الشـام واستعان به على أخذ المحمرة فيقول معبرا عن كتائبه

تجافت عن (العاصى) وعن عذب مائه
وشوقا بـ (كارون) استساغت مشاربا[٩٠]

---

(٨٨) راجع ص ٦٣
(٨٩) مجموعة الشيخ محمد رضا الشبيبى
(٩٠) العاصى نهر معروف فى سوريا وكارون نهر فى عربستان يصب فى شط العرب

لقد طعت شرق البلاد وغربها وصالت فما أبقت عدوا محاربا
فما يوم (ذى قار) وان زمعت به ربيعة يوم الفخر نافس حاجبا
بأعظم من يوم (المحمرة) التى بهـا نشرت بيض الخدود ذوائبـا
رمى شرقهـا الاقصى بأعظم وقعـة لهـا بالردى خطب يهول المغاربـا
وأصمى بكعب الرمح (كعبا) فأصبحت منازلهم بعد الأنيس سباسبا[٩١]

ويهنئه بانتصاره على قبيلة (خزاعة) فى الفرات الاوسط بأكثر من قصيدة واحدة ومن ذلك قوله

أقمت بأكناف الخورنق موسما بأشلاء أهل البغى قد صار موسما
قبائل لم تجنح الى السلم عادة فألحقتها طسما وعـادا وجرهمـا
على انهـا ما زارها ذو وزارة لعمرك قبل اليوم الا توهما[٩٢]

وهذا اعتراف صريح من الشاعر بأن هذه القبائل كانت لا تخشى بأس الحكومة ولا ترهب الولاة ، وقد يكون التميمى أراد تعظيم الوالى وتمجيد قوته التى استطاعت أن تخضد شوكة هذه القبائل القوية ، وهذا النوع من التصوير مألوف فى الشعر القديم ، وهو التهويل بالعـدو وتضخيم قوته ثم القضاء عليه ، لئلا يقال أن الممدوح انتصر على خصم ضعيف .

وفى حادثة الاستيلاء على العمادية فى الشمال وسجن حاكمها الكردى اسماعيل البهدينانى فى بغداد[٩٣] ـ وكانت هـذه بعد الاستيلاء على امارة راوندوز واحتـلال أربيـل والمحمرة ـ وجـد التميمى مناسة لمدح علي رضا فقال

على لوائك خط النصر والظفر جرى القضاء بما قد خط والقدر
فاسعد بفتح قضت فيـه السعود له يوم أغـــر من الايام مشتهر

---

(٩١) ديوان التميمى ـ ص ١٩ و ٢٠
(٩٢) المصدر السابق ـ ص ١٣٠
(٩٣) راجـع (خلاصـة تأريخ الـكرد وكردستان) ص ٢٤٨ من الترجمة العربية .

قد يقبل العذر لكن مـا عملت بما 	والى العمادية المخذول يعتذر[٩٤]
كم في (المحمرة) العبرى له عبر 	ان لم تفده ففى (اربيـل) يعتبر

★ ★ ★

لـكنه (جابر) الثانى طغى وبغى 	وغاية البغى كسر ليس ينجبر[٩٥]

وجابر هو أمير المحمرة المغلوب ، ولا شك أن ذكر المحمرة فى هذه القصيـدة يعين على معرفة تسـلسل هـذه الحوادث التى كادت أن تغمض فى ثنايا التاريخ •

وقد كرر التميمى وصف هذه الحوادث التى انتصر بها علي رضا فى هذه المناطق ومدحه بهذه المناسات فى قصائد متعددة[٩٦] •

وقد سجل فى قصدة اخرى حركة قبائل (عنزة) حول بغداد للرد على سياسة هذا الوالى وسوء تدبيره فقال

فان سمعت أذناك عن نسب العـلا 	لغـير على فالعـلا غـير لائق
ضربت على صحن العراق سرادقا 	غدت جنة اكرم بهـا من سرادق
رغمت بهـا آناف بكـر بن وائل 	فلم يبقمنهم ذو شطاظ ومابقى[٩٧]

واذا كان الوالى قد شتت هذه القبلة وأبعدها عن بغداد فان العراق لم يكن جنة فى أيامه ولا فى أيام غيره •

وبعد انتقال علي رضا من بغداد الى الشام سنة **١٢٥٨هـ ١٨٤٢–١٨٤٣م** بعث اليه التميمى بقصيدة فيها شوق له وذم لمن جاء بعده ، ومنها

أيام غيرك قد أكدى بهـا أملى 	عسى بأيامك الاقدار تسمح لى

★ ★ ★

لم يبق بعدك فى الزوراء ذو كرم 	يرجى ولا لبنى الآداب منأمل[٩٨]

ومن الذين مدحو علي رضا

---

(٩٤) هكذا ورد البيت وفيه شيء من غموض التعبير
(٩٥) ديوان التميمى ـ ص ٥١
(٩٦) راجع المصدر السابق ـ ص ٤٧ و٤٨ و٧١ و٧٢ و١١٠ و١١١
(٩٧) المصدر السابق ـ ص ٩١
(٩٨) راجع المصدر السابق ـ ص ١٠١ و١٠٢

الشاعر عبدالباقي العمري :

فقد كان عبدالباقي ذا صلة وثيقة بالوالى علي رضا وقد توطدت مكانته السياسية فى أيامه ، وقد نافق كغيره من الشعراء ومالأ السياسة فى قصائد غير يسيرة ، وكانت أهمها قصيدته التى نظمها عند الاستيلاء على (المحمرة) لانه رافق الوالى فى هذه الحملة الصارمة وشاهد عن كثب تلك المعركة التى أسفرت عن انتصار الوالى وهزيمة قبيلة (كعب) وأتباعها • وقد حشر العمرى فى هذه القصيدة بعض العوامل الدينية فنظر الى الثائرين من زاوية التشيع ، ونسى أنهم عرب وأن ثورتهم أو تمردهم انما كان بدافع قبلى كالذى حدث من غيرهم فى العراق ، ونسى أيضا ان الوالى الذى مدحه كان يتشيع لعلي وأولاده ومن المشجعين على مدحهم ورثائهم ، أما القصيدة فهى طويلة وقد جاء فيها

فتحنا بحمد الله حصن المحمرة ... فأضحت بتسخير الآله مدمره
بسيف على ذى الفقار الذى لنا ... لقد أخلصت صقلا يد الله جوهره
وجابر أورثناه كسرا بكعبه ... وليس لعظم قد كسرناه مجبره
غدا هاربا يبغى النجاة بنفسه ... وخلى قناطير التراث المقنطره
على ساقها قامت لكعب قيامة ... فزلت بهم أقدامهم متعثره
فلم تغن عنهم مانعات حصونهم ... من الله شيئا فى القضايا المقدره

* * *

غدوا طعمة للسيف الا أقلهم ... قد اتخذوا من شط (كارون) مقبره

* * *

سقى (الرفض) ساقى الحوض كأس منية
غداة وردنا بالمسرات كوثره
وأمست (بنو النصّار) والرفض دينها
على ما دهاها من على مفكره

وخير ما فى هذه القصيدة انها سجلت أسماء المحاربين من الجيوش والقبائل العربية التى آزرت الوالى ومنهم (الارناؤد) الذين جاؤا معه ،

وقبائل زبيد ، والشاوى ، وعقيل ، وطيء ، والمنتفق • ولقد كان هذا النصر بكرامة الشيخ عبدالقادر الكيلانى لا بالقوة والمدافع والقبائل !!

وطار بسر (الباز)[٩٩] صيت عقـــابنا
لهـــم فغدت شـيراز منهـــم مطـــيره

أما الوالى فى الختام

فـلا زال منصور الجيوش مؤيدا وأحزابه فى كل حرب مظفره[١٠٠]

ومن الشعراء الذين مدحوا هذا الوالى

الشاعر الاخرس

وتدل القلة الموجودة فى شعر الاخرس على أن صلته بالوالى علي رضا لم تكن ذات شأن ولعل تردده المستمر على البصرة وبعـده عن بغـداد فى معظم الاحيان قد يكون سببا فى قلة ما نظم فى مدح هذا الوالى •

وقد يكون له فيــه مدائح ولـكنها لم تدون اذا كان ديوانه المطبوع بعض ما نظم[١٠١] ، غير أن المطبوع لم يخل من مدح هــذا الوالى عرضا وفى سياق مناسبات لا تخصه بالذات ، كالقصيدة التى نظمها الاخرس فى مدح أبى الثناء الآلوسى عندما ولى منصب الافتاء سنة ١٢٥٠هـ برغبة من علي رضا وقد جاء فيها قوله

لله مــا هـــــذا الوزير انـــه (على) المولى حباك « بالرضا »[١٠٢]
معمر بغـــداد فى احســـــانه من بعدما أبادها ريب الوبا[١٠٣]
وراض أهل البغى بالقتل فلن تسمع فى ديارهم الا الوعى[١٠٤]

وقـد كرر هـــذا المعنى فى قصيـدة اخـرى موجهــة الى الآلوسى أيضا ، ومنهـا

---

(٩٩) يريد به (الباز الاشهب) وهو من ألقاب الشيخ عبدالقادر
(١٠٠) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢ •
(١٠١) المسك الاذفر ـ ص ١١٩
(١٠٢) مرت من هذه المقصودة أبيات فى الفصل الثانى
(١٠٣) يشير الى الطاعون الذى دمر العراق سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م
(١٠٤) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٦ ـ ٣٤

ملك فأما حلمه فموقر ضافٍ وأما بطشه فشديد[105]

غير أن قصيدة واحدة وجدت في غير الديوان وقد خص بها هذا الوالي وقد صدرها بمقطع ثائر على الحياة وعلى العراق فقال

اعلل نفسي بنيل المنى وما لي الى نيلها مقتحم
ومن لي بعزم الجريء الأبي فلا ينثني عزمه ان عزم
فما لي أقمت بأرض العراق ولو لا خمولي بها لم أقم
وكنت ترحلت عن موطن اذا كنت في غيره لم اضم

ولكن الى أين يريد الشاعر أن يتجه ويترك العراق ؟

الى قائد عسكر المسلمين ومقدامهم في الحروب الدهم
على الرضا مشرفي القضا وغيث العطاء ، غياث الامم
أذل الطغاة وأردى الكماة وساق الصناديد سوق الغنم !!
حسام لدولة عبدالمجيد ملك الملوك وسيف خذم[106]

وقد مدحه السيد عبدالجليل البصري الطباطبائي بقصيدة ركيكة النسج وذكر أعماله مع المحمرة ، وقبيلة خزاعة ، ومعاركه مع الاكراد[107] ومدحه أيضا السيد صالح القزويني وتطرق لتعيينه من لدن السلطان محمود واقراره من قبل عبدالمجيد فقال

وشاهد خاقان الملوك سداده فقلده أمر العراق وولاه
ولما قضى المحمود ذكرا أقره عليه ابنه عبدالمجيد وأبقاه[108]

---

(١٠٥) المصدر السابق ص ٩٢
(١٠٦) راجع هذه القصيدة في مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١ م ٣ سنة ١٩٥٤م .
(١٠٧) راجع (روض الخل والخليل) ص ١٠٠ ـ ١٠٣ طبعة مصر ، و ١٤٧ ـ ١٥١ طبعة الهند
(١٠٨) ديوان السيد صالح القزويني ـ الورقة ٩٨

الوالي محمد نجيب :

ان هذا الوالي الذي جاء بعد علي رضا سنة **١٢٥٨هـ ١٨٤٢م** قد التف حوله الشعراء على الرغم من تعصبه التركي وغطرسته الشديدة ، ونظمت في مدحه قصائد كانت في مناسبات ذات أهمية ، وبعضها كان في أعمال ليست ذات شأن كبير ، وسأكتفي مما قيل في مناسباته ببعض الصور التي جاءت للعمري والاخرس ، وهي كفيلة برسم الجانب السياسي في أيامه ومقدار تأثير ذلك الجانب في نفوس الشعراء .

الشاعر العمري

ومن الحوادث التي استغلها هذا الشاعر حادثة انتصار محمد نجيب على أحمد بابان حاكم الاكراد(١٠٩) في السليمانة فنظم قصيدة جمعت بين هجاء الاكراد ومدح الوالي ، واستخدم فيها الشاعر كلمات فيها كثير من الشدة والاستهانة بالاكراد فقال

رجفت لهيبة بأسك الأطواد   وتفرقت بشعابها الأكراد
كروا ففروا كالحمير بأسرهم   اذ همهمت بزئيرها الآساد
الزور حلّ (بشهرزور) ولم يحد   عنها ولا أهلوه عنها حادوا
كفروا بنعمة ربهم فقتالهم   الله أكبر انه لجهاد !!

واذا كان أهل المحمرة روافض ــ كما سبق ــ فماذا يعتذر الشاعر حين كفر هؤلاء وعد قتالهم من قبل الوالي جهادا ؟ ومهما يكن من شيء فان هذا العمل

فتح به قطر العراق قد امتلا   فرحا وفيه استبشرت بغداد(١١٠)

ويؤرخ العمري هذه الحادثة بأبيات جاء فيها على سبل التورية

---

(١٠٩) راجع ص ٦٤
(١١٠) الترياق الفاروقي ــ ص ٢٤٤ و ٢٤٥

يأيهـــا الملك الذى آثـــاره فوق الأثير محلهـا ومكانهـــا

★ ★ ★

فتحت ولايـة شهرزور فأرخوا بسديد رأيك فتحت (بابانها)[111]

ومن المعلوم ان هذه الحادثة كانت سنة ١٢٦١هـ •

وكان هذا الوالى قد جاءه (المقرر الثانى) من السطان بابقائه واليا على العراق • وقد جاء هذا المقرر سنة ١٢٦٠هـ فاستغل العمرى هـذه المناسبة لنظم قصيـدة اسـتعرض خلالهـا حادثة هــذا الوالى فى كربلاء سـنة ١٢٥٨هـ[112] فقال

بك العـراق أحـرز الأمانيـا لـما تقررت علــيه واليــا

وقد تجاوز فيها حدود الواقع وكذب على التاريخ فقال

للعدل فى الزوراء رحت ناشرا مطارفا للجور فيهـــا طاويـا

ثم يشير الى قمع ثورة كربلاء

مهدت بالهنــدى يـوم كربلا هنـدية فاندرست مجاريـا[113]

وقد تركت الرفض فيها ضفدعا جفت سواقيـه فمات صاديـا

ويتنزل الشاعر مستخدما التورية

والســعد دام خادما ملازمـــا لبابك العالى و (عبدا باقيا)[114]

وليس هذا كل ما قاله العمرى فى هذا الوالى ففى ديوانه صور اخرى من مدحه ، وقد نظمها فى مناسبات متفرقة •

ومن الشعراء الذين مدحوا هذا الوالى

الشاعر الاخرس

وقـد اسـتهل الاخرس مدح الوالى محمد نجيب فى أول سنة من ولايته فنظم قصيدة استوحاها من حادثة كربلاء سنة ١٢٥٨هـ وذم الثائرين

---

(١١١) المصدر السابق ص ٢٤٥

(١١٢) راجع ص ٦٤

(١١٣) يشير الى المساعدة التى بذلها أهل الهندية على الفرات لسكان كربلاء

(١١٤) الترياق الفاروقى ـ ص ٢٤٦ و٢٤٧

وهنأ الوالى بانتصاره عليهم فقال مشيرا الى اليوم الذى وقعت فيه الحادثة وهو يوم عيد الاضحى

لقد خفقت فى النحر ألوية النصر وكان انمحاق الشر فى ذلك النحر
وفتح عظيم يعلم الله أنه ليستصغر الأخطار من نوب الدهر
محا البغى صمصام الوزير كما محا دجى الليل فى أضوائه مطلع الفجر
وكر البلا فى كربلاء فأصبحت مواقف للبلوى ووقفا على الضر
فدانت وما دانت لمن كان قبله من الوزراء السابقين أولى الفخر

* * *

رمتهم بشهب الموت منه مدافع لها شرر فى ظلمة الليل كالقصر

ويؤرخ هذه الحادثة فى ختام القصيدة فيقول

ولا زال فى عيد جديد مؤرخا
فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر[115]

واذا كان هذا العمل فتحا عظيما فأى شيء أدخره الشاعر ليقوله فى الممدوح لو أنه فتح قطرا كبيرا أو حارب دولة من الدول فانتصر عليها ؟

الوالى محمد نامق وثلاثة شعراء :

كان هذا الوالى مشيرا للفيلق المرابط فى بغداد وقد حدث قبيل ولايته عليها أن ثار أهالى (الهندية) من سكان الفرات الاوسط سنة **١٢٦٧هـ** **١٨٥١م** وكان الثائرون من عشائر (بنى حسن) فسار اليهم هذا المشير بجيشه وحاصرهم فى مكان يسمى (العوينة)[116] واحتل قلاعهم ، وقد أثر هذا الانتصار بالشاعر محمد أمين العمرى واهتز له فرحا فنظم قصيدة شديدة اللهجة أراد بها أن تكون ثورة على الثورة لا مدحا للمشير فقط ولم يخف شماتته بالمغلوبين الذين شردوا هم ونساؤهم وأطفالهم بعد أن قتل منهم من قتل ، وقد جاء فى القصيدة قوله

---

(١١٥) الطراز الانفس ص ١٦٨ و١٦٩
(١١٦) لعله ماء يسمى بهذا الاسم

يأيهـــا الملك المشـير القسـور هذا الجهاد هو الجهاد الاكبر !!
جاهدت أرباب الشقاق فأصبحوا طوع القيـاد لمـا تقول وتأمر
دارت عليهـم للنحوس دوائـر فيهـــا النـــكال مكور ومدور
جحدوا ومـا شكروا لنعمة ربهـم وطغوا وفى طرق الضلال تجبروا
فبطشت فيهم بطشة كبرى بها ذلوا وفى عـين (العوينة) صغروا
ظنوا القـلاع تصونهـم لكنهم لم يعرفوا ان الشـــقاء مدمـر
سخرتها قهـرا بيـوم واحـــد ولك العسير كمـا تشاء ميسر
فغدا (بنوحسن) لسوء فعالهم كانوا بهـا وكأنهم لم يذكروا
واقعتهـــــم بمدافـع كصواعق مثل الرواعد بالقنـابر تهدر[117]

واذا كانت محاربة عشيرة من العشائر جهاداً أكبر ـ كما يقول فى مطلع القصدة ـ فأى جهاد بقى للدولة فى حروبها مع الدول الكبرى ؟

ولعبدالباقى العمرى قصيدة فى مدح هذا الوالى قالها عند قدومه من الشام الى العراق وقد بالغ وأسرف فى المدح[118] .

وقد مدحه الاخرس بأكثر من قصيدة واحدة ومن هذه القصائد ما قاله عند نقله الى مشيرية المدفعية فى الاستانة سنة **١٢٦٩هـ ١٨٥٣م** وقد جاء فى أول القصيدة

دعـاك أمـير المؤمنـين وانمـا دعـا مسرعا فما يروم مسابقا

ويختار هذه القافية ليأتى بكلمة (نامق) فيقول فى غير تحفظ

فحق لبغداد البـكاء وكيف لا وقد فارقت فخر الوزارة نامقا

وهى طويلة لا شىء فيها غير الملق[119] .

ومدحه بقصيدة اخرى فى ولايته الثانية (**١٢٧٨هـ ٦١ـ١٨٦٢م**) وأثنى على الدولة والسلطان عدالعزيز لانه

أحـــــال العـراق الى نامق ليصلح مـا شـان من شانهـا

(١١٧) راجع (نشوة الشمول) لابى الالوسى ص ٤٨ و٤٩
(١١٨) راجع (الترياق الفاروقى) ص ٢٨٣ و٢٨٤
(١١٩) راجع (الطراز الانفس) ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧

أبـاد الطغـاة وأفنى العصـــاة ودمرها بعـد عصيانها[١٢٠] !!

وهنـأه في قصيـدة بوســام ورد اليـــه من الســلطان وأثنى على السـلطان لانه

جعـل العراق بنامق فى جنـة محفوفة بالروح والريحان[١٢١] !!

الوالى أحمد مدحة وثلاثة شعراء :

كان أحمد مدحة أفضل الولاة الذين حكموا فى العراق ولكنه جاء حين كان التميمى وعدالباقى العمرى فى ذمـة التاريخ ، وكان الاخرس يشرف على السعين من عمره ولم يبق فى بغداد من الشعراء من يملأ مكان اولئك • أما شعراء الحلة والنجف فقد كانوا على الاكثر بعيدين عن أعمال الولاة ومناسباتهم وقـد صدمهم مدحة بحادثة (الدغارة) التى شنق فيهـا الزعماء من الفراتيين لذلك كان الشعر الذى قيل فيه لا يرتقى الى مرتبة الشعر الذى قيل فى داود وعلي رضا ، على أن قصر المدة التى قضاهـا فى العراق كان من الاســباب فى قلة مـا مدح به ، ومع ذلك كان ذا نصيب غير قليل •

وقد مر فى فصل (الشعر والحوادث الوهابية) بعض القصائد التى تتعلق بأعماله بالاحساء ، أما فى غير هذه الاعمال فقد مدحه الشيخ أحمد قفطان النجفى المتوفى سنة **١٢٩٣**هـ بأبيات قالها عندما فتح بابا لسور النجف يؤدى الى النهر الصغير الواقع غربى المدينة • وكان هذا العمل سنة **١٢٨٨**هـ ومن هـذه الابيـات قوله

بـاب خـير فتحـوه رحمـة لســـقاة لقلـــوب ظاميـــات

أحمد مدحة باشـا من سرى فضلـه فينـــا مســـير النيرات

وقد مدح فى هذه الابيات السلطان عبدالعزيز[١٢٢] •

ومدحه السيد حيدر الحلى بقصيدة باردة العاطفة وقد جاء فيها

---

(١٢٠) المصدر السابق ـ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩
(١٢١) المصدر السابق ـ ص ٣٩٩ ـ ٤٠١
(١٢٢) راجع (شعراء الغرى) ص ١٧٥ من الجزء الاول

رواقك ذا لا بل وليجة خادر بل الليث يخطو دونه خطو قاصر
لك العسكر الجرار والهيبة التى مخافتها تكفيك جر العساكر(١٢٣)

ومدحه أيضا بقصيدة اخرى(١٢٤) وقد قال فيها

أثنت عليك بأسرها الدول وتشوقتك الأعصر الاول
وأعدت للايام جدتها فاليوم عمر الدهر مقتبل

ومنها

يا ابن الوزارة أنت واحدها لا راعها بفراقك الثكل(١٢٥)

وفى ديوان الاخرس قصيدتان أهمل فيهما اسم الممدوح ، ولم يهمل اسم وال من الولاة الذين مدحهم الاخرس غير مدحة لان الديوان طبع فى الاستانة أيام السلطان عبدالحميد وكان هذا لا يرضى بأن يذكر مدحة فى كل ما ينشر أو يطبع من صحف وكتب ، لذلك يغلب على الظن أن القصيدتين فى مدح هذا الوالى ولاسيما أن احداهما تشير الى أن الممدوح ذهب الى البصرة لاخماد ثورة هناك ، والمعروف أن مدحة سافر الى البصرة فى طريقه الى الاحساء ، يضاف الى هذا أن الاخرس قال فى مكان آخر مؤرخا قصرا بناه نقيب البصرة لينزل فيه المشير ، وكان بيت التاريخ

فقلت لسيد النقباء أرخ مبانيها يشرفها المشير(١٢٦)

وهذا التاريخ يوافق سنة ١٢٨٦هـ ، وفى هذا الوقت كان الوالى فى بغداد مدحة . أما القصيدة الاولى فقد جاء فيها

شرف البصرة مولانا المشير(١٢٧) وتوالى البشر منه والسرور

---

(١٢٣) راجع (الدر اليتيم) ص ٢١٠ ـ ٢١١ و (العقد المفصل) ص ١٥٥ ج ٢

(١٢٤) نظم هاتين القصيدتين استجابة لرغبة صديقه التاجر البغدادى الحاج مصطفى كبه

(١٢٥) راجع (الدر اليتيم) ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ و (العقد المفصل) ص ١٥٦ و١٥٧ ج ٢

(١٢٦) الطراز الانفس ـ ص ٢٤١

(١٢٧) كان مدحة يلقب بلقب (المشير) لانه كان رئيسا للفيلق المرابط فى بغداد

وقال فيها

انت ظل مده الله على أهل هذا القطر ان حان الهجير
تمحق الباغين عن آخرهم مثلما يمحو الدجى الصبح المنير
أصلحت بيضك ما قد أفسدوا وكنا بالمفسد الجد العثور
عدت منصورا بجند ظافر وجناب الحق مولانا النصير[١٢٨]

واذا صح ما ذهبت اليه فان هذه العودة الظافرة كانت من الاحساء ، ولولا الشك الذي يحوم حول اسم الممدوح لكان من حق هذه القصيدة أن تأخذ محلها في الحوادث الوهابية .

أما الثانية فقد جاء فيها قوله

جئت بالخير علينا مقبلا وتنقلت مع السعد انتقالا
ورأينا منك ما لم نره قبل أن جئت كمالا وجمالا[١٢٩]

مصطفى عاصم وثلاثة شعراء :

وكان عاصم قد ولي بغداد سنة **١٣٠٣هـ ١٨٨٧م** وقد مدحه جميل صدقي الزهاوي بأبيات ـ أو قصدة ـ جاء فيها

بكيت ولكن لا بكاء الغمائم ونحت ولكن لا نواح الحمائم
وهل ينفع الباكين شجوا بكاؤهم اذا لم يصادف في الهوى قلب راحم

ثم يتخلص الى الممدوح على الطريقة التقليدية فيقول

وكيف أخاف الدهر أو أرهب الردى
وقد لذت من صرف الزمان بعاصم[١٣٠]

ولا يخفى ما في البيت من تورية .

ومدحه السيد جعفر الحلي والشيخ طاهر الدجيلي وقد مرت الاشارة الى ذلك في مدائح السلطان عبدالحميد[١٣١] .

---

(١٢٨) راجع (الطراز الانفس) ص ١٧١ ـ ١٧٣
(١٢٩) راجع المصدر السابق ص ٤٥٢ و٤٥٣
(١٣٠) الكلم المنظوم ـ ص ١
(١٣١) راجع مدح السلاطين في هذا الفصل

سرى الكريدى وطائفة من الشعراء :

جاء سرى الكريدى واليا سنة **١٣٠٧هـ ١٨٩٠م** وكانت الثورات القبلية قد خفت الى حد ما ، فانصرف هذا الوالى الى بعض الاعمال العمرانية ومنها انشاء متنزه فى ساحة الميدان ببغداد[١٣٢] ، وقد نظم أحمد الشاوى قصيدة بهذه المناسبة ، وقال فيها

ألم تر كيف الارض تشقى وتسعد　　　وتصلح طورا بالولاة وتفسد

ومنها

وحسبك فى ميدان بغداد عبرة　　　وشاهد عدل بالذى قلت يشهد

فبيناه فى حال تسؤك حاله　　　اذا هو من بين الميادين يحسد

ولكن المناسبة التى انشأت موسما للشعر هى التى تم فيها بناء سد على فم نهر الهندية[١٣٣] ليجرى الماء فى نهر الحلة وكانت هذه المدينة معرضة للعطش الذى اشتد سنة **١٣٠٢هـ** بسبب انقطاع المجرى ، وفى سنة **١٣٠٨هـ ١٨٩١م** تم انشاء السد على نهر الهندية ليأخذ نهر الحلة حقه من الماء ، وحين تم العمل احتفل الأهلون احتفالا مشهودا حضره الوالى (سرى) ووجهاء بغداد والحلة وسفراء الدول وألقيت الخطب والقصائد[١٣٤] ، ومن الشعراء الذين نوهوا بهذه المناسبة أحمد الشاوى فقد جاء فى قصيدته سالفة الذكر أبيات يمدح بها (سرى) ويثنى على جهده المبذول فى اقامة السد ومنها قوله

---

(١٣٢) يقع هذا الميدان أمام باب القلعة القديمة وهى من مداخل وزارة الدفاع الآن

(١٣٣) انشأ هذا النهر المهراجا آصف الدولة الهندى سنة ١٢٠٨هـ ٩٣ ـ ١٧٩٤م لمنفعة النجف فأضر بالحلة وقد انهارت السدود التى اقيمت على مدخله ولم يبق ثابتا الا السد الذى تم بناؤه سنة ١٩١٣م

(١٣٤) اخبار بغداد وما جاورها من البلاد ـ لمحمود شكرى الالوسى الورقة ٦١ ج ١ من نسخة يعقوب سركيس و (الروض الازهر) ص ٢٠٣ ويشير هذا الكتاب الى ان الاحتفال كان فى ١١ ربيع الاول سنة ١٣٠٨هـ الموافق ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٩١م

وفى الحلة الفيحاء أبلـغ حجة　　متى هى قامت منكر الحق يقعد
تصدى لها والى الولايـة باذلا　　لجاشته ، والنافر الجـأش يرعـد
ونـاء الى سـد الفـرات بنية　　حميدية التوفيق للرشد ترشد[135]

ولا يخفى ما فى هذا البيت من مدح للسلطان عبدالحميد .

وللسيد محمود شكرى الآلوسى أبيات بهذه المناسبة ، ومنها ـ يخاطب الوالى سرى ـ

بسديد الرأى قد أحكمت سدا　　وبـه أنجزت للآمـال وعـدا
وفرات المـاء قـد عـاد كمـا　　كان فى السابق يجرى مستبدا

وللشيخ محسن العذارى الحلى مشاركة فى هـذه المناسبة فقد مدح السلطان والوالى لان الماء عاد الى الحلة بعد انقطاعه ، أما هـذا السد فقد فاق كل عمل

فلا السويس ولا حفر الخليج ولا　　سكور كسرى ، ولا الزباء فى القدم

وللشيخ عباس العذارى أيضا مشاركة شعرية ومنهـا

سـد بـه سـر العراق وأهله　　فغدا لهـم مذ تم عيـدا أعظما

وللشيخ علي بن حمزة الحلى قصيدة ومنها فى مدح سرى

لولاك ما ارتوت العطاش ولا جرى　　وسط الفرات ـ وراحتيك ـ الماء

ومثل هؤلاء الشيخ حسن العذارى فانـه يصف عطش أهـل الحلة والرزايا التى حلت بهم حتى شاب لها الوليد

الى أن شـكوا بالتلغرافات ضيمهم　　الى الملك المنصور ذى العدل والرفد
فسـير للزورا وزيـرا ووالـيا　　به الطالع المنحوس آل الى السعد

وللشيخ محمد سعيد بن محمود النجفى قصيدة بهذه المناسبة وأولها

شكرت مساعى خير والى قسور　　من يصنع المعروف فينا يشكر

وكذلك الشـيخ عدالوهاب نائب قضاء بغـداد ، والسيد محمد باقر الطباطبائى[136]

---

(١٣٥) اخبار بغداد وما جاورها من البلاد ـ الورقة ١٦ ج ١
(١٣٦) راجع المصدر السابق الاوراق ١١٣ ـ ١٢٠

وللسيد ابراهيم الطباطبائي قصيدة بهذه المناسبة[١٣٧]

ولكن هـذا العمل ليس وحده من بواعث الشعر الذى قيل فى هذا الوالى فقد مدحه أحمد الشاوى بقصيدة اخرى غير تلك التى أسلفنا ذكرها وتطرق فيها الى مدح السلطان عبدالحميد أيضا ومنها قوله

سلمت أمير المؤمنين ولـم تزل لك الراية العلياء تخفق بالنصر

★ ★ ★

فأضحكت من قد كان بالأمس باكيا ببغداد لا ينفعك مدمعه يجرى

فلو طـار انسـان من النـاس قبلهـم

لطاروا سرورا يعلم الله من (سرى)[١٣٨]

ومدحه السيد ابراهيم الطباطبائي ومما قاله فيه

قد حل فيك من العراق وثاق ولديك منه الأسر والاطلاق[١٣٩]

وحياه السيد جعفر الحلي بقصيدة عندما زار النجف وأولها

مرنا فأمرك فى العـراق مطاع أنت الزعيم وكلنا أتبـاع[١٤٠]

ولكن هذه المدائح ليست دليلا على انتشار العدل فى أيام هذا الوالى لان بقاءه فى العراق لم يدم أكثر من سنة وستة أشهر وأيام ، وقد كانت المناصب فى أيامه تباع بيع المتاع حتى كثر شاكوه الى السلطان وشغبوا عليه بعد أن أغدقوا عليـه التحف والهدايا[١٤١] غير أن أعمـاله تلك وما كان يدعيه من العلم والتأليف[١٤٢] كل ذلك قد دفع الشعراء الى مدحه •

ولاة آخرون

ليس للولاة الذين جاؤا بعد سرى شأن مرموق فى دنيا الشعر فقد خلفه الحاج حسن رفيق سنة ١٨٩٢م وعطاءالله الكواكبى السورى العلوى

---

(١٣٧) راجع ـ ديوان الطباطبائي ـ ص ٢٧٦

(١٣٨) ارسل الىّ هذه القصيدة الاستاذ محمد بهجة الاثرى

(١٣٩) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ١٨٩

(١٤٠) سحر بابل ـ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤

(١٤١) هذا تعليق الاثرى على قصيدة أحمد الشاوى

(١٤٢) له كتاب (أحسن القصص) فى تفسير سورة يوسف

سنة ١٨٩٦م وقد ورد بعض المدح لهذين الواليين فى ديوان السيد جعفر الحلى ومما قاله فى الحاج حسن رفيق

بشرى العراق ففيك أشرق نورها   هى جنة الدنيا وأنت وزيرها[١٤٣]

أما الكواكبى فقد جاء ذكره عرضا فى قصيدة مدح بها السلطان عدالحميد ومنها

هو سيد وكواكبى نسبة   وعلومه للعالمين تفيد[١٤٤]

وانتهى القرن التاسع عشر بولاية نامق الصغير[١٤٥] الذى خلف الكواكبى .

ولاة الموصل :

لقد مر بنا فى الفصل السياسى أن ولاية الموصل استقلت القرن التاسع عشر وولاتها من الاسرة الجليلية ، ومر كذلك فى بحث الحالة العلمية والادبية شيء من أثر هذه الاسرة فى تشجيع الادباء وطلاب العلم وكان لابد لهذه الرعاية أن تجد صدى فى نفوس الشعراء ، ولكن ما قيل فى آل الجليلى لا يضيف شيئا جديدا الى ما قيل فى ولاة بغداد سوى الاسماء والمناسبات أما التعبير والاسلوب والمعانى فهى من لون ما كان فى بغداد أن لم تكن أقل وأدنى ، وكان من أبرز شعراء الجليليين آل العمرى والغلامى .

ومن مناسبات هذا الشعر اسناد الوزارة الى أحمد بن سليمان الجليلى سنة ١٢٢٩هـ ١٨١٤م ثم منحه وظفة فراش الحضرة النبوية بمرسوم سلطانى سنة ١٢٣٠هـ ١٨١٥م فقد كان لهذه المناسبة تأثير فى نفوس شعراء الموصل ومنهم عدالله العمرى ومن شعره قوله

بشير المعالى بالوزارة حياكا   فبشراك يا رب المكارم بشراكا
أهنك فى ملك وسعد مؤبد   مدى الدهر للأحكام مولاك ولاكا

---

(١٤٣) سحر بابل ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥
(١٤٤) المصدر السابق ـ ص ١٥٨
(١٤٥) لقب بالصغير تمييزا له عن الوالى الاسبق محمد نامق

ويستخدم الناظم فى هـذه القصيدة أسماء العـلوم ومصطلحاتها فى المدح ، من الجزم بحفظ الجار الى رفع لواء العدل ، وان الممدوح أصبح طويل المدح فيـه قاصرا لانـه بحر لا تحصى سـجاياه ، ويختم القصيـدة ببيت تاريخ

أقول بختم القول فيك مؤرخا   فيا أحمد تاج الامارة وافاكا[١٤٦]

وقـد مدحـه قاسـم حمدى بن يحى حين جـدد سـور الموصـل سنة ١٢٣٦[١٤٧] .

أما محمد الغلامى مفتى الشـافعية بالموصل فانه نظم ديوانا فى هـذا الوزير وضمنه تسعا وعشرين قصيدة كل قصيدة تحتوى على تسعة وعشرين بيتا مرتبة على حروف الهجاء وقد تكلف فى هذه القصائد فجعل أول البيت كآخره ، وسمى هذه المجموعة (الجمان المنضد فى مدح الوزير أحمد) ومن أمثلة هذا الشعر قوله

خليفة هذا العصر للعدل أحمد   حميد السجايا أرفع المجد أشمخ
خبير بتذليـل الطغـاة فلم تزل   صوارمـه للمارقين تدوخ[١٤٨]

وكان الوالى يحى بن نعمان الجليلى مثابة للشعراء فقد ولى الموصل سنة ١٢٣٨هـ ١٨٢٢ وتكررت هذه الولاية سنة ١٢٤٩هـ ١٨٣٣م[١٤٩] ، وفى هاتين الولايتين برزت شخصيته ومنح رتبة كبير الوزراء ومدح بشعر غير قليل جمعه عبدالباقى العمرى وسمى المجموعة (نزهة الدنيا فيما ورد من المدائح على الوزير يحى)[١٥٠] . وقد ألف هذه المجموعة سنة ١٢٤٠هـ وانتهى منها سنة ١٢٤١هـ أما الشعر الذى جمع فيهـا فانه كان متشابها فى

---

(١٤٦) الجمان المنضد ص ٨ و ٩ طبع الموصل سنة ١٩٤٠م
(١٤٧) المصدر السابق ص ١١ و١٢
(١٤٨) المصدر السابق ص ١٣٠
(١٤٩) توفى يحى فى القسطنطينية سنة ١٢٨٤هـ ١٨٦٧م
(١٥٠) توجد من هذه المجموعة نسخة خطية فى مكتبة الآثار ببغداد وقد أخذت عن نسخة بخط يونس الوهبى الموصلى والمرجع هنا نسخة الآثار

الموضوع والاسلوب بل كان كأى شعر نظم فى المدح ، وكان ابتهاج الشعراء فى انتصار هذا الوالى على خصومه فى الثورات التى يقمعها من مميزات هذا الشعر ، وان كان الانتصار بقتل النساء والاطفال والشيوخ ، وحرق البيوت ونهب القرى ، ومن أمثلة ذلك ما قاله محمد أسعد شقيق الوزير يحى يهنىء أخاه بانتصاره على اليزيديين فى احدى ثوراتهم فى (الشيخان) وكان هذا العمل قبل أن يكون واليا

عسى ولعل أن يطفى لهيبى وأبلغ ما أؤمل من مراد
كما قد نال يحى العز لما أطاعته الجبال من الوهاد

* * *

وأهرق من نجيع بنى يزيد دماء سال منها كل واد[151]

وتكررت مدائحه لاخيه فى مختلف المناسبات[152] .

وحين اسندت الوزارة ليحى سنة ١٢٣٨هـ هنأه الشعراء بها واستعرضوا وقائعه مع اليزيديين فى (الشيخان) و (سنجار) من مقاطعات الشمال .

ومن هؤلاء الشعراء قاسم حمدى ، وقد قال فيه

تهن وخذ يحى الكتاب بقوة لك الامر فافعل ما تروم وتقصد[153]

والحاج محمد سعد الجوادى ومن شعره فى ولاية يحى

وأتت الى يحى أبى الفضل الذى أحيت مكارمه بنى العباس[154]

وله فيه وقد أشار الى وقائعه مع اليزيديين فقال

وقد أخذت ثار الحسين جيوشه بسنجار حتى أن أطاع خصيمها[155]

ومدحه عبدالله العمرى بهذه الوزارة[156] .

أما محمد الغلامى فانه سجل النزاع الذى حدث بين الاسرة الجليلية على الحكم فى قصيدة يمدح بها هذا الوالى

---

(١٥١) نزهة الدنيا ـ الورقة ٩
(١٥٢) راجع المصدر السابق الورقتان ١٦ و١٨
(١٥٣) المصدر السابق الورقة ٢٢
(١٥٤) المصدر نفسه الورقتان ٣٠ و٣١
(١٥٥) المصدر السابق الورقتان ٤٦ و٤٧
(١٥٦) المصدر السابق ـ الاوراق ٧٠ و٧١ و٧٣ و٨٠

يا لهـا من سقيفة حل فيهـا   آل عبدالجليل لمـا تلاحـوا
كلهـم يطلب الرياسـة لـكن   لفسـاد الامور فيهـا الصـلاح
لغط القوم قـد علا فيه حتى   قارب الأمر أن تسل الصفاح
وحين رأى يحي أن الامر اشتد
سل من عزمه الشديد حساما   خضع الكل عنده واستراحوا[١٥٧]

ومدحه بقصيدة اخرى استعرض فيها انتصاره على اليزيديين فقال

قد اعتصمت فيه الجزيرة كلها   وفى بعضها وافاه حكم ومنصب
وسنجار لمـا جار أولاه سطوة   فأولاده والمال تسبى وتنهب[١٥٨]

وقد سار الشـاعر فى البيت الاخير على طريقة اللف والنشر ولكنه سجل حقيقة من حقائق التاريخ فى أعمال يحى مع اليزيديين ٠

ومدحه محمد الفهمي وذكر وقائعه مع اليزيديين أيضا[١٥٩] ٠

ومدحه محمد أمين العمرى بقصائد بالغ فيها[١٦٠] ٠

أما عبدالباقى العمرى فقد خلا ديوانه المطبوع من القصائد التى مدح بها يحى ولكنه أثبتهـا فى (نزهة الدنيا) وقـد سجل لنـا فى احدى هذه القصائد تعيين يحى من قبل داود والى بغـداد واسـناد الوزارة اليه سنة ١٢٣٨هـ واقرار السلطان لهذا التعيين ، وفى هـذه القصيدة دليل على أن والى الموصل لا يعين الا بموافقة والى بغداد فى عصر المماليك ، وقد جاء فى هـذه القصيدة قوله

ملك كانت الـوزارة ترعـا   بعين مـذ كان رهن المهود
يوم جـاء البشير بالحـكم فورا   قلت شـعرا يضوع أرخ بعود
ان يحى بجـده وأبيـه   نال فصل الخطاب من داود[١٦١]

---

(١٥٧) المصدر السابق الورقة ٩٣
(١٥٨) المصدر السابق الورقة ١٠٠
(١٥٩) المصدر السابق الورقتان ١١٢ و١١٣
(١٦٠) راجع المصدر السابق الورقتان ١٢٦ و١٢٧ و (المسـك الاذفر) ص ١٥٨ و١٥٩
(١٦١) نزهة الدنيا ـ الورقتان ١٣٢ و١٣٣

ولاة البصرة وحكامها :

لقد حكم البصرة عدد غير قليل من الولاة والمتصرفين وكأن شأنها في ذلك شأن بغداد والموصل ، وقد قيل فيمن حكمها شعر غير قليل ولكن تناول هذا الشعر بجميع صوره لا يأتي بشيء جديد في هذه الدراسة ، لذلك أرى من الافضل أن أقتصر على بعض صوره ، وأن أتناول هذه الصور بمثل ما فعلت في ولاية الموصل ، وأن أترك الكثير من هذا الشعر لتاريخ الادب وحده ، وأكثر من ذلك انى سأتناول شاعرا واحدا لعله خير مرآة تعكس السياسة في البصرة ، وهذا الشاعر هو عبدالغفار الاخرس ، ولعل من المستغرب أن هذا الشاعر الذى ولد في الموصل ونشأ في بغداد كان كثير الترداد على البصرة فلا يكاد يفارقها الا ليعود اليها .

وقد كان له فيها أصدقاء من ذوى اليسار والثروة ، وقد أتاح له تردده الى البصرة أن يتصل بالحكام والموظفين وأن يسمعهم قصائده ، ومن الحكام الذين مدحهم حسام‌الدين القدسي الحلبي وقد كان هذا بمنصب قائم مقام في البصرة سنة ١٢٧٦هـ[١٦٢] ١٨٦٠م ، ومن مدائح الاخرس فيه قصيدة أولها غزل وتشبيب ، أما المدح فمنه

قد بلونا الناس في أحوالها ... وعرفناهم كراما ولئاما

فمحال أن ترى عين امرىء ... كحسام‌الدين للدين حساما

ويظهر من القصيدة أن الممدوح شريف النسب لانه

من كرام سادة لم يخلقوا ... بين أشراف الورى الا كراما

* * *

حاكم بالعدل علوى الثنا ... عن (على) قام بالحكم مقاما[١٦٣]

ومدحه بقصيدة اخرى ليس فيها شيء سوى أن الممدوح كان يعطف على الشاعر

قارعت أيامي لعمرك جاهدا ... حتى انتضيت لها حسام‌الدين

أعلى مقامي في على مقامه ... فرأيت منزلة الكواكب دوني

---

(١٦٢) سالنامة البصرة ـ الدفعة الثانية سنة ١٣٠٩هـ

(١٦٣) راجع (الطراز الانفس) ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤

فتكاثرت نعم على بفضلـــه من فضله وأقلها يكفينى[١٦٤]

وفى سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م كان حاكم البصرة القائم مقام محمد منيب[١٦٥] ، وللاخرس فيه قصيدة لا تدور حول المدح حسب بل تجاوزته الى تصوير حادثة من الحوادث التى كانت تقع بكثرة • ويظهر من هذه القصيدة أن هذا القائم مقام أخمد ثورة قبلية ولكن الشاعر لم يعين المكان ولم يذكر اسم القبيلة الثائرة غير أن سياق الشعر يدل على أن التمرد كان من قبيلة تابعة لايران ، وأول القصيدة

هست هنيت بالاقـــدام والظفر فاسلم ودم سالما بالعز وافتخر

أنت المنيب الى الله العزيز بـه والمتقى منه فى أمن وفى خطر

ويبدو أن هذا الحاكم استعان ببعض القبائل النجدية لمحاربة الثائرين

لبتك أبنـــاء نجد اذ دعوتهـم فأقبلت زمـرا تأوى الى زمـر

ثم يصف الحرب وانها كانت تقوم على المدافع

وللمـدافع ارعـــاد وزمجـــرة ترمى جهنمهـا الطاغين بالشرر

أما الثائرون فانهم

فى كل عام لهم حرب ومعترك وموعـد للمنايـــا غـير منتظر

ورأس الخط لمعرفة الثائرين أو المتمردين قوله

ورب أحمق معروف لشـهرته وافاك من قومه الأعجام فى نفر[١٦٦]

وله فيه قصدة اخرى يبدو منها أن الممدوح علوىّ النسب

فرع ســادات المعـالى والعـلا علوى الاصـل علوى المقـــام

من أناس خلقــوا مـذ خلقــوا ســادة الدنيـا وأشراف الأنـام

ويعين وقت مجيئه الى البصرة

قرت البصـرة عنـــــا بالذى حل فى البصرة بالشهر الحرام[١٦٧]

---

(١٦٤) المصدر السابق ـ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦

(١٦٥) سالنامة البصرة ـ الدفعة الثانية سنة ١٣٠٩هـ

(١٦٦) راجع ـ الطراز الانفس ـ ص ١٧٤ ـ ١٧٦

(١٦٧) مجموعة للاخرس لم تنشر ـ الورقة السادسة من نسـخة يعقوب سركيس والسابعة من نسختى

أما ناصر السعدون فان للاخرس فيه مدائح كثيرة ولكنه مدحه ولما يدرك أيام ولايته على البصرة لانه عين واليا سنة ١٢٩١هـ وهى السنة التى توفى فيها الاخرس ، ووصل بغداد متوجها الى مقر ولايته فى الثالث عشر من رمضان سنة ١٢٩٢هـ(١٦٨) الموافق للخامس عشر من تشرين الاول سنة ١٨٧٥م •

غير أن ناصرا كان من سيوف الدولة ومن المشاركين لها فى أعمالها قبل أن يكون واليا وحين كان متصرفا للواء المنتفق(١٦٩) • وقد مر فى بحث الحالة السياسية شيء من أعماله فى محاربة السعوديين بجانب الوالى مدحة •

ولهذا أرى ما قيل فى ناصر السعدون لا يختلف عن موضوع الشعر الذى قيل فى الولاة الآخرين ، غير أن شعر الاخرس فى هذا الوالى الزعيم كان يجمع بين الصبغة الحكومية والصبغة العربيـة المستوحاة من شخصية الممدوح وأسرته وتقاليده • ومن هذا الشعر قصيدة كانت مناسبتها حدوث ثورة دموية فى البصرة وقـد قضى ناصر على هـذه الثورة ، ومما جاء فى هذه القصيدة قوله

محوت بسيف سطوتك الفسادا بحكم قد أرحت بـه العبـادا
دخلت البصرة الفيحـاء صبحا ونار الشـر تتقـد اتقـادا
وقد عبثت يد الأشرار فيهـا وطال فسـادهم فيهـا وزادا
لقد حكمت بهـا جهـال قوم يرون الغى يومئـذ رشـادا

* * *

ولما سـاءت الاحوال فيهـم ولا نفـع الحفـاظ ولا أفـادا

---

(١٦٨) الزوراء ـ العدد ٥٧٣ من السنة السابعة ـ ١٦ رمضان سنة ١٢٩٢هـ

(١٦٩) حاز ناصر السعدون رتبة أمير الامراء سنة ١٢٨٣هـ ١٨٦٧م وحين عين واليا للبصرة كان فى الاستانة ، ثم عاد بعد ذلك اليها وعين عضوا فى مجلس شـورى الدولة وبقى فى الاسـتانة حتى توفى سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م ولقد كان ناصر أول عراقى يعين واليا للبصرة وكانت له يد فى رد هجوم الفرس على هذه المدينة راجع (ذكرى السـعدون) للشيخ على الشرقى ص ٤٥ و (مباحث عراقية) ص ٥ ج ١ و ص ٢٥٧ ج ٢ •

وبات الناس فى وجل عظيم يريع السمع منه والفؤادا
دعيت لكشف هذا الضر عنها ولا يدعى سواك ولا ينادى(١٧٠)

وله فيه قصيدة اخرى جاء فيها

ولو علم السلطان اقدام ناصر لما استنصر السلطان الا بناصر
همام أباد المفسدين ودمرت صوارمه من كل باغ وفاجر(١٧١)

وقصيدة ثالثة منها

ومنزلة بين الفرات ودجلة اذا لم يكن فيها المشير فناصر

★ ★ ★

رحى الحرب ان دارت رحاها فانه هو القطب ما دارت عليه الدوائر(١٧٢)

وله فيه قصيدة اخرى ، منها

أبا فالح سدت الأمور بحكمة وأنت خبير بالسياسة عالم

★ ★ ★

بطشت بمن يبغى عليك بكيده وأنت رؤف بالرعية راحم
وأبقيت دار المفسدين بلاقعا خلا عالم منها وأقوت معالم(١٧٣)

وعند هذا الحد ينتهى البحث فى الشعر الذى سار فى ركاب الدولة وولاتها ممثلا فيه معظم الشعراء من بغداد والموصل والنجف والحلة ، وقد توخت فيه ابراز الخطوط العامة الموضحة لمسلك الشعراء حيال السياسة ومواقفهم من أعمال الدولة والولاة ، وراعيت فيه أهم النواحى ، وأهم الولاة و أشهر الشعراء ، وتركت ما كان مدحا خالصا ليس فيه تسجيل لحادثة أو مناسبة هامة فى تاريخ الدولة والعراق .

وعند هذا الحد أيضا ينتهى بحث الشعر السياسى فى كافة نواحيه من ايجابى يرضى شعور الدولة والولاة ، وسلبى يمثل شعور الساخطين على الدولة والحكم ، والناقمين على أعمال الولاة والموظفين .

---

(١٧٠) الطراز الانفس ـ ص ١٢٧ ـ ١٢٨
(١٧١) المصدر السابق ـ ص ١٧٨ ـ ١٨٠
(١٧٢) المصدر السابق ـ ص ١٧٦ ـ ١٧٨
(١٧٣) راجع ـ المصدر السابق ـ ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢

الفصل الخامس

القيم الفنية والموضوعية

نظرة عامة فى شعر القرن التاسع عشر

أربعة فصول مرت هى خلاصة الشعر السياسى فى العراق ابان القرن التاسع عشر وهى أظهر ما فى هذا القرن من شعر يصور السياسة فى أساليبها ومراحلها ويرسم أحداثها الكبرى والصغرى فى العراق وما حوله بل هى أبرز ما فى الشعر السياسى من صور تمثل سخط الشعراء ورضاهم ، واندفاعهم فى ركاب الدولة وثورتهم عليها ، وانطلاقهم فى رحابها والمهم منها ، وهى أبرز الصور أيضا لتأثير السياسة فى هؤلاء الشعراء سلبا وايجابا ومقدار تصويرهم للحياة والاحداث من زاوية الدولة أو من زاوية الامة المحكومة ، وهى أبرز الصور للموضوعية التى تناولها الشعراء فى ظل السياسة ، والفنية التى استجابت لتلك الموضوعية وطاوعتها وعبرت عنها واندفعت بها من عالم التجربة والشعور الى مجال الرسم والتسجيل ، غير أنه لابد من دراسة الموضوعية والفنية لهذا الشعر ولابد من الكشف عن أهم القيم فيه وعن مدى الاداء اللفظى الذى استجاب له وقبل أن أدرس هذه الناحية لابد أن أشير الى أن دراسة الشعر فى عصر ما أو دراسة شاعر واحد فى أى عصر من العصور لا تتم الا بدراسة ذلك العصر الذى ولد فيه الشعر أو ظهر فيه الشاعر وهذه الدراسة قد مرت فى الباب الاول بما تضمنته من فصول ثلاثة فى السياسة والمجتمع والثقافة وقد أوضحت فى تلك الفصول

الثلاثة جوانب السياسة فى أهم خطوطها واتجاهاتها والمجتمع العراقى فى حياته ومعيشته وفى عناصره وتقاليده وعاداته وفى دياناته ومذاهبه ، والثقافة العامة فى أهم ألوانها وأشكالها ولاسيما الثقافة العربية التى كانت تشق طريقها بين العواصف والامواج وتصارع العجمة الخانقة من الترك والفرس • وعلى ضوء هذه الدراسة العامة يمكن أن ترسم صورة معبرة كاشفة لحياة الشعراء وثقافاتهم وسلوكهم وتناولهم الموضوعات العامة والخاصة ومنها موضوعات الشعر السياسى •

واذا كانت الفصول الثلاثة ـ وقبلها التمهيد ـ قد وضعت لتكون مدخل البحث وخط السير الموصل الى موضوع الشعر السياسى فان ربطها بهذا الموضوع وغيره من الموضوعات الاخرى وتأثيرها فى اتجاه الشعراء أمر لا يقل عما سواه فى الدراسة والتتبع ، ولا شك فى أن ما استعرضته من الشعر فى الفصول الاربعة الخاصة به كفيل بتوضيح هذه الجوانب كلها والكشف عن أثر السياسة والمجتمع والثقافة فى الشعراء ففى هذا الشعر ما يكشف عن سلوكهم السياسى العام والخاص وفى هذا الشعر ما يوضح علاقتهم بالمجتمع وفى هذا الشعر ما يصور مدى قابلياتهم الفكرية واللغوية واذا كنت قد أشرت فى بحث الحالة العلمية الى الموضوعات التى تناولها الشعراء مما يتصل بالحياة العامة فان ذلك التلميح كاف فى معرفة الاثر الذى أحدثته ظواهر المجتمع فى اولئك الشعراء فقد نظموا فى معظم الاغراض العمودية من مدح ورثاء وهجاء ووصف وغزل وخمريات وأكثروا فى الموضوعات الدينة فنظموا فى مدح النبى وآل البيت ورثائهم ولاسيما الامام الحسين[1] ونظموا فى التصوف مدحا وذما[2] ووصف بعضهم الفقر الذى كان يعانيه الشعراء وهم جزء من المجتمع[3] وتناولوا مجالس اللهو

---

(١) ان معظم الدواوين والمجموعات ملىء بهذا اللون ولاسيما ما كان منها فى الحلة والنجف

(٢) راجع ديوان عبدالباقى العمرى (الترياق الفاروقى) فى كثير من صفحاته و (الطراز الانفس) ص ٣٧ وما بعدها وص ٢٤٢

(٣) مرت أمثلة من ذلك فى بحث الحالة العلمية

والخمر[٤] وصور بعضهم ما كان يحدث من فتن داخلية لا شأن لها بالسياسة[٥] ، ولما كنت في غنى عن الاطالة في بحث هذا الاثر في الشعر فان التوضيح في دراسة الاثر الثقافي شيء لابد منه في معرفة القيم الموضوعية والفنية في الشعر السياسي والوقوف على مدى التفكير والقابلية عند الشعراء وما رافق ذلك من أداء وتعبير لذلك أرى لزاما أن استعرض أثر الثقافة بصورة موجزة لانتهى منه الى تقدير ما ذكرته في الفصول الاربعة من شعر يتصل بالموضوعات السياسية ووضعه في المكان الذي يستحقه بين الدراسات •

الشعراء في مستواهم الثقافي

ان شعراء العراق في القرن التاسع عشر يمكن أن يقسموا من حيث مستوى الثقافة الى طبقات فطبقة منهم كانت موفورة الحظ من الاطلاع على اللغة والادب الى جانب الدراسة الدينية وما يتبعها من العلوم اللسانية • وطبقة اخرى كانت على شيء لا بأس به من الاطلاع والدراسة والحفظ ولكنها دون سابقتها في سعة الافق ، ومنهم طبقة لم تكن معروفة بالدراسة المألوفة فيما عدا اليسير من النحو وغيره والاطلاع القليل على مصادر الادب القديم ولكنها كانت تمارس الشعر بدافع من الذكاء وبما اتيح لها من مخالطة واسماع • غير أن هذا التقسيم لا يعني أن الطبقة الاولى كانت أشعر من الثانية وأن الثانية كانت أشعر من الثالثة فقد يكون في الاولى شعراء وقد يكون فيهم نظامون لس لهم حظ من الشعر الا جمع المفردات اللغوية وقد يكون في الطبقة الثالثة شعراء لهم من صدق الحس والاداء ما يجعلهم في الطليعة اذ ليست الميزة بالرصف وتخير الكلمات الدالة على كثرة الحفظ وانما الميزة أن يكون الشاعر قادرا على رسم التجربة بما يلائمها من الالفاظ الدالة الموحية ، واذا كانت كثرة الحفظ قد تفيد في تخير الكلمة المناسبة

---

(٤) الطراز الانفس ص ٢٤٢ و٢٤٣ و٢٧٢ و٢٧٣ وفي ديوان الحبوبي أمثلة كثيرة لذلك

(٥) راجع ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ص ٥٣

واللفظ الملائم فانهـا قـد توقع الشـاعر فى حيرة واضطراب فتبرد التجربة ويضعف الخيال الناشط مع تلك التجربة أثناء البحث عن الـكلمة المتخيرة واللفظ المناسـب وقـد يدفعـه ذلك الى الاغراب فى التعبير فكون لفظيـا أكثر منه شـاعرا ذا حس وانفعال وصدق ، وقـد يدفعه ذلك الى التقليـد والمحاكاة والى الخروج عن البيئة التى يعيش فيها الى بيئة ثانية بعيدة فيستعير منها الاسماء والاماكن والصور . ولا شك ان الاثراء من اللغة ليس وحده طريق الشعر فقد يكون هذا الاثراء باعثا على الغموض والابهـام ولقد قال النقاد فى (شيلر) الشاعر الالمانى ان الالفـاظ التى استعملها فى قصائده ورواياته الشعرية كانت قليلة ولكنه بهـذا القليل استطاع أن يؤدى معانيه أحسن أداء وأجمله ، بينما كان (غوتيه) معاصره وزميله مثريا من اللغة ولكن كثيرا من شعره لا يخلو من الغموض المتعب(٦) .

وأنا ـ حين أضرب مثـلا للغموض والوضوح ـ لا أريد أن أعقـد موازنة بين شـاعرين غربيين لهما حظ من الثقافة المتطورة والتفكير النامى وبين شعراء عاشـوا فى عصر التقليـد والمحاكاة وانما أردت أن أقرر مـا استهدفه النقاد من تقويم الشعر ووزنه بالميزان السـليم ووضع كل شاعر حث يجب أن يوضع ، ولكن ضرب المثل بهـذين الشاعرين لا يعنى عدم الاستعانة به فى بعض الصور التى سجلها شعراء القرن التاسع عشـر فى العراق فقـد يكون من هؤلاء من استحوذت عليه اللغة بمفرداتهـا الغريبة وكلماتها الخشنة فذابت شاعريته خـلال تلك المفردات والكلمات ، وقـد يكون منهم من آثر جانب الشاعرية المحضة على تلمس الغريب من المفردات فجرى على سـجيته غير متكلف ولا متوعر ، غير أنه كان الى جانب هذين الفريقين فريق ثالث لا يمكن أن يوضع الا فى عداد النظامين المتكلفين ولكنه تكلف من لا رصيد له من اللغة وسلامة الاداء ، ولعل من نوع (غوتيه) فى الاثراء اللغوى وذوبان الشاعرية فى وهج المفردات الغامضة عثمان بن سند البصرى ـ اذا صحت المقارنة ـ فان هـذا الشاعر قـد أغرق فى استعمال

---

(٦) من تقرير لابراهيم عبدالقادر المازنى فى مجلة (مجمع اللغـة العربية) بالقاهرة الجزء السابع ص ١٩٠

الغريب ، مع سعة اطلاعه على اللغة ، حتى فقد ـ أو كاد يفقد ـ عنصر الاصالة بما استعمل من مفردات متوعرة لا تنسجم مع موسيقى الشعر وأساليبه الصحيحة ، ولا تتفق مع الذوق الذى يريد من الشعر الوضوح والبساطة ، ومن أمثلة ذلك قوله فى قصيدة نظمها على لسان السلطان محمود

اذا ما بدا ناب النوائب خلتنى
أنا الرجل الضرب الهصور الصلنقح[٧]

وقوله فى الوالى داود

سل الاكراد عنه غداة كروا فلاقوا منه مغوارا وقعنب[٨]

وقوله فيه أيضا من قصيدة

عجبت للقوم اذ راعوا مصاعك ما صحتهم باسود للقنا جحنوا!

ومنها

مذ بلغ الملك المحمود همتك الـ ـعليا وأنك من بغدادك الشفن
رنتك منه عيون العدل من أمم فخولتك بملك ما له حجن[٩]

فان فى (الصلنقح) و (قعنب) و (جحنوا) و (شفن) و (حجن) اغرابا يحتاج الى شرح لغوى ، ونبوا عن طبيعة الشعر .

أما الخروج عن البيئة العراقية الى غيرها بدافع التقليد والمحاكاة فقد ابتلى به كثير من كبار الشعراء آنذاك ومنهم السيد ابراهيم الطباطبائى فقد كان هذا الشاعر كثير التبدي فى شعره بينما كان يعيش فى النجف ويتردد على بغداد ، ومن صوره البدوية قوله

هديتم سراة الحى مسقطنا الضال أميلوا رقاب العيس فالركب ضُلّال
أملوا بها عن عالج نحو لعلع فلى فى محانى سفح لعلع آمال[١٠]

ولكنه يقول فى مكان آخر

بعسى صرت قسيسا وعفت الضُمر العيسا

---

(٧) مطالع السعود ـ الورقة ٩٥
(٨) المصدر السابق ـ الورقة ١٠٦
(٩) المصدر نفسه ـ الورقة ١١٣
(١٠) ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ـ ص ١٩٨

ويخاطب صاحبه قائلا

تركنـــا لك مأكــولا ومشروبـــا وملبوســا
ولـــو تصلـــح باريس لقلدنـــاك باريســا[١١]

فأين باريس من لعلع والضال ؟

وفى شعر السد محمد سعيد الحبوبى صور بدوية كثيرة مع أنه كان كالطاطائى يعش فى النجف ويتردد على بغـداد وينزع الى التجديد وقد جاءت هذه الصور البدوية حتى فى الرثاء[١٢] ولعل للسد الحبوبى العذر فى ذلك فان بعض أسفاره الى نجد والحجاز قد ترك فى خياله أثرا للبادية وقد انعكس هذا الاثر فى شعره غير أن ذلك كله لا يمنع من الحكم بجودة فنه ورشاقة اسلوبه ، وقد ذكرت هؤلاء الشعراء ـ ولاسما عثمان بن سند والحبوبى ـ لأضع مثلا للشعراء الذين عرفوا بالدراسة والاطـلاع غير أن الحبوبى كان يتجنب الوعورة والتكلف فى شعره وان لم يسلم من المحاكاة والتقليـد .

أما بعض الشعراء ـ أو كثير منهم ـ ممن شملتهم هذه الدراسة فقد كان عرضة للوقوع فى الاخطاء اللغوية والنحوية وغيرها وذلك لعدم توفر الدراسة والثقافة ولقلة النقاد الموجهين ، وبسبب هذا كان التفاوت بين بعضهم وبعض كبيرا فى الاداء اللفظى وفى سـلامة الاسلوب من تلك الاخطـاء ، وسلامة الوزن من الخلل والاضطراب ، وهذا يعنى أن العصر الذى ندرسه لم يكن شعراؤه جميعا قـد توفرت لديهم أسباب الشعر وقواعده فان كثيرا منهم ـ وفى هذا الكثير شعراء بارزون ـ قد وقع فيما يجب ألا يقع فه شاعر يحرص على الفن وقواعده ومن هؤلاء عدالغفار الاخرس فان لهذا الشاعر

---

(١١) المصدر السابق ـ ص ١٤٤ ـ ١٤٥

(١٢) راجع قصيدته فى رثاء السيد حيـــدر الحلى فى ديوانه وفى مقدمة ديوان السيد حيدر نفسه ومنها قوله

الى النزوان العيس تلوى أعنـــة وهيهـــات ليست تملك النزوانا
وليست تشيم البرق من أبرق الحمى بلى قـــد تشم الشيح والعلجـــانا

الرقيق أكثر من سقطة فى اللغة والنحو وفى الوزن والقافة والاسلوب ومن ذلك قوله فى مدح بعض الوجهاء

ان أيـامك أعـــــاد المنى حث كانت للامانى موسـما
نظــم الشــعر لـكم داعيكم فتقبل فيك مـا قـد نظما[13]

ولعـل من الواضح ان اسلوب البيتين أقرب ما يكون الى العامية منه الى الشعر الفصيح ولس فيه شيء من الدقة والمتانة ، فالتعليل بحيث ـ كما فى الست الاول ـ لم يرد فى المأثور عن العرب ، وكلمـة (داعيـكم) فى الست الثانى تعبير عامى ، ثم مخاطبة المفرد بضمير الجماعة لست من التعابير الشائعة الا فى ركيك الشعر ، وفى مكان آخر يخاطب الوالى داود فيقول

فديتك لا (ترجو) لنطقى تكلمـا فان يراعى عن لسانى يترجم[14]

فقـد أبقى فعل (ترجو) على حالته وهو مسبوق بحرف جازم واذا صححنا للشاعر هذا الخطأ وحذفنا حرف العلة فان (مفاعل) المكفوفة لم ترد فى وسط الشـطر من عروض الطويل الا فى النادر الضعيف ، أمـا استعمال نطق بمعنى لسـان فهو من ضعف اللغة • وفى مكان آخر خرج الاخرس على موسيقى الوزن فقال

أعـد اللهو فان العود أحمـد وأدرها فى لجين الكأس عسجد
واسقنهـــا قهــــوة عـــادية أخبرت عما مضى فى ذلك العهـد

ان هذه القصيدة من الرمل ومن العروضة الاولى والضرب الصحيح أما القافة فهى مقيدة ساكنة ولكن الشاعر خرج فى الست الثانى عن الضرب وسّغ التفعلة بزيادة حرف وكرر هذه ا لزيادة فى قوله

فى رياض لعبت فيهـــا الصبا وأذاعت سر نشر الشيح والرند

وأردف ذلك فى تسعة أبيـات اخرى من هـذه القصدة[15] فأفسد موسيقى الشـعر • وفى شعر عبدالباقى العمرى ما يدل على عـدم الغربلة

---

(١٣) الطراز الانفس ـ ص ٣٧٤
(١٤) المصدر السابق ـ ص ٣٩١
(١٥) المصدر السابق ـ ص ١٠٢ ـ ١٠٤

والتمحيص ومن ذلك قوله فى مدح الشيخ عبدالقادر الكيلانى

أتى من العلم فى مثل الذى أتيا   موسى وعيسى بتوراة وانجيل

وقوله فى القصيدة نفسها

وقبل الترب من أعتاب سدته   وابد الخضوع بدمع منك مسبول[16]

فقد جمع الشاعر فى البيت الاول بين الظاهر والضمير فى جملة (أتيا) ، ووصل فى البيت الثانى همزة القطع فى فعل الامر (أبد) وجاء بكلمة (مسبول) مكان مسبل . وقال فى قصيدة اخرى يمدح بها أبا حنيفة

قد كلفوه للقضا فأبى ولم   (يرضى) وطال بسجنه استمراره[17]

وفى هذا البيت أبقى الفعل (يرضى) على حالته وهو مسبوق بحرف جازم . ومن تساهله فى ضبط العروض ما جاء له فى قصيدة يمدح بها الامام عليا وأولها

أنت العلى الذى فوق العلا رفعا   ببطن مكة وسط البيت اذ وضعا

فقد قال فيها

وأنت أنت الذى لله ما فعلا   وأنت أنت الذى لله ما صنعا

وأنت أنت الذى لله ما وصلا   وأنت أنت الذى لله ما قطعا[18]

فقد صرع الشاعر فى هذين البيتين بغير حرف الروي الذى يجوز التصريع فيه فى خلال القصيدة ، ولكن العمرى قد اعتذر عن أخطائه واعترف بضعف لغته فى بيت من قصيدة أرسلها الى الوالى يحى الجليلى عندما كان هذا فى الاستانة اذ قال

فان لسانى لا كما تعهدونه   فقد أعجمته بالتكلم رومه[19]

وقد وقع السيد جعفر الحلى فى أخطاء مماثلة ومنها قوله

حشاشتان التقتا كل ترى   أن ليس فى الآخر كالذى بها[20]

---

(١٦) الترياق الفاروقى ص ١٦٦ ـ ١٦٧

(١٧) المصدر السابق ـ ص ٢١٣

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ ـ ١٠٠

(١٩) نزهة الدنيا الورقة ١٤٦

(٢٠) سحر بابل ص ٧١

فجاء بكلمة (الآخر) بدل الاخرى • وقوله

هداكم ربكم يا ركب نجد   وأرشدكم الى الطرق النهاج[٢١]

ولم يرد فى كتب اللغة جمع نهج على نهاج • وقوله

يهدى لمأدبة لها سعة السما   ركدت بها عدد النجوم قداح[٢٢]

يريد الاقداح جمع قدح ـ بفتح الدال ـ أما الجمع الذى استعمله فهو لقدح بكسر القاف وسكون الدال وهو هنا غير مناسب ولا معنى له • وقوله

هل يصلح الناس لعلياه بلى   فصالح للمكرمات صالح[٢٣]

والمعروف فى النحو أن (بلى) حرف جواب يأتى بعد الكلام المنفى فيثبته •

وهذه الامثلة التى ذكرتها ليست كل شىء مما وقع فيه الشعراء من أخطاء وانما هى من أبرز ما وقع فيه المشاهير منهم وقد سقتها للاستدلال على قلة التمحيص والغربلة والنقد • ولكن هذا كله لا يعنى أن الذوق الادبى كان غير موجود وان التمييز بين الغث والسمين وبين القوى والضعيف كان مفقودا فقد وجدنا بعض الشعراء يضع نفسه ميزانا للشعر ويحكم بين الاسالب ويفضل شاعرا على آخر تفضيلا فيه سلامة الذوق وحسن التأتى ومن ذلك قول السد ابراهيم الطباطبائى

فقل قول من يرضى الرضى فعتلى
ودع قول من يصفى الصفى فيسفل[٢٤]

فان الشاعر هنا يعترف للشريف الرضى بالقوة والاصالة ويحث على اتباع اسلوبه بينما لا يرى فى شعر صفى‌الدين الحلى غير التسفل • وينتقد عثمان بن سند أبياتا للشيخ صالح التممى من قصيدة قالها فى مدح الوالى داود عندما ختن ولده يوسف سنة ١٢٣٥هـ ومما نقده قوله

---

(٢١) المصدر السابق ص ١١٠
(٢٢) المصدر السابق ص ١٢٠
(٢٣) المصدر نفسه ص ١٣٨
(٢٤) ديوان الطباطبائى ص ٢٠٢

تسربل حلما فوقه تاج قدرة تسربل منه الجهل قس وأحنف

وقد عد عثمان هذا البيت ذما لان تاج القدرة قد ألبس قيسا والاحنف جهلا فهو اذن تاج جاهل • وقوله في وصف سطوة الممدوح

اذا وعدت حـا يكاد وعيدها اذا ما قضى أمراً لـه العفو يخلف

وقد نقده بقوله ان خبر (يكاد) جملة (يخلف) وهذا الفعل لم يرفع ضمير اسم (يكاد) بل رفع ضمير العفو • وقوله

رأت طهره والطهر للرجس داحض بدار وبعض القوم بالطهر سوفوا

والطهر لم يأت في اللغة بمعنى الختان[٢٥] ، وأضيف الى هذا النقد بأن كلمة (الطهر) شاعت في عامية العراق بمعنى الختان • ومن هذا يستدل على أن لعثمان بن سند ثقافة تؤهله لان يكون حكما في دراسة الشعر مع أن التميمي كان أشعر منه بكثير • ومع أن للتميمي رأيا في الشعر ساقه في قصيدة أرسلها الى الوالي داود بعد أن نفي الى الاستانة ، وكانت هذه القصيدة ردا على (خالية) بطرس كرامة[٢٦] وقد جاء فيها للتميمي قوله

اما وعلوم ضمها صدرك الذي براه اله العرش للعلم اذ برا

لحم غير صير (الخال) قبله مكان القوافي بالقوافي مكررا

لعمرك ما كعب ولا الشيخ قبله زهير بتكرار الروى تصدرا

ولست أرى المصنوع الا مُؤَمَّراً ولست أرى المطبوع الا مؤمّرا

وما الشعر الا ما أبانت صدوره قوافه لا ما السمع فيه تحيرا

وغنى به الساقي على الكأس آخذا عليك وان لم تشرب الكأس أسكرا[٢٧]

فالشيخ صالح التميمي يميز هنا بين الاصالة والتقليد وبين الطبع

---

(٢٥) راجع القصيدة والتعليق عليها في (مطالع السعود) الورقتان ١٢٣ و١٢٤

(٢٦) بطرس كرامة شاعر لبناني وقد ارسل الى داود قصيدة قافيتها كلمة (الخال) مكررة في كل الابيات فطلب داود من الشعراء مباراتها راجع (روض الخل والخليل – ديوان السيد عبدالجليل) ص ١٦٧ – ١٧٢ طبع مصر

(٢٧) راجع ديوان التميمي المخطوط ص ٣٨ – ٣٩ والمطبوع ص ٥٦ – ٥٧ وروض الخل والخليل ص ١٦٧ – ١٧٢ طبع مصر

والصنعة ويدرك الى حد كبير ميزة الشعر وأثره فى النفوس ٭ ـ
نظما مكرر الروى ، ولم يكتف التميمي بهذا بل أراد أن يكون قوى الحجة
حين ذكر كعبا وأباه زهيرا للتدليل على اصالة الشعر ، ولكن هذا كله لم يمنع
التميمي من الوقوع فى الاخطاء التى لم يسلم منها شعره ولاسيما تلك التى
تتصل باللغة والنحو

صدق الشعور والاداء

الاثر الشعرى ـ أو أى أثر أدبى ـ تجربة تجول فى خاطر الشاعر ثم يدفعها الى الاطار الخارجى بكلمات معبرة موحية ولابد لهذه التجربة من عاطفة وخيال وموسيقى ولابد أن تتساوى هذه فى العمل الادبى لتتحول التجربة الى قصيدة أو مقطوعة أو بيت وليس كل الشعر قد توفرت فيه هذه الخصائص فقد تكون القصيدة ذات عاطفة وانفعال وخيال محلق ولكن موسيقاها اللفظية لا تتساوق مع العاطفة والخيال وقد تكون الموسيقى ذات رنين وايقاع ولكنها لا تعبر عن عاطفة صادقة أو خيال مشرق وقد تلتقى العاطفة والموسيقى فى تجربة لا يسهم الخيال فى عملها ، ولا شك أن الاثر الادبى هو الذى تتوفر فيه هذه الخصائص الثلاث غير أنه لا يكون كاملا ما لم تسنده حرية النفس فى التناول والاداء ولكن هذه الحرية قلما تتاح للشاعر فى كل موضوع يتناوله فقد يكون مبدعا فى الغزل والرثاء فى حين يكون مخفقا فى تناول القضايا السياسية أو فى وصف ناحية من نواحى المجتمع ، وسر الابداع هناك صفاء الحس وتوفر الحرية النفسية فى تناول التجربة ، وسبب الاخفاق هنا ضعف الحرية النفسية فى نقل التجربة الى اطارها الخارجى ، فلابد حينئذ لكل عمل أدبى كامل من حرية تامة تتساوق مع مستوى التجربة وهذه الحرية هى التى تدفع العاطفة الى الصدق ، والخيال الى الابداع ، والموسيقى الى الرنين والمطاوعة . أما الشعر العراقى فقد كان نصيبه من الاثر الادبى الكامل يختلف باختلاف الموضوعات وباختلاف البيئات والازمان وباختلاف الشعراء ونفسياتهم وثقافاتهم أيضا ، هذا اذا تسامحنا فى الحكم والتقدير أما فى الواقع فان الاثر الادبى الكامل

قد يبدو مهزوز الـكيان فى شعر القرن التاسع عشر ذلك لان الثقافة لم تكن على مستوى عال يتيح للشـاعر أن يتصرف فى الالفاظ والتعابير كمـا يشاء فيلائم بين عناصر التجربة كما يجب ، ولكننا على كل حال لا نعدم فى شعر القرن التاسع عشر صورا تبدو فيها ظلال الابداع الى حد كبير كما فى بعض مراثى السيد حيدر الحلى للامام الحسين أو فى كثير منها ، واذا استثنينا هذه المراثى فاننا قد لا نعثر بالصورة الكاملة فيما تركه لنا شعراء العراق فى القرن التاسع عشر ما دمنا قد قيدنا الاثر الادبى بهذه الخصائص اذ ليس من الممكن أن تلتقى هذه الخصائص فى أدب عصر غير واسع الثقافة ولا موفور الحرية واذا كانت الحرية والموسيقى قد التقيا فى بعض الموضوعات كخمريات الحبوبى أو غراميـات الشيـخ عباس النجفى[٢٨] فان صدق العاطفة عند الاول يبدو ضعيفا كضعف الخيال عند الثانى ، أما انفعالات الاخرس ووثبات احساسه وعاطفته فى الكثير من ذاتياته فانها تفتقر الى عنصر الحرية فى تناول الاشياء التى مست لـه المتاعب والآلام وان كان حر النفس فيما نظـم من وصف ملاهيه ومحافل سروره[٢٩] ومثله بقية الشعراء الذين تناولوا الموضوعات السياسية فى غير جانب الدولة أما ما كان منها فى جانب الدولة فانه يحتاج فى معظمه الى صدق العاطفة والانفعال وفى كثير منه الى التعبير المناسب والاداء المطاوع وهذه كلها غير متوفرة لدى الشعراء •

القديم والجديد :

الشـعر تجارب لا تجول الا فى حدود نفس الشـاعر ومداركه ولا تنطلق الا فى آفاق البيئة التى يحيا فيهـا وينتقل بين مناظرها ومشاهدها فلا يرسم الا ما تقع عليه عينه ولا يحس الا بما يدفعه اليـه ادراكه وتفكيره ، وهما ـ أى الادراك والتفكير ـ ليسا على وتيرة واحـدة عنـد الشاعر فقـد

---

(٢٨) هو الشاعر العاشق صاحب القصيدة التى يقول فيها

عدينى وامطلى وعدى عدينى ودينى بالصـبابة فهى دينى

راجع قصته وقصيدته فى (نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر) ص ٢١٠ ـ ٢١٨

(٢٩) راجع الطراز الانفس ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣

يختلفان قوة وضعفا باختلاف الثقافة والاطلاع والانتقال من سن الى سن وفى أدبنا العربى أمثلة كثيرة لهـذا التعريف فشعر المتنبى فى صباه أقل عمقا وتفكيرا من شعره بعد أن تجاوز الثلاثين • وشعر المعرى فى اللزوميات غير شعره فى سقط الزند فالاول حافل بالمعانى والافكار الفلسفية والاجتماعية والثانى تقليدى ترسم فيه خطا من قبله من الشعراء العموديين ، ومثل هؤلاء من شعراء العصر الحديث البارودى واسماعيل صبرى فى مصر فان الاول منهما بدأ شعره مقلدا متأثرا بمن سبقه من القدماء ثم استطاع أن يجدد وأن يضيف الى الصور المكتسبة صور طبيعية من نفسه أما الثانى فقد بدأ النظم باسلوب تقليدى يبدو عليه الضعف ثم استطاع أن يرتفع الى القمة فى مرحلته الثانية ، وكثيرا ما ينطبق هذا التعريف على شاعرين بينهما تقارب فى الزمن فابن الرومى ـ مثلا ـ غير البحترى فى عمق المعانى ودقة الصور ومثلهما فى القرن التاسع عشر الشيخ ناصيف اليازجى وابنه الشيخ ابراهيم فى تفاوت الاسلوب والموضوع فان الاول كان مقلدا ظاهر التكلف قد ملأت شعره الكلمات القديمة من الرقمتين والاراك وحاجز[٣٠] بيما كان يعيش فى لبنان ، أما ابنه الشيخ ابراهيم فهو صاحب القصيدة الثورية المعروفة التى يقول فيها

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب[٣١]

وفى ظل هذا التعريف للقديم والجديد نستطيع أن نحدد مسارب الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ونحن فيما قرأناه من هذا الشعر يمكننا القول بأن شعراء العراق فى هذا القرن ليسوا على شيء كبير من الادراك فى اختيار المادة فقد كانت الثقافة الموجهة ثقافة ضيقة ليس فيها شيء من التيارات الحديثة التى لمستها مصر ولبنان وسوريا ولذلك بقيت الموضوعات

(٣٠) راجع (ثالث القمرين) ص ٢٤ و٨١ طبع بيروت سنة ١٨٨٣م

(٣١) راجع (العقد) ديوان ابراهيم اليازجى ص ٥٦ ـ ٥٩ طبع البرازيل

القديمة قدوة الشعراء العراقيين وأمثلتهم المفضلة ، والاساليب القديمة وقوالبهم المختارة أما التجديد والابتكار فلا شيء منهما غير النادر القليل ، وهذا القليل لم تظهر فيه الدقة الفنية التى تناسب المادة المتخيرة للعمل الادبى فقد وصفوا بعض المخترعات الحديثة[٣٢] التى شاهدوها فى العراق ولكن وصفهم كان مقصورا على المظهر العام وليس فيه نفاذ الى الجزئيات والدقائق وكثيرا ما يستعنون على هذا الوصف والتشبيهات القديمة المعروفة ، ومن ثم يمكن القول بأن البيئة وحدها ليست من مقومات الشاعر بل هى مستودع يتزود منه مادة العمل ولكن تحويل تلك المادة الى صور تستوقف بألوانها وخطوطها واطارها وبما فيها من جمال وتعبير انما يتوقف على حس الشاعر وادراكه وعلى فكره الواعى المنظم ولابد لهذا كله من دراسة واطلاع ولابد من ثقافة حديثة متطورة تنمى الادراك وتغذى الخيال والشعور وتقوى ملكة الاستقلال فى العمل والتجديد فى وضع الخطوط والالوان والقوالب ، غير أن شعراء العراق اذا فاتهم التطور والتحديد فى الموضوعات والمعانى[٣٣] فان لهم من الاساليب والتعابير ما يجعلهم فى القمة بين شعراء مصر والشام ولبنان ، ولعل مجموع الشعر فى العراق أفضل فى هذه الناحية من مجموع الشعر فى الاقطار العربية الاخرى اذا استثنينا البارودى[٣٤]

---

(٣٢) أشرنا الى المراجع فى الحواشى ٤٥ و٤٦ و٤٧ و٤٨ من الفصل الثالث ـ الباب الاول

(٣٣) من مظاهر التجديد الذى ظهر فى مصر أناشيد الشيخ رفاعة الطهطاوى وان لم تكن قوية الاداء (فى الادب الحديث ص ٢٩ ج ١ ط ٢) ومن مظاهر التجديد فى الشعر السياسى قصائد الشيخ ابراهيم اليازجى (العقد ص ٥٦ ـ ٦٣) وقصيدة الياس صالح اللبنانى المتوفى سنة ١٨٩٥م (تراجم مشاهير الشرق ص ٢٨٧ ج ٢ ط ٣)

(٣٤) ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر فى العراق ثلاثة شعراء ولكن تجديدهم لم يظهر الا فى القرن العشرين وهم الشيخ محمد جواد الشبيبى والشيخ عبدالمحسن الكاظمى وجميل صدقى الزهاوى وكان تجديد الاول والثانى فى الموضوعات على الاكثر أما الثالث فقد جدد فى المعاني والافكار أيضا وان كان أسلوبه وأداؤه دون سابقيه على ان ظهور التجديد عنده فى القرن العشرين لم يمنع من بعض المحاولات التى ظهرت له فى أواخر القرن التاسع عشر

القيم الموضوعية والفنية فى الشعر السياسى :

لعل فى تلك الدراسة العامة التى قدمتها عن الشعر والشعراء ما يساعد على البحث فى ا لشعر السياسى لانه كالموضوعات الاخرى من حيث القوة والضعف فى مسارب الشعور والعاطفة ، وفى ظلال الصدق والانفعال ، وهو مثلها فى جمال الفن والاسلوب وفى ضعف هذين أيضا •

ولما كان الشعر السياسى قد قسم الى أربعة فصول فان الحكم على الناحة الموضوعية فيه ليس بحكم واحد بل هو متعدد بتعدد الاتجاهات والملابسات والوقائع ، وأود فى هذه الدراسة أن أتناول كل فصل على حدة •

الشعر والحوادث الوهابية :

ان الشعر الذى قيل فى الحوادث الوهابية قد تنوعت أهدافه وتعددت جوانبه ولم يتساو فيه الشعراء من حيث الدوافع والبواعث ، فقد كان بعضهم مندفعا بتأثير العقيدة كالكعبى والازرى ، وبعضهم كان مندفعا بتأثير التقرب للدولة والولاة ، والطمع بشىء من العطف والقبول كالاخرس والعمريين وكل من نظم فى حملة الوالى مدحة وهؤلاء لم يخرجوا عن حدود المدح الا فى القليل • وبعضهم جمع بين الدين والسياسة كعثمان بن سند فقد نظر هذا الى الوهابيين من زاوية الدين فشنع بهم ورماهم بالزيغ والضلال ، ونظر الى أعمال الدولة من زاوية التقرب والتعصب للسلاطين والولاة فمدحهم وأثنى على أعمالهم المناهضة للحركات الوهابية ، وهو فى الشق الاول يلتقى مع الكعبى والازرى ، وفى الشق الثانى يلتقى مع بقية الشعراء المداحين • وشاعر واحد سار فى ركاب الدعوة الوهابية وهو السيد عبدالجليل البصرى • وقد مر فى الفصل ذاته ايضاح تاريخى لما رافق شعر عبدالجليل وفى ذلك الايضاح ما يكشف عن دوافعه التى لم تكن عن شعور صادق •

ومجمل ما يقال عن هذا الشعر سواء أكان ضد الوهابيين أم كان بجانبهم لس فيه من المعانى ما يتناسب مع ذلك الاندفاع وتلك الكثرة المتنوعة

الصور ، وهو لا يستطيع أن يسجل موضوعا هاما فى الشعر السياسى الا بكونه جديدا فى تاريخ الادب لانه ظهر بظهور الدعوة الوهابيــة ، وبكونه يستطيع أن يؤلف مادة من مواد التاريخ الادبى الحديث ويساعد على دراسة الحوادث الوهابية من حيث أثرها فى العراق وصداها فى نفوس الشعراء •

ولا اريد أن استعيد شيئا منه فى الدراسة الموضوعية فانه قد أخذ نصيبه منها فى أثناء العرض العام هناك • ولكننى أود أن أقف منه بعض اللحظات فى الدراسة الفنية لأرى ما له من نصيب ازاء الموضوعات الاخرى ، وما لكل شاعر من حظ فى الاداء والتعبير •

لقد كان هذا الشعر من الوجهة الفنية يتفاوت بين الوسط والضعيف وليس فيه من الاداء اللفظى ما يسمو به الى مستوى الكثير من شعر الفصول الاخرى لان الذين تناولوه لم يكونوا كلهم من طبقة المشاهير الذين ترددت اسماؤهم فى بقية الفصول ، فقد كان هؤلاء أربعة عشر شاعرا اثنان منهم تلاقيا فى الفكرة وتقاربا فى الاسلوب وهما هاشم الكعبى ومحمد رضا الازرى ، ولكن هذين ليسا من مشاهير الشعراء ، وأربعة ترددت اسماؤهم فى الدراسات العامة وكان لهم شأن فى البحث وهم عثمان بن سند البصرى الوائلى وصالح التميمى والاخرس وابراهيم الطباطبائى وثلاثة يعدون فى الطبقة الوسطى وهم حسين الحكيم الحلى وأحمد عزة ومحمد أمين العمريان ، وثلاثة لم يكونوا سوى نظامين وهم أبو الحسن كوثر وأحمد رشدى والشيخ فليح ، وواحد مجهول الاسم ولكنه فى عداد الطبقة الوسطى ، والاخير هو السيد عبدالجليل البصرى الطباطبائى الذى سار وحده فى ركاب الدعوة الوهابية •

أما الكعبى فقد جاءت له قصيدة واحدة فى حادثة كربلاء بدأها بمطلع تقليدى النسج وهو

أنت الملوم فمن يكون الأوما   فلك الظما هيهات معسول اللمى

واستمر بعد ذلك يسرد الحادثة ويحشد لها الالفاظ الحزينة الباكية وكان فى سرده يصعد مرة ويهبط اخرى ولكنه كان متماسكا بين الصعود

والهبوط وهذا التماسك ساعده على تضيق الفجوات الصوتية فى سلم الاداء • هبط فى المقدمة

يا سعد قف بى فى المنازل ساعة نبكى فربت عبرة تروى ظما

وصعد فى الوسط حين تحدث عن كربلاء

فاذا الرزايا لا تزال بربعها فذا تطرق بالخطوب وتوأما

وتماسك فى التحريض على الدفاع

ان كان همك ليس الا بالبكا فتكون نائحة وتسمع مغرما

ثم صعد مباشرة

فلم ادخرت من السيوف مصمما لكريهة ومن الرماح مقوما(٣٥)

واحسب ان هذا الصعود الصوتى انما جاء من التضعيف فى بعض الكلمات ، والتضعيف يكسب البناء متانة وقوة أما أن تعابيره كانت تمثل جانب التقليد فذلك شيء واضح • وأما الازرى فقد جاءت له ثلاث قصائد لا يختلف اسلوبها التقليدى عن اسلوب الكعبى ، فقد كان الشاعر يتماسك حينا ويهبط حينا آخر وقد يصعد فى بعض الاحيان • تماسك فى قوله

فيا قائد الجيش العرمرم سحبه تزاهر عن ليل من النقع أليلا

ثم هبط بعد هذا البيت مباشرة

الام وها ضاق الزمان بوافد يضج ولا ساح يجير ولا ولا(٣٦)

أما الصعود فقد جاء فى قصيدته الثالثة وذلك فى قوله وهو يهدد خصومه

وسرعان نزجيها اليكم كتائبا صواعقها بيض الظبى والعواسل

عليها من الفتيان كل موحد أشم طويل الساعدين حلاحل

★ ★ ★

وساء صباح المنذرين اذا هوت صواعقها فى أرضكم والزلازل(٣٧)

والسيد حسين الحكيم جاءت له قصيدة واحدة يدل مطلعها على ذخيرة

---

(٣٥) راجع ص ١٢٣ و١٢٤

(٣٦) راجع ص ١٢٦

(٣٧) راجع ص ١٢٦ و١٢٧ و١٢٨

لفظية وجودة فى الاختيار • وهو قوله يخاطب الكتخدا

أقمت اعوجاج الملك بالسيف والعزم وشيدت ركنيه على مفرق النجم[٣٨]

وأما عثمان بن سند فقد أكثر من النظم فى هذه الحوادث ولكن ما نظمه لا يدل على اصالة فنة ولا على شاعرية سمحة الاسلوب ، فان ذخيرته اللغوية التى عرف بها كانت تسنده فى صحة التعابير وسلامتها من العيوب ولكنها لم تسعفه فى التنسيق والانسجام • ومن ذلك قوله فى حادثة الخيانة التى وقعت فى جيش الكتخدا

أسلمتهم للنائبات رجال عن هدى الله للمطامع مالوا
واستحلو مال الوزير وقالوا ان مال الوزير لله مال
أبطنوا الغش للوزير وراموا كل ما فيه للوزير اختلال[٣٩]

فان الجناس بين (مالوا) و (مال) فى قافيتين متتاليتين ، وتكرار كلمة (الوزير) أربع مرات فى بيتين متتاليين أيضا ليس الا من طبيعة النظامين المتكلفين لا الشعراء المجيدين •

وقوله فى حادثة كربلاء

سفك الدماء وظن أن صنعه ينجيه
ولقد تجاوز حده فى كل ما يحنيه[٤٠]

وهذان البتان لم يخلوا من الجناس الذى جاء ناقصا فى قافيتين متتابعتين •

ولكن ابن سند لم يفته الاداء الحسن فى بعض ما نظمه كقوله فى مدح السلطان محمود

أمطرت « عارضهم » بعارض بندق فجرى به واديهم فتدمرا

★ ★ ★

فتنافس الحرمان منك بعادل أمضى من اللث الهصور وأغيرا[٤١]

---

(٣٨) راجع ص ١٢٨
(٣٩) راجع ص ١٣٠ و١٣١
(٤٠) راجع ص ١٣١
(٤١) راجع ص ١٣٤

ولـم يكن للتميمى غير بيتين أشرت الى قيمتهما الفنيـة فى مكانهما هناك[٤٢] •

أما الاخرس فقد كان غير قليل النظم فى هذه الحوادث غير أن شعره هذا لم يستطع أن يثب به الى السلم الذى وقف عنده فى موضوعات الحماسة والشكوى والثورة النفسية • ولعله فى ذلك لم يكن متأثرا بالجو أو منفعلا مع الحوادث ، فقوله فى مدح الوالى مدحة

سعدت نجد اذا وافت نجـدا　　بقـــدوم منك اقبـالا وســعدا
أقـــل الخير عليهــــــا كلـه　　منجزا فيك بلطف الله وعـــدا
وأراد الله أن يعصمهـــــــــا　　من شرار كادت الاشرار كيدا

من الشعر الوسط الذى لم يخل من ركة فى بعض الالفاظ التى لا مكان لها فى ساق الاسلوب فقد وضع الشاعر (فى) الظرفة مكان (باء) السببية فى البيت الثانى وجاء بكلمة (كيد) قافية فى البيت الثالث واستعمال الثلاثى معتل الوسط بالواو أو بالياء لم يرد فى قوافى الشعر الاصيل •

وقد أعجزه التمحيص فى قوله

اذ تصـديت لأمــر لـم نجـد　　قبل عليـاك له من يتصدى[٤٣]

فان استعمال المستقبل فى المعانى الماضية دليل على اضطراب الازمنة فى ذهن الشاعر وعدم تحديدهـا عنـده وان كان من الممكن توجيه المعنى توجيها مقبولا ، أما كلمة (عليـاك) فقد اقحمت فى البيت اقحاما ، ولكن الاخرس لم يفقد شـاعريته الســـمحة فى قصيدته التى مدح بهـــا نقيب النصرة اذ قال

لقد كفى العسكر المنصور نائبــة　　تجثو لها نوب الدنيـا على الركب
وقومت كل معوج صوارمـــه　　وسكنت منذ وافى كل مضطرب[٤٤]

وقد دل الاخرس على ذكاء وفطنة فى البيت الاول اذ احترس بكلمة

---

(٤٢) راجع ص ١٣٤
(٤٣) راجع ص ١٣٥
(٤٤) راجع ص ١٣٧

(المنصور) لئلا يفسر كلامه تفسيرا ينسب فيه الضعف الى الجيش الذى ذهب الى الاحساء •

أما الشعراء الآخرون فلا حاجة للوقوف عندهم لانهم دون مستوى هؤلاء الذين استعرضت لهم بعض ما قالوا ولأن ما جاء لهم من الشعر لم يكن فى كمه الا مثل كيفه فقد كان طابع الاسفاف والانحدار الى المعانى العامة المبتذلة يغلب على شعرهم ولعل من أمثلة ذلك قول محمد أمين العمرى وهو يخاطب الوالى (مدحة)

فانعم ظل الله سيفا مجوهرا عليك به أنف الشقاوة تجدع[٤٥]

فان نصب السيف هنا غير مستساغ واستعمال كلمة (الشقاوة) انما جاء من التأثير التركى فانها قد أطلقت فى هذا العصر على المجرمين واللصوص فى حين أنها ليست كذلك فى اللغة اذ هى نقيض السعادة •

ولكن واحدا ممن بقوا لا يجوز استثناؤه من المتقدمين ولا يجوز حشره مع المتخلفين وهو السيد ابراهيم الطباطبائى فان هذا فى مقطوعته التى نظمها فى مدح السلطان عبدالعزيز لم يكن شاعرا كما كان فى كثير من قصائده القوية ، بل كان فى هذه المقطوعة ناظما متكلفا صعب القافية ، ولعل البيت الاول يكفى للدلالة على هذا الحكم ، وهو قوله

أعز ملوكنا عبدالعزيز أذل عداه بالاسل العزيز[٤٦]

ويخيل الى ان الذى ساق الشاعر الى هذه القافية الثقيلة اسم (عبدالعزيز) • أما الجناس فهو دليل آخر على التكلف والصناعة •

وأما السيد عبدالجليل البصرى شاعر الدعوة الوهابية من بين شعراء العراق فان دراسة شعره هنا لا تعنى أكثر من اعادة الرأى مرة ثانية فقد أخذ فى الفصل نفسه حظه من هذه الدراسة • وكل ما يقال فيه هنا انه

---

(٤٥) راجع ص ١٤٠
(٤٦) راجع ص ١٤١

من طبقة النظامين الضعفاء ، ويكفى أن نستدل على ذلك بقوله

تـاركت يـــا مولى الملوك الاعاظـــم
و (عزيت) يا مبدى الجميل وراحمى[٤٧]

وقد ذكرت فى مكان البيت هناك ان الشـاعر قلب (الزاى) ياءا فى الفعل (عزز) لان الشاعر لم يسلم من تأثير العامية •

وقوله فى قصيدة اخرى موجهة الى فيصل بن تركى

وأنهى الك الحـال مذ غبت غالنا بغستك الدهر العبوس على عمد[٤٨]

الشعر بين الحس العربى والشكوى :

فى هذا الشعر من الخصائص الموضوعية مـا يسمو به الى حد بعيـد غير أن هذه الخصائص لم تتوفر لكل شاعر من شعراء هذا الموضوع لانهم سلكوا فيه مسالك مختلفة وان كانت كلها تلتقى عند نقطة التذمر من الحياة والتشكى من الضيم والذل ، وقـد رافق هؤلاء الشعراء جميعـا قلق نفسى واضح ظهر فى كثير من الصور الشاكية المتألمة ، وليس لهذا القلق النفسى من سـبب غـير اضطراب السياســة وتفكك المجتمع وعـــدم الاسـتقرار والاطمئنان ، وضيق مسالك العيش الكريم ، وقد كان هذا كله من بواعث الانتفاضات الحادة التى تجاوب فى معظمها اسلوب التعبير مع ثورة النفس • وقد أوضحت فى مقدمة الفصل نفسه جانبـا كبيرا من طريقة العرض التى سلكها الشعراء فى تصوير الظلم والذل ، واضيف الى ذلك ان كثيرا من هذا الشعر كان يفقد عنصر الحرية التامة ويقف عند حدود الذات ، ذات الشاعر وشخصته دون أن يتجاوزها الى المظهر العام أو يلمس الحقائق فى صورها وأسبابها • وعنصر الحرية النفسية عامل هام فى معالجة المفاسد السـياسية والاجتماعية ونقـد الاسـاليب المعوجة ، وقـد مر أن شعراء العراق كانوا مأخوذين بتيار الحـكم ومندفعين فى ركاب الدولة الاسلامية ، وكانوا بعيدين

(٤٧) راجع ص ١٤٣
(٤٨) راجع ص ١٤٧

عن آفاق التطور التى أتيح لغيرهم أن يدرك مداها القريب والبعيد ، وبتأثير ذلك كله اضطرب شعراء العراق بين الخوف من السياسة وبين الجمود العقلى فلم تتطور عندهم حرية النفس الى الصراحة والجرأة ، بل وقفوا عند حدود الشكوى والالم وترديد كلمات الذل والضيم والتهديد بحمل السلاح وخوض المعارك ولكنهم لم يشيروا الى مصدر الذل والضيم الا القليل منهم ممن بلغ به التذمر درجة لا يستطيع معها كبت الانفجار ، وهذا القليل لا يصور الا جزءا يسيرا من مفاسد الحكم الذى طغى واستشرى ، وأود أن أشير فى مقدمة هذه الدراسة الى أبرز الصور التى يمكن أن تعد من الشعر السياسى الواضح فى ثورته على الظلم والمساوىء لأدل على أهم ما فى هذا الشعر من موضوعية أخذت حظها من حرية الانطلاق وان كانت فى خطرات قليلة •

لقد كان الاخرس من أكثر الشعراء ألما وشكوى ، وأقدرهم تصويرا لذلك الالم وتلك الشكوى حتى لكاد ينفعل معه ويستجيب له كل من يقف على تاريخ القرن التاسع عشر فى العراق ، ولكنه كان يطل من نافذة ضيقة فلا يعرف من السخط غير ذم الحياة وبغداد والعراق والسكان ، وغير التعبير عن ألمه الناشىء من تجهم الحياة فى وجهه والتواء طرق المعيشة أمامه ، وثقل لسانه الذى قد يكون عاملا نفسيا آخر ، غير أن لهذا الشاعر بعض الوثبات العامة التى لم تقف عند حدود الذات ، ومن ذلك قوله

بلـد كـار ملوكه بقـر   صـاروا ولاة النهى والأمر(٤٩)

فان هذا البيت صورة صادقة للحكم فى بغداد آنذاك ، وليس فيه الا الواقع الذى لا ينكر ، ومن ذا ينكر أن الكثيرين من الولاة والحكام والموظفين كانوا جهلة حمقى واذا لم يكن كل ذلك فيهم فهم ـ على الاقل ـ ليسوا من جنس المحكومين •

ولقد وقف الاخرس وقفات اخرى ليس فيها صراحة هذا البيت

---

(٤٩) راجع ص ١٥٨

ولكنها تنطوي على فكرة قوية وتجربة حادة توحي بما كان يحس به الشاعر من ظلم وذل ، كقوله

ألم يحزن الآبى نفوس تطامنت   وفاخر رأس القوم فيه ذنابه
وأعظم بها دهاء وهي عظيمة   اذا اكتنف الضرغام بالذل غابه
متى ينجلى هذا الظلام الذى أرى   ويكشف عن وجه الصباح نقابه(٥٠) ؟

لعل أي واقعي من الشعراء لا يأتي بأكثر من هذا التصوير للذل الذى خضع له حتى رؤوس القوم • ولعل أي واقعي يتساءل عن نهاية الظلم لا يتجاوز حدود استفهام الاخرس ، ولكن الشاعر ــ كما قلت ــ لم يكن فيلسوفا مفكرا يتناول الاشياء بمظاهرها العامة ويتعمق في جذورها وعناصرها ويشرح أسبابها وبواعثها لان ذلك يحتاج الى حرية تامة ، تدفع الى التحليل والعلاج من كل النواحي •

ومثل الاخرس في ضيق النافذة غيره من الشعراء ، وهم مثله أيضا في قلة الخطرات الجريئة ، فالسيد صالح القزويني كان صريحا في بيت واحد ، وكان في هذا البيت أكثر صراحة من الاخرس ولكنه لم يكن قوى الانفعال مثله ، أما البيت فهو

وكم لملوك الترك هتك لحرمة
لأهل النهى ، والغدر من شيم الترك(٥١)

والفرق بين الشاعرين ان الاخرس كان يعنيه ما يجرى في العراق أو في بغداد على الاقل ولا يهمه شأن الترك في أى مكان آخر أما القزويني فانه لم يجعل للقضية سورا ــ على حد تعبير المناطقة ــ بل جعلها مطلقة تشمل جميع الترك في هذا الحكم الذى رآه وهو انهم هاتكون غادرون ، ولكن القزويني لا يفقد العذر أو الدليل على حكمه لانه ابن بيئته التى عاش فيها وشهد مراحل الحكم عشرات السنين ، فلم ير من الترك في العراق غير ما عبر عنه في هذا البيت •

---

(٥٠) راجع ص ١٥٨
(٥١) راجع ص ١٧٧

وأحمد الشاوى كان جريئا صريحا الا انه كان مقتصدا فلم تكن ثورته الواقعية الا فى لحظة خاطفة ولكنها من أخطر اللحظات فى حركة الشعور ، وكانت الصورة التى رسمها أشبه شىء بالماسة المتوهجة بين المعادن الاخرى ولكى تسلم لهذا التشبيه قوته أعيد تلك الصورة وهى

امختــــرمى ريب المنـــون ولم اكــن
لادرك للاســـلام ثأراً من الشـــرك
وابرد من صـــهب العثـــانين غلتـــى
واشفى واستشفى بسيفى من الترك[٥٢]

ولكن الشاوى لم يوضح الاسباب التى دعته الى هذه الثورة على الترك ورميهم بالشرك ـ وهم مسـلمون ـ ولم يبين لنـا لماذا يتمنى أن يبرد غلته منهم بالسيف ، فقد يكون مسوقا بثورة نفسية فى حـدود ذاته وشخصه ، والواقع اننا لا نطالب الشاعر بأكثر من هذا ما دمنـا قد عرفنا تاريخ الحكم العثمانى فى العراق ، وما دمنا قـد ألممنا بمكانة أسرة الشاوى فى بغـداد وطموح هذه الاسرة الى أكثر من الوظائف الصغيرة المذلة •

أما عبدالغنى الجميل فقد كان أكثر الشعراء تصويرا للحالة السياسية العامـة فى العراق والخاصة فى بغـداد ، وكان جريئا فى ثورته على الظلم صريحا فى قوميته • ولم تكن الصور التى رسمها من الصور القلقلة العابرة ، ولا العدسة التى كان يلتقط بها مهزوزة أو مضطربة غير أن تركيزه لتلك العدسة لم يشمل كل الزوايا والابعاد فقد كان متذمرا من الحيـاة سـاخطا على أهـل بغداد لانهم ساكتون خانعون ، وكان مليئا بالاحساس العربى فى نخوته واستنهاضه ، وكان غير قليل الحظ من تصوير الظلم والمآسى الا أنه لم يجرؤ على مخاطبة الاتراك وجها لوجه أو يشرح أسباب ثورته شرحا واضحا وأحسب أن قوله

فخيرهـــم للاجنبى وقبحهـــم   على بعضهم بعضا يعدونـه حسنا

(٥٢) راجع ص ١٧٨

هو البيت الوحيد الذى أشار الى تباين العناصر فى العراق واختلاف الاجناس ومنها العنصر الحاكم الذى لا يمت الى العراق بصلة • اما أنه كان معبرا فى أكثر من نطاق الذاتية فذلك شيء واضح فى شعره • واما أنه من الركائز الرصينة فى بناء الشعر القومى فذلك أيضا لا يحتاج الى دليل اذا رجعنا الى قصائده ، ولس أشد حسا بالقومية ابان القرن التاسع عشر من قوله

الا غيرة تدعو الصريخ اذا دعا ... ليوم عبوس شره يوقظ الوسنى
الا رافع عن قومه بغى ظالم ... اذا فقدوا فى الحرب من ينطح القرنا
الا مبلغ عني سراة بنى الوغى ... واقيال عرب كيف صبرهم عنا[٥٣] ؟

ومن قوله

أهم ومالى من مسعد ... وقومى كسالى ودائى الهرم
فأين سراة بنى هاشم ... ومن لعظام الاعادى هشم
انادى ومالى من سامع ... وهل يسمع القول من فى صمم
الى كم نراعى الخسيس الدنىء ... ونرعى له حرمة كالحرم
فما لى فى الكرخ من مسكن ... ولا فى الرصافة مأوى العجم[٥٤]

وقوله

وما ساد فى أرض العراقين ماجد ... من الناس الا قدمها ورذيلها
متى يلثم اللبات رمحى وترتوى ... سيوف بأعناق المطى صليلها
وحولى رجال من معد ويعرب ... مصاليت للحرب العوان قبيلها[٥٥]

أما قصيدته التى يقول فى أولها

لهفى على بغداد من بلدة ... قد عشعش العز بها ثم طار[٥٦]

---

(٥٣) راجع ص ١٧٠
(٥٤) راجع ص ١٧١
(٥٥) راجع ص ١٧٣
(٥٦) راجع ص ١٧٤ و١٧٥

من أخلد الصور فى وصف بغداد الخاضعة الذليلة .

ولعل من الحسن أن أقف عند قصيدة العمرى التى يقول فى أولها

قد استحال العراق مفسدة ليس سوى ضرب السيف يصلحها
وأهله كالاغنام عاث بها أذؤبة والكلاب تنبحها[٥٧]

فان هذه القصيدة ـ على ما فيها من قلة الصراحة والجرأة ـ ذات مغزى بعد فى تصوير السياسة الخرقاء .

غير أن الزهاوى كان أوسع الشعراء افقا وأعمق نظرة ، وقصيدته بداية التحديد فى الشعر السياسى ، ولكن اقحام الزهاوى بين شعراء القرن التاسع عشر لم يأت الا لأن القصيدة قد ولدت فى أواخر ذلك القرن .

هذه هى أهم الخطرات الدالة على حس سياسى وشعور قومى وطنى ، وادراك واع لثقل الوطأة التركية فى العراق ، أما بقية الشعر فانها تعبير عن آلام ذاتية ، ولكنها فى كل صورها تشير الى الذل والضيم وتدعو لحمل السلاح وخوض المعارك ، وهى فى كل ألوانها لا تفقد المغزى السليم الذى ترمى اليه ، لان احساس الشاعر جزء من احساس مجتمعه ولاسيما اذا كان ألمه ناشئا من ضيق الحياة وفساد الاحوال العامة .

وانى لاحسب ـ بعد هذه الدراسة ـ أن الشعر الذى جاء فى هذا الفصل أقرب ما يكون الى الواقع منه الى أى شىء آخر ، وأصدق انفعالا وعاطفة من الفصلين الاول والرابع ، ولكنه أعم من الفصل الثالث الذى يكاد يكون جزء منه فى تصوير الظلم وقسوة الولاة والموظفين .

أما الفنية فى هذا الشعر فانها هى الاخرى كانت تختلف باختلاف القابليات والملكات اللغوية ، فهى فى شعر الاخرس فنية مطاوعة منسجمة مع الاداء الحسى فى كثير من الصور ، وهى أمنة الى حد كبير فى نقل التجربة الشعورية الى الاطار الخارجى ، ولكن هذه الفنية لم تخرج عن حدود الاسلوب القديم المصنوع من بقايا الميراث وان كان الصنع جميلا ملونا ببعض الالوان الزاهية .

---

(٥٧) راجع ص ١٧٦

غير أن الذي يلاحظ في شعر الاخرس ما في الصور من تشابه وتكرار لان هذا الشاعر قد يعش في ظلال التجربة الواحدة زمنا غير قليل وقد يقف عندها أكثر من موقف واحد فلا يكتفي منها برسم صورة واحدة بل كانت عاطفته التي تثوب وترجع الى ما كانت عليه تدفعه الى رسم الصور المتعددة لتلك التجربة ، وهذا التعدد جعله يكرر الالفاظ والتعابير أكثر من مرة ومن ذلك قوله

وبنات أفكار لنا عربية   لا يرتضين سوى الكرام بعولا[٥٨]

فقد تكررت هذه الصورة في قوله

وبنات أفكار لنا عربية   رخصت لدى الاعجام وهي غوالى[٥٩]

وقوله أيضا

ولم أرد مورد عذب شابه   ضيم رأى تكديره لما صفا[٦٠]

فقد كرر هذه الصورة بقوله

ولو كنت ممن يشرب الماء بالقذى   رويت وفي ري الذليل غليل[٦١]

وقوله أيضا

ولست مقيما ما أقمت بمنزل   وعيشي أنكاد تسوء وأنكال[٦٢]

ومثل هذا قوله

تأبى المروءة أن أراني واقفا   في موقف يدع العزيز ذليلا[٦٣]

ومثله أيضا

عجبا لمثلي أن يقيم بموطن   متشابه الاشراف بالانذال[٦٤]

---

(٥٨) راجع ص ١٥٦
(٥٩) راجع ص ١٥٩
(٦٠) راجع (الطراز الانفس) ص ٢٨
(٦١) راجع ص ١٥٧
(٦٢) راجع ص ١٥٢ و١٥٣
(٦٣) راجع ص ١٥٦
(٦٤) راجع ص ١٥٩

على أن هذه الخاطرة التى كررها الاخرس وترددت بكثرة فى شعر الآخرين لا تعدو فكرة الشريف الرضى حين قال

وما العيش عندى الا الأباء وبعدى عن المنزل المسباح[٦٥]

وقد يستعير الاخرس معانيه وألفاظه من شاعر آخر ولكنها استعارة ضعيفة مشلولة الحركة الى جانب المستعار منه ، كقوله

وادفع الشر ان علمت بشر ربما يدفع السقام السقام
وتقلد بالرأى قبل المواضى لس يجدى بغير رأى حسام[٦٦]

فقد أخذ هذين البيتين من المتنبى ، أما الاول فمن قوله

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الاجسام بالعلل

وأما الثانى فمن قوله

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى[٦٧]

وأقف عند شاعر آخر من شعراء القومية وهو عبدالغنى الجميل ، فان هذا الشاعر على الرغم من وثباته الشعورية كان فى أدائه اللفظى قد يسف بعض الاحيان ، وقد يتهاون باللغة وقواعدها ولكن بقلة نادرة ، ومن أمثلة ذلك قوله

وقد بدلوا الغالى الذى تعرفونه بصفقة غبن لا تقيس بها غبنا

فان النفى فى قوله (لا تقس) ضعيف جدا ، والمناسب النهى لانه أقرب الى ادراك الاديب .

وقوله

الا نخوة منهم فيصحوا الى التى أيادى سا قد غادرت ذلك المغنى

والمشهور أيدى سبا ، لان (أيادى) جمع يد التى هى بمعنى النعمة .

وقوله

الا مبلغ عنى سراة بنى الوغى وأقيال عرب كيف صبرهم عنا

---

(٦٥) راجع ديوان الشريف الرضى ص ١٩٢ طبعة بيروت
(٦٦) ص ١٥٣
(٦٧) راجع ديوان المتنبى

فان تنكير عرب قد أضعف البيت •

وقوله

طوينا عن الزوراء لادردرها بساطاً متى ينشر يعدونه طعنا[٦٨]

فقد رفع جواب الشرط على القاعدة الضعيفة •

وقوله

وأين الكماة الحماة الدعاة اذا شب نار الوغى واضطرم[٦٩]

فانه حذف تاء التأنيث من فعل (اضطرم) فى حين أن الفاعل ضمير يعود الى مؤنث •

ثورة الشعر فى ظل العقيدة :

العقيدة جزء هام فى حياة المرء لانها هى التى توجه العواطف والرغبات وتؤثر فى العمل والسلوك ولاسيما بين الطبقات المتدينة •

وشعراء هذا الفصل ممن كان للعقيدة شأن عندهم لانها غرست فى قلوبهم منذ الصغر ثم نمت وترعرعت فى أحضان البيئة ورسخت عن طريق الدراسة الدينية ، ولهذا كان شعرهم فى ظل هذه العقيدة شعراً يمثل صدق العاطفة والشعور •

وليست قيمة هذا الشعر فيما يتصل بالعقيدة حسب ـ وان كان ذلك فى مناهج التاريخ الادبى وفى دراسة العقائد شيئا هاما ـ وانما قيمة هذا الشعر أيضا فيما يتصل بالسياسة التى أثرت فيه فأخرجته من النواحى الدينية الخالصة الى الثورة على الظلم • ولكن أكثر الذين ثاروا عن طريق العقيدة كانت آفاقهم ضيقة فى تناول السياسة ، وهم فى ذلك لا يعدون ما نظمه بعضهم فى النواحى القومية العامة أو ما قاله الكثيرون من شعراء القومية فلا انطلاق ولا حرية فى التعبير ولا أسماء ولا أشخاص سوى الضمائر المبهمة

---

(٦٨) ص ١٧٠

(٦٩) ص ١٧١

التى كثر تردادها فى مختلف الصور !! ولعل ذلك ناشىء من الخوف وما يتصوره الشاعر أو يخشاه من بطش وتنكيل •

ومهما يكن من شيء فى هذا الشعر فانه لا يمكن أن يغفل شأنه فى خطر الموضوع وبعد الاتجاه لان أخيلة الشعراء وآمالهم فى قيام دولة عادلة ليست شيئا هينا فى الموضوعات السياسية المناوئة • أما استنهاض المهدى فلم يكن الا اطارا للصورة الثائرة وطاقة يستمد منها الشاعر قوة الاندفاع والاستمرار •

ولعل من أوضح الامثلة على انتظار الدولة العادلة وزوال دولة الفساد قول السيد صالح القزوينى وهو يتخيل نداء جبرائيل واعلانه البشرى بأن قد

أقبلت دولة الرشاد وزالت   عنكم دولة الفساد زوالا[70]

فان هذا البيت فى تفسيره الصحيح مصدر من مصادر التاريخ فى وصف الدولة العثمانية ، وقد مر لهذا الشاعر قوله

وكم لملوك الترك هتك لحرمة   لأهل النهى والغدر من شيم الترك

واذا كان هذا الشاعر قد نسب الغدر وهتك الحرم الى الترك فان من غير المستبعد عليه أن يسمى الدولة العثمانية دولة الفساد •

أما أنه كان شاعرا بوطأة الظلم فذلك واضح من قوله

نمارس منهم كل يوم شدائدا   لها بين أحناء الضلوع مقابس[71]

ومثل القزوينى فى النظرة الى الخلافة العثمانية الشيخ صالح الكواز فانه لم يعترف بها لهؤلاء ، وذلك فى قوله مخاطبا المهدى

فقم طالما حق الخلافة معلما   فها هى فى ايدى العدى تتلقف

* * *

وهذا لواء المسلمين بزعمهم   على رأس أشقى العالمين يرفرف

وهذان البيتان صريحان فى تسجيل اتجاه بعض الشعراء ونظرتهم الى

---

(٧٠) ص ١٨٧
(٧١) ص ١٨٩

الدولة العثمانية نظرة لا ترضى اعتقادها بأنهـا وارثة الخلافة الاسلامية فى حين أنها فى رأى الكواز لم تكن الا غاصبة .

وقد فسر الكواز جانبا من ثورته وعلل أسبابها بانتشار الظلم وضياع حقوق المظلومين

دعوتك للمظلوم ضاعت حقوقـه وليس له من عصبة الجور منصف

وهذا البيت صريح فى وصف الظلم والجور ولكن الشاعر كان يضغط على حريته النفسية ضغطا شديدا فلم يجرؤ على ذكر اسم من أسماء رجال الدولة والولاة الحاكمين بل اكتفى بالضمائر كما فعل القزوينى .

وفى شعر الكواز لمسة قوميـة لا ترى فى العثمانيين من يصلح لحكم العراق لانه بلد معظم سكانه من العرب

أيملك أمر العرب من لا أبا له ولم ينمه منهم نزار وخنـدف[٧٢]

غير أن الكواز كان يستمد هذا الشعور من عقيدته التى كانت لا ترى الخلافة الا فى بنى هاشم .

وممن لاذ بالضمائر ولم يصرح الشيخ حسن قفطان ، ولكنه استطاع أن يرسم بعض خطوط الظلم ويسـاعد على صدق التاريخ فيما وصف به الاتراك ، وذلك بقوله

أعزاء فنـا نرتضيهم ، واننـا اذلاء فيهم ، تلك قسمة اجبـار !!
دعوا حرنا رقاً لهم فمتى نرى عليهم سمات الذل رقا لأحرار ؟
سجا ليلنـا جورا ولم يعترض به من العدل فجر مستند باسفار[٧٣]

والسيد حيدر الحلى كان ثائرا عنيف الثورة منفعلا أشد الانفعال وكان شعوره بفداحة الظلم مندفعـا أشد الاندفاع ولـكنه لم يجرؤ على مواجهة الحاكمين والتصريح باسمائهم بل اكتفى بالضمائر وأسماء الاشـارة كمـا فى قوله

---

(٧٢) ص ١٨٦
(٧٣) ص ١٩٠

أصبرا وهذى تيوس الضلا ل قد أمنت شفرة الجازر ؟
نرى سيف أولهم منتضى على هامنا بيد الآخر
وفيه يسوموننا خطة بها ليس يرضى سوى الكافر
فنشكو اليهم ولا يعطفون كشكوى العقيرة للعاقر[٧٤]

ومثله السيد محمد القزوينى اذ قال

فطبق ظلمهم الخافقين وعم على سهلها والحزن

ولكن فى هذا الشعر بيتا واحدا له أهميته فى التاريخ السياسى لانه سجل ظاهرة عامة من ظواهر الحكم التركى وهى ظاهرة الرشوة ، أما البيت فللسيد ابراهيم الطباطبائى وهو قوله :

بلد به يرشى علانية والمرتشى هو حاكم البلد[٧٥]

واذا عرفنا أن البلد هو مدينة النجف المقدسة التى كانت تعيش على الخيرات والهبات ، وان هذه المدينة لم تسلم من الحكام المرتشين أدركنا خطر الرشوة فى العراق وشيوعها بين الموظفين ، وأظن هذا البيت من الاشعة القليلة التى نتلمس على ضوئها خطوط الحكم العثمانى فى العراق ونظرة الحاكمين الى السكان .

أما الاساليب التى تناولت هذا الموضوع فانها لم تختلف بأية حال عن أساليب الشعر القديم ولكنها كانت أساليب مطاوعة منسجمة وليس فيها تكلف أو ضعف يقصر عن التساوق مع الفكرة . وسبب هذا أن الشعراء الذين مارسوا هذه التجارب كانت ملكة التعبير عندهم على جانب غير قليل من القوة ، ولكنهم لم يكونوا جميعا متساويين فى هذه القوة اذ كان بعضهم أقدر من بعض على رسم التجربة ولعل الكواز والسيد حيدر الحلى والسيد محمد القزوينى فى الطليعة من هؤلاء .

---

(٧٤) ص ١٩٤
(٧٥) ص ٢٠١

أما هذا الفصل ـ على ما فيــه من تنوع كثير تبعا للحوادث والمناسبات والوقائع ـ فانه من الوجهة الموضوعية ليس فيه ما يثير الانتباه سوى تسجيله تلك الحروب والحوادث والوقائع ، وسوى انه مادة من مواد التاريخ تصلح للاستعانة على تفسير بعض الجوانب السياسية فى العراق ، ولذلك يمكن أن يقال عنــه انه من الادلة الحاسمة على صدق الثورة عنـد الشعراء فى الفصلين الثانى والثالث بما سجل من حروب وثورات داخلية كانت نتيجة لفساد الحكم ، وطغيان الجور ، وان لم يكن هذا التسجيل مما كان يقصده الشعراء أو يهدفون اليه لانهم فى الواقع لم يحاولوا غير المدح ولم يفكروا بغير الزلفى والتقرب وارضاء الحاكمين ، شأنهم فى ذلك شأن من سبقهم من الشعراء •

ولقد كان من الهين لو أنهم وقفوا عند حدود المدح ولكنهم أسرفوا فى تشجيع القوى المناهضين لـكل حركة وثورة ، ونشطوا مع الحـكم نشاطا كبيرا ، ولم يكونوا فى ذلك كله الا مرآة لانفسهم وللدولة التى ساروا فى ركابها والزعماء ورجال الدين الذين كانوا ممالئين للحكم والولاة •

أمــا فى غير الحوادث والحروب فلم يكن شـعرهم الا مدحــا كاذبا لا عاطفة فيه ولا صدق ولا حس ولا انفعال ، وكيف يأتى الصدق فى هذا الشعر الذى كان يعد لاستقبال وال وتوديع آخر ؟•

واذا جردنا هذا الشعر من ناحته التاريخية وكونه نافذة من النوافذ التى يطل منها المؤرخ على الحياة العامة فى العراق فانه من أسوأ الموضوعات التى تناولهــا الشعراء ، وبخاصة تلك القصائد التى اندفع بهــا الشعراء أيام داود وعلي رضا ومحمد نجيب ومحمد نامق •

هذا هو الشعر الممالىء للحكم فى موضوعه وفكرته ، أما فى أسلوبه وفنيته فقد كان الكثير منه تقليــدا تزخرفه الصنعة بلا مهارة ويلونه البديع

بلا دقة ، وتكثر فيه المبالغات ويصعد به التهويل الى حد يجعل من الممدوح عملاقا جبارا •

ومن المبالغات الكاذبة فى هذا الشعر قول عثمان بن سند فى السلطان محمود

سل عنه دمعا سافحا والليل مسدول الكلل

وقول الاخرس فى السلطان عبدالعزيز

يقضى النهار بأحكام يدبرها رأيا ويتلو بجنح الليل قرآنا

وقول السد جعفر الحلي فى السلطان عبدالحميد

دول الممالك طأطأت لك هامها قدها فقد ألقت اليك زمامها

غير أن من المبالغات ما يكون جميل الصاغة عذب الالفاظ كقول الاخرس فى مدح الوالى داود بعد أن نفى الى الاستانة

وكنت اذا طاشت سهام قسيها وقتنى الردى من صنع داود أدرع

وقول الشيخ صالح التميمى فى مدح علي رضا عندما استولى على أربيل

لا ترو عن فتح عمورية خبرا ففتح أربيل ما أبقى لها اثرا

وقول الزهاوى فى مدح الوالى عاصم

وكيف أخاف الدهر أو أرهب الردى
وقد لذت من صرف الزمان بعاصم

ولقد كان هذا الشعر لا يخلو من صور فنية جملة فى معانيها وأخيلتها وموسيقاها ، ومن ذلك قول التممى فى مدح علي رضا عندما صد قبيلة عنزة عن محاصرة بغداد

سلوا حى بكر أين قوض وائله وفى أى أقطار تولت قبائله[٧٦]
تجافت عن القصوم شوقا لباسق من النخل طعم النحل حينا يشاكله

(٧٦) ص ٢٢٨

ففى البيت الثانى حركة ولون وطعم ، حركة القبائل وهى تتردد بين البادية والفرات ، ولون القيصوم والنخل والنحل ، وطعم العسل والتمر أما الخيال فقد إمتد الى مسافات بعيدة فى رسم هذه الصورة اذ استطاع بيت واحد أن ينقلنا الى البادية حيث منابت القيصوم ثم يعود بنا الى شواطىء الفرات حيث مشابك النخل ، ويحملنا بعد ذلك الى الشمال حيث تكثر خلايا النحل . ولولا الجناس الناقص بين النخل والنحل ، ووضع كلمة (طعم) مكان (أرى) ، ولولا قرب الخاء والحاء المكررة فى الشطر الثانى وهى من الاصوات التى لا تأتلف فى حركة ايقاعية واحدة لكان البيت فى القمة من الشعر العربى الصافى .

تكرار الصور :

اذا كان من غير المستغرب أن يتسلف شاعر من غيره معنى أو تعبيرا فان بعض الشعراء كان يكرر ما ينظمه هو فى أمكنة مختلفة ومن ذلك قول الاخرس فى الوالى محمد نجيب عندما قمع ثورة كربلاء

محا النغى صمصام الوزير كما محا ... دجى الليل فى أضوائه مطلع الفجر(٧٧)

فقد كرر هذه الصورة فى مدح المشير المجهول(٧٨) اذ قال

تمحق الباغين عن آخرهم ... مثلما يمحو الدجى الصبح المنير(٧٩)

ومن ذلك قول السيد جعفر الحلى فى السلطان عبدالحميد

دول الممالك طأطأت لك هامها ... قدها فقد ألقت اليك زمامها(٨٠)

فقد كرر هذه الصورة فى مدح هذا السلطان أيضا فقال

لك طأطأت دول الضلال رقابها ... قدها فسيفك قد أذل صعابها

---

(٧٧) ص ٢٤٣

(٧٨) لقد مر فى الفصل نفسه ترجيح الوالى مدحة على غيره وبيان أسباب الترجيح

(٧٩) ص ٢٤٧

(٨٠) ص ٢١٤

أما الاخذ من الشعراء الاقدمين فقد كان بابه مفتوحا لهؤلاء الشعراء ومن أمثلة ذلك قول الاخرس فى السلطان عدالعزيز

خليفة الله فى الاقطار محترم ان العزيز عزيز حيثما كانا[٨١]

أخذه من قول المتنبى

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى ان النفس غريب حيثما كانا[٨٢]

الركـــة

لم يخل هذا الشعر من بعض الابيات المسرفة فى الركة والضعف ومن ذلك قول محمد الغلامى فى يحى الجليلى

خبير بتذلل الطغاة فلم تزل صوارمه للمارقين تدوخ[٨٣]

وقول عدالجليل البصرى فى السلطان محمود

جد لى وأطلق أسر نخلى من أذى الـ ... ـميرى معافى لم يزل كمؤبد

وقد قلت عن هذا الشاعر انه من أضعف الشعراء أداءا ، وبيته هذا لا يخلو من الكلمات العامة فكلمة (ميرى) بمعنى الضريبة الاميرية ، وكلمة (معافى) عامة محرفة عن (معفو) .

ومن ذلك قول الاخرس فى المشير المجهول

عدت منصورا بجند ظافر وجناب الحق مولانا النصير[٨٤]

وكلمة (جناب) جاءت فى البيت على غرار تعابير الدولة ورجال الدين ، ولم يرد فى الشعر العربى أن يعبر عن لفظ الجلالة بجناب الحق .

وهذه الابيات التى عرضتها لست كل ما وجد من ضعف فى هذا الشعر ولكنها أمثلة للضعف .

---

(٨١) ص ٢١١
(٨٢) راجع ديوان المتنبى
(٨٣) ص ٢٥٢
(٨٤) ص ٢٤٧

أما الكلمات الجديدة التي عثرت بهـــا في هــذا الشعر فهي كلمة (مدفع) و (تلغراف) •

نظرة موجزة

ان هذه الفصول الاربعة من الشعر يمكن أن تكون قسمين من حيث التقارب في الموضوعـات ، فالفصــلان الاول والرابع متشابهان في الاهداف التي كانت تتجه الى ما يرضى الحاكمين ، والفصلان الثاني والثالث متشابهان أيضا في الاهداف التي كانت تتجه الى تصوير الظلم ، هناك مدح واسترضاء ، وهنا ثورة وألم وسخط •

خاتمة

انتهى بى المطاف عند بداية القرن العشرين بعد أن امتـد طيلة القرن التاسع عشر وقد تناولت فى هـذا التطواف شعر العراق حسب ووقفت من هذا الشعر عند موضوع واحد وهو الموضوع السياسى فقط فدرسته فى أهم نواحيـه وأغراضه وربطته بكثير من موحيـاته ودوافعه ونظرت اليه فى اسلوبه وتعابيره كما نظرت اليه فى موضوعه وأعطيت الناحيتين ما أستطيع من الحق فى الدراسة والتحليل والنقد •

واذا كان لابد من عرض موجز لقيمة الدراسة فى هذا الموضوع ومقدار أهمية الفصول التى سجلت من تاريخ للسياسة أو وصف للمجتمع أو تصوير للحالة العلمية أو دراسة للشعر السياسى موضوع البحث فان تناول هـذا الجانب لا يعفينى من الاعتراف بمـا لى ومـا على واعترافى بمـا على لا يتجاوز الفصـل السياسى فانى لم أعمل فيـه أكثر من الاستقصاء والتتبع والاطلاع على المراجع الموثوق بها والالمام بما يهم البحث من عناصر ومواد ثم جمع هذه العناصر والمواد ووضع كل منها فى مكانه وقد راعيت فى ذلك كله تتابع الزمن وتسلسل التاريخ والحوادث •

ولكن هـذا لا يعفينى أيضا من أن أدل على مواطن الجهد المتعب فى استقصاء المراجع من أجنبى وعربى ومن مطبوع ومخطوط • ولعل أهمية هذا الفصل تتجلى فى ربطه بالشعر السياسى لانه مفتاح الدراسة لهذا الشعر فى ايجابيته وسلبيته •

أما الفصول الباقية فانها تختلف أهميتهـا باختـلاف الجدة والطرافة

وباختلاف القيمة الموضوعية فما كان جديدا فى وضعه وتبويبه وتنويعه هو البحث فى الحالة الاجتماعية ، وأهميته تبدو فى ربطه بالشعر ولو من بعض الجهات ، وأقربها الى الذهن تلك المدائح التى أسرف فيها الشعراء نتيجة للتفكك والحاجة وضعف النفوس وتلك المفارقات التى لمسناها ازاء بعض الحوادث الداخلة ولاسيما حادثة كربلاء أيام الوالى محمد نجيب فقد وقف فيها بعض الشعراء بجانب الحكم بينما وقف بعضهم بجانب المحكومين ولعل سبب ذلك راجع الى تضارب العواطف الدينية ، ومثل هذا ما يقال من موقف عبدالباقى العمرى فى بعض حوادث الاكراد فانه تناول هذه الناحية من زاوية العنصر ، ولا ننسى الشعر المستغرق فى ظل العقيدة الشيعية فان صلته بالعاطفة الدينية صلة قوية .

أما الفصل الخاص بالحالة العلمية فانه أيسر ما يقال فى هذا الشأن غير أن أهميته تظهر فى تقسيمه بين عمل الدولة وعمل السكان وفى عرضه بعض النواحى التى نسيها الناس وأخفاها التاريخ فى المهجور من سجلاته ، ولعل ربطه بالشعر يبدو فى أثر الدراسة والثقافة بالقيم التعبيرية عند الشعراء ومقدار ما يملكون من لغة واسلوب .

وأما الشعر والحوادث الوهابية فانه أول بحث جمع فيه هذا الشعر المتناثر ونسق وفق الحوادث التى تناولها وروعى فيه ترتيبها الزمنى وقد أشرت فى بداية الفصل الخاص به الى مقدار أهميته فى تاريخ السياسة والادب .

ولعل من أهم فصول الشعر ما تناول الجانب القومى والوطنى فانه أول بحث وضع لدراسة مفهوم القومية فى العراق ابان القرن التاسع عشر ومدى صلة الشعراء بها وما قيل فيها من الشعر ، وهو أيضا مفتاح لدراسة التطور فى الشعر العراقى منذ أوائل القرن العشرين ولاسيما السياسى منه .

أما الفصل الخاص بالشعر الذى أملته العقيدة فانه أول دراسة كشفت عن جانب السياسة فى هذا الشعر الذى كان معروفا بأنه شعر دينى مذهبى وانه من خطرات الشيعة فى صوامع الابتهال والمناجاة .

وأهمية الشعر الذى سار فى ركاب الدولة والولاة تظهر فى تسجيله للحوادث والثورات وبعض الاعمال التى استحدثها السلاطين والولاة وهو من جانب آخر يصور نفسيات الشعراء وسلوكهم العـام بالاضافة الى كونه أول بحث جمع أكثر هـذا الشعر وربطه بحوادثه ومناسباته ، وكونه مثل غيره من فصول الشعر فى الكشف عن أثر الساسة فى العراق وفى مسلك الشعراء خاصة •

أما الفصـل الاخير فقـد جاء غربلة للشعر العراقى فى القرن التاسع عشر عامـة وللموضوع السياسى منـه خاصة • وليس لى أن أقدر جانب الاهمية فيما عرض من القيم الموضوعة والفنة للشعر وفيما نص عليه من صور وأمثلة للقوة والضعف فى الموضوع والاسلوب • اقول ليس لى ذلك بل أترك تقدير الجهد لمن تهمهم دراسـة الادب الحديث فى العراق وفى غير العراق •

اســتنتاج :

ولابد لى أن أسجل فى هذه الخاتمة ما انتهت اليه هذه الدراسة من النتائج ، وأهمها كما يلى

١ ـ ان الشعر السياسى فى العراق لم يجدد فى موضوع السياسة(١) كما حدث فى مصر والشام بل سلك الطريقة القديمة التى اتبعها الشعراء •

٢ ـ ان هذا الشعر فى اسلوبه وأدائه كان محافظا على عمود الشعر ولم يجدد فى عرض الصور وطريقة التعبير عن المعانى ولكنه من حيث القوة يستطيع أن يسير فى مقدمة القافلة من الشعر العربى فى القرن التاسع عشر •

٣ ـ ان هذا الشعر فى مدائحه قد سجل لنا كثيرا من الحوادث فى

(١) مما تجب ملاحظته ان موضوعات الشعر السياسى قـد تغيرت وتطورت فى أوائل القرن العشرين فان الشعر فى الحوادث الوهابية قد انقطع بانقطاع الحوادث الا القليل النادر وشعر المدح قد استمر ولـكنه تطور باختلاف الممدوحين والشعر المنبعث عن العقيدة واستنهاض المهدى قد قل ولم يتسع الا الشعر القومى والوطنى

العراق وغير العراق من أجزاء الدولة العثمانية وساعد على توضيح شيء غير قليل من التاريخ السياسي في العراق وفيما حول العراق •

٤ ـ ان الشعر الثائر منه قد صور بعض نواحي الظلم غير أن عنصر الصراحة كان ضعيفا في معظم المواقف ، ويكفي أن نعرف ذلك من كلمة (الترك) التي لم ترد في الشعر المناوىء الا بضع مرات ، ومن كلمة (الاجنبي) المستبد بخيرات العراق التي لم ترد ـ فيما ظفرت به ـ الا مرة واحدة في شعر عبدالغني الجميل •

والرشوة التي كانت منتشرة في العراق بين طبقات الموظفين لم أعثر على ذكرها فيما قرأته الا في بيت واحد للسيد ابراهيم الطباطبائي[٢] وآخر للشيخ صالح التممي[٣] •

٥ ـ ان الشعر الثائر قد جنح كثير من أصحابه الى ذم بغداد مركز الحكم والى السخط على سكانها لانهم ـ كما يرى الشعراء ـ كانوا خاضعين وكان كثير من وجهائهم متزلفين للولاة •

٦ ـ ان الشعر الشيعي الثائر كان أشد مناوأة للخلافة العثمانية لانها لا تصلح لحماية الدين والعدل ، وللولاة والحكام لانهم كانوا قساة ظلمة •

هذا هو الجديد الذي استطعت أن أصل اليه عن طريق الاستنتاج •

أما الجديد الذي يمكن أن يضاف الى البحوث الادبية من هذه الدراسة فهو ان هذا البحث أول محاولة تناولت الشعر السياسي في العراق خلال القرن التاسع عشر وكشفت عن مناسبات بعض القصائد التي استقرت في الدواوين والمجموعات بدون اشارة الى بواعثها وموحياتها ومنها قصائد الاخرس في الوالي (مدحة) وقصيدة السيد صالح القزويني في حادثة سجن (مطلق بن كريدي) زعيم خزاعة • وبعض قصائد عبدالغني الجميل أيام الوالي محمد

---

(٢) ص ٢٠١

(٣) هو قوله في هجاء بعض المأمورين في أيام الوالي علي رضا

خنت الوزير الذي سواك من عدم ... وفيه نلت الغنى من بعد اعسار

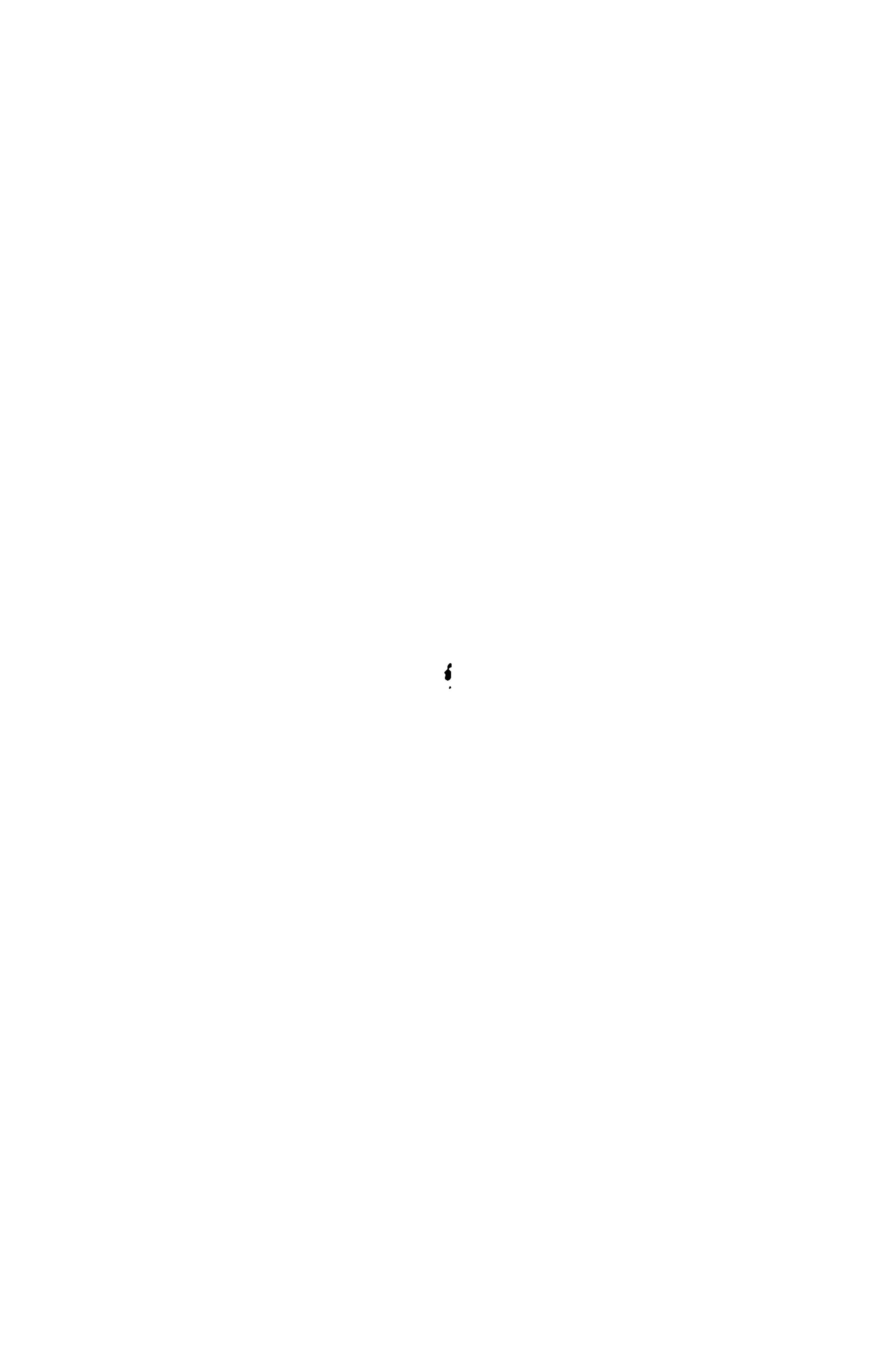
تبدي له النصح في معمول كاتبه ... وترتشي عن خراسان بدينار

ديوان التميمي الورقة ٦٢

نامق ، وغير قليل من قصائد التميمى فى الوالى علي رضا ، وقصيدة السيد حسين الحكم فى حادثة (عفك) أيام الوالى داود ، وأبيات السيد ابراهيم الطباطبائى فى مدح السلطان عبدالعزيز أيام الاستيلاء على الاحساء .

ولا شك فى أن جمع الشعر المتناثر فى الدواوين والمخطوطات المعثرة وضم أجزائه فى بحث واحد وانقاذ بعضه من الضياع ان هذا كله خير ما يدفعنى الى التفاؤل بنجح المسعى والى كبير الظن بأنى قدمت شيئا من الخدمة لأدب العراق وللباحثين فى البلاد العربية عامة .

غير أنى أعتقد أن عملى هذا ما هو الا غرس شجرة فى الحقل الكبير فعسى أن يجد المتتبعون أكثر مما وجدت فضيفوا الى هذا البحث بحوثا اخرى أكثر جدة وطرافة ؟



فهرست الموضوعات

فهرست المصادر والمراجع العربية والمترجمة

(أ)

آراء الرصافي ـ تأليف معروف الرصافي • مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥١

أخبار بغداد وما جاورها من البلاد للسيد محمود شكري الآلوسي • (مخطوط) نسخة يعقوب سركيس ـ بغداد •

أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث • تأليف ستيفن همسلي لونكريك وتعريب جعفر خياط • طبعة بيروت •

أريج الهند والعود في ترجمة أبي الثناء شهاب الدين محمود • تأليف عبدالفتاح الشواف (مخطوط) الحق بنسخة خطية من غرائب الاغتراب • نسخة السيد هاشم الآلوسي ـ بغداد

الاسرار الالهية • للسيد محمود شكري الآلوسي ـ طبعة مصر •

الاسلام والحضارة العربية لمحمود كرد علي ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة سنة ١٩٣٦م •

أعلام العراق ـ لمحمد بهجة الاثري • المطبعة السلفية ـ مصر •

الانقلاب العثماني • لجرجي زيدان •

أهداف الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ـ ليوسف عزالدين ـ رسالة الماجستير المقدمة الى جامعة الاسكندرية •

أوروبا والاسلام ـ بقلم أغا خان وزكي علي ـ منشورات دار المكشوف ـ بيروت •

أوليات سلاطين تركيا • لمحمد جميل بيهم • مطبعة العرفان ـ صيدا •

(ب)

البابليات ـ للشيخ محمدعلي اليعقوب ـ طبع النجف •

البادية ـ لعبدالجبار الراوي ـ الطبعة الثانية • بغداد •

بحار الانوار للمجلسى المجلد الثالث عشر ـ الملحق ـ ايران •
بغداد كما وصفها (السواح) الاجانب ترجمة سعاد هادى العمرى ـ بغداد •
البلدان ـ لابن الفقيه •
بواعث الحرب العالمية الاولى فى الشرق الادنى ـ تأليف جان بيشون ـ تعريب محمد عزة دروزه • مطبعة الكشاف • بيروت •

(ت)

تاريخ الاتراك العثمانيين ـ لحسين لبيب • مطبعة الواعظ • القاهرة ، ١٩١٧ •
تاريخ آداب اللغة العربية • لجرجى زيدان • مطبعة الهلال • ١٩٣١ •
تأريخ حرب الدولة العليـة ودولة اليونان سنة ١٨٩٧م لـكامل صـدقى وعبدالواحد حمدى ـ طبعة بولاق سنة ١٣١٥هـ القاهرة •
تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ لمحمد فريد • طبعة ثانية سنة ١٨٩٧ القاهرة •
تأريخ الديوانية قديما وحديثا • للحاج وداى العطية • النجف •
تأريخ السليمانية ـ لمحمـد أمين زكى • تعريب الملا جميل الملا أحمـد الروزبيانى • طبع شركة النشر والطباعة • سنة ١٩٥١م بغداد •
تأريخ الشعوب الاسلامة ـ لـكارل بروكلمان ـ تعريب الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت •
تأريخ الشعر السياسى ـ أحمد الشايب • القاهرة •
تأريخ الـكاظمين ـ للشيخ جعفر نقدى • بغداد ١٩٥٠م •
تأريخ مساجد بغداد وآثارها • للسيد محمود شكرى الآلوسى ـ مطبعة دار السلام ـ بغداد •
تأريخ المماليك فى بغداد ـ لسليمان فائق ـ تعريب محمد نجيب الارمنازى ـ مخطوطة مكتبة الآثار ـ بغداد •
تأريخ الموصل ـ لسلمان صائغ • الجزء الاول ـ القاهرة •
تأريخ نجد ـ للسيد محمود شكرى الآلوسى • القاهرة •
تأريخ اليمن ـ للشيخ عبدالواسع ـ القاهرة •
تجارة العراق قديما وحديثا • ليوسف غنيمة ـ بغداد •

تذكرة الشقيق الجامعة لمعرفة الطريق ـ للشيخ عبدالقادر الكيلاني
مخطوطة دار الكتب بالقاهرة ـ ٢١٤٧٩ب •
تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ـ لجرجي زيدان ـ الطبعة
الثانية • دار الهلال ـ القاهرة •
ترجمة الزهاوي ـ بقلمه ـ مخطوطة الاستاذ كوركيس عواد ـ بغداد •
التصوف الاسلامي في مصر • للدكتور توفيق الطويل ـ القاهرة •
تضريج الخاطر ـ ترجمة الشيخ عبدالقادر • تأليف محمد صادق القادري
الشهابي عربها عن الفارسية عبدالقادر بن محي‌الدين الاربلي ـ
القاهرة •
تنزه العباد في مدينة بغداد ـ للمعلم نابليون الماريني ـ بيروت ١٨٨٧م •
التوفيقات الالهامة لمحمد مختار ـ الطعة الاولى ـ بولاق ـ القاهرة •

(ج)

جزيرة العرب في القرن العشرين • لحافظ وهبة ـ الطبعة الاولى • مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة •
الجمان المنضد في مدح الوزير أحمد ـ لمحمد الغلامي ـ الموصل •
جنة المأوى ـ للشيخ حسين النوري • ملحق ـ المجلد الثالث عشر من
البحار • طبعة ايران •

(ح)

حاضر العالم الاسلامي ـ تألف لوثروب سودار تعريب عجاج
نويهض ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة •
حديقة الزوراء ـ لعبدالرحمن السويدي ـ مخطوطة ـ بغداد •

(خ)

خلاصة تأريخ الكرد وكردستان ـ لمحمد أمين زكي • تعريب محمدعلي
عوني • القاهرة •
خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام • للسيد أحمد بن زيني دحلان
القاهرة •

دائرة المعارف الاسلامية • (الترجمة العربية) • القاهرة •
ديوان مزيد السرور ومزيل الحزون • عبدالرضا البغدادى ـ مخطوط فى مكتبة يعقوب سركيس • بغداد •

دواوين الشعراء

ديوان السيد ابراهيم الطباطبائى ـ مطبعة العرفان ـ صيدا •
ديوان الشيخ ابراهيم اليازجي ـ (العقد) • طبع البرازيل •
ديوان الازرى ـ الشيخ كاظم • بومبى •
ديوان البزاز الموصلى • مصر • المطبعة الشرقية •
ديوان ابن عنين ـ دمشق
ديوان الاخرس البغدادى (الطراز الانفس) استانبول •
ديوان عبدالباقى العمرى (الترياق الفاروقى) القاهرة •
ديوان السيد حيدر الحلى (الدر اليتيم) بومبى
ديوان الشيخ حسين العشارى (مخطوط) مكتبة الآثار ـ بغداد
ديوان السيد جعفر الحلى (سحر بابل) صيدا •
ديوان السيد صالح القزوينى (مخطوط) مكتبة الآثار ـ بغداد
ديوان السيد صالح القزوينى (الدرر الغروية) مخطوط ـ الآثار ـ بغداد •
ديوان الشيخ صالح الكواز (مخطوط) مكتبة اليعقوبى ـ النجف •
ديوان الشيخ صالح التميمى ـ طبع النجف ـ ونسخة مخطوطة فى بغداد •
ديوان الزهاوى (الكلم والمنظوم) ـ بيروت •
ديوان الشريف الرضى ـ بيروت •
ديوان السيد محمد سعيد الحبوبى ـ صيدا
ديوان المتنبى ـ القاهرة •
ديوان الكعبى ـ الحاج هاشم ـ النجف •
ديوان السيد عبدالجليل الطباطبائى (روض الخل والخليل) طبع الهند والقاهرة •
ديوان الشيخ ناصيف اليازجى (ثالث القمرين) ـ بيروت

ديوان ابى فراس الحمدانى ـ ط ٣ ـ بيروت •
ديوان البارودى ـ القاهرة •
ديوان اسماعيل صبرى ـ القاهرة •

(ذ)

ذكرى السعدون ـ الشيخ على الشرقى ـ بغداد •

(ر)

الروض الازهر ـ السيد مصطفى الواعظ •
رسائل اخوان الصفا ـ القاهرة •
روضات الجنات ـ السيد محمد باقر الخنسارى ـ طهران •
رحلة المنشى ـ ترجمة المحامى عباس العزاوى ـ بغداد
رحلة ريج ـ ترجمة بهاءالدين نورى ـ بغداد •

(ز)

الزهاوى الشاعر ـ اسماعيل أحمد أدهم ـ القاهرة •

(س)

سلاطين بنى عثمان الخمسة ـ الدكتور مارى ملز باتريك ـ ترجمة حنا صن ورفيقيه ـ بيروت

(ش)

الشرق الاسلامى الحديث ـ حسين مؤنس ـ القاهرة •
شعراء بغداد وكتابها أيام داود باشا ـ لعبدالقادر الخطيبى الشهربانى ـ بغداد ١٩٣٦م •
شعراء الحلة ـ الشيخ على الخاقانى ـ المطبعة الحيدرية النجف ـ ١٩٥١ و١٩٥٣ •
شعراء الغرى ـ الشيخ على الخاقانى ـ النجف ـ ١٩٥٤ •
شمامة العنبر والزهر المغيبر فى ادباء القرن الثانى عشر ـ محمد بن مصطفى الغلامى ـ مخطوط ـ مكتبة الآثار ـ بغداد •
شهداء الفضيلة ـ الشيخ عبدالمحسن الامينى ـ النجف ـ ١٩٣٦م •

(ص)

الصابئون فى حاضرهم وماضيهم ـ عبدالرزاق الحسينى ـ صيدا •
الصواعق الالهية فى الرد على الوهابية ـ سليمان بن عبدالوهاب •
ط ٢ ـ مصر •
الصراع بين الموالى والعـــرب ـ الدكتور بديع شريف ـ دار الـكتاب
العربى ـ القاهرة ـ ١٩٥٤م •

(ع)

على هامش العراق بين احتلالين ـ الحاج وداى العطية ـ العراق •
العراق بين احتلالين ـ المحامى عباس العزاوى ـ بغداد
العرب ـ تاريخ موجز ـ فيليب حتى ـ بيروت ـ دار العلم للملايين •
عشائر العراق ـ عباس العزاوى ـ ج ١ـ٢ ـ بغداد •
عبدة وذكرى ـ سليمان البستانى ـ القاهرة ـ مطبعة الاخبار سنة ١٩٠٨ •
عبدالحميد من ولاية العهد الى المنفى ـ جلال نورى ـ ترجمة ابراهيم سليم
النجار ـ مصر •
عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ـ الشيخ عبدالرحمن البحرى ـ القاهرة •
العراق ـ دراسة فى تطوره السياسى ـ فيليب ويلارد آيرلاند ـ ترجمــة
جعفر خياط دار الـكشاف ـ بيروت ـ ١٩٤٩ •
العقد المفصل ـ السيد حيدر الحلى ـ بغداد ـ مطبعة الشابندر •
عنوان المجد فى بيان أحوال بغداد والبصرة ونجـــد ـ ابراهيم فصيح بن
صبغةالله الحيدرى ـ مخطوط ـ مكتبة الآثار ـ بغداد •
عنوان المجد ـ عثمان بن بشر النجدى ـ مكة •

(غ)

غرائب الاغتراب ـ أبو الثناء الآلوسى ـ مطبعة الشابندر ـ بغداد
غاية المرام ـ ياسين بن خيرالله العمرى ـ مكتبة الآثار ـ بغداد •

(ف)

فى الادب الحديث ـ عمر الدسوقى ـ القاهرة •

(ص)

الصابئون في حاضرهم وماضيهم ـ عبدالرزاق الحسيني ـ صيدا •
الصواعق الالهية في الرد على الوهابية ـ سليمان بن عبدالوهاب •
ط ٢ ـ مصر •
الصراع بين الموالي والعرب ـ الدكتور بديع شريف ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٤م •

(ع)

على هامش العراق بين احتلالين ـ الحاج وداي العطية ـ العراق •
العراق بين احتلالين ـ المحامي عباس العزاوي ـ بغداد
العرب ـ تاريخ موجز ـ فيلب حتي ـ بيروت ـ دار العلم للملايين •
عشائر العراق ـ عباس العزاوي ـ ج ١-٢ ـ بغداد •
عبدة وذكرى ـ سليمان البستاني ـ القاهرة ـ مطبعة الاخبار سنة ١٩٠٨ •
عبدالحميد من ولاية العهد الى المنفى ـ جلال نوري ـ ترجمة ابراهيم سليم النجار ـ مصر •
عجائب الآثار في التراجم والاخبار ـ الشيخ عبدالرحمن البحري ـ القاهرة •
العراق ـ دراسة في تطوره السياسي ـ فيليب ويلارد آيرلاند ـ ترجمة جعفر خياط دار الكشاف ـ بيروت ـ ١٩٤٩ •
العقد المفصل ـ السيد حيدر الحلي ـ بغداد ـ مطبعه الشابندر •
عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد ـ ابراهيم فصيح بن صبغةالله الحيدري ـ مخطوط ـ مكتبة الآثار ـ بغداد •
عنوان المجد ـ عثمان بن بشر النجدي ـ مكة •

(غ)

غرائب الاغتراب ـ أبو الثناء الآلوسي ـ مطبعة الشابندر ـ بغداد
غاية المرام ـ ياسين بن خيرالله العمري ـ مكتبة الآثار ـ بغداد •

(ف)

في الادب الحديث ـ عمر الدسوقي ـ القاهرة •

فى الادب المقارن ـ عبدارزاق حميده ـ القاهرة •

(ق)

قلب جزيرة العرب ـ فؤاد حمزة ـ القاهرة •
قلب العراق ـ أمين الريحانى ـ بيروت •

(ك)

كتاب التوحيد ـ الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ القاهرة •

(ل)

لسان العرب ـ ابن منظور ـ

(م)

ماضى النجف وحاضرها ـ الشيخ جعفر محبوبة ـ صيدا •
مباحث عراقية ـ يعقوب سركيس ـ بغداد •
مجموعة آثار رفيق العظم ـ مطبعة المنار ـ القاهرة •
المجد التالد فى مناقب الشيخ خالد ـ ابراهيم فصيح الحدرى ـ القاهرة •
مجموعة تراجم العلماء ـ محمود شكرى الآلوسى ـ(مخطوط) مكتبة الآثار ـ بغداد •
مجموعة الشيخ محمد رضا الشبيبى ـ بخط يده •
مجموعة عبدالغفار الاخرس ـ طبع شركة التجارة والطباعة ـ بغداد •
مجموعة للاخرس ـ لم تنشر ـ مخطوطة يعقوب سركيس ـ ونسخة عليها بخط يدى •
مختصر تاريخ بغداد ـ على ظريف الاعظمى ـ مطبعة الفرات ـ بغداد •
مختصر تاريخ الحلة ـ الشيخ يوسف كركوش ـ مطبعة العرفان ـ صيدا •
مختصر مطالع السعود ـ عثمان بن سند ـ بخط مختصره أمين الحلوانى سنة ١٢٩٣هـ نسخة دار الكتب بالقاهرة •
مختصر مطالع السعود ـ أيضا ـ بومبى ـ المطبعة الحسنة سنة ١٣٠٤هـ •
مذكرات مدحت باشا ـ تعريب يوسف كمال حتاته ـ القاهرة
المسألة الشرقية ـ مصطفى كمال ـ مطبعة الآداب ـ القاهرة سنة ١٨٩٨م •

المسك الاذفر ـ السيد محمود شكرى الآلوسى ـ بغداد •
مشاهير الكرد وكردستان ـ محمد أمين زكى ـ ترجمة سانحة محمد أمين زكى ـ القاهرة •
مطالع السعود فى طيب أخبار الوالى داود ـ عثمان بن سند البصرى ـ مخطوط ـ مكتبة الآثار ـ مع مراجعة مخطوطة مكتبة الاوقاف ـ بغداد
مقامات الآلوسى ـ أبو الثناء ـ طبع كربلاء ـ العراق ـ سنة **١٢٧٣**هـ •
مقدمة ابن خلدون ـ المكتبه التجارية ـ القاهرة •
المماليك فى العراق ـ أحمد على الصوفى ـ مطبعة الاتحاد الجديدة ـ الموصل•
من أمير الى سلطان ـ مصطفى فاضل ـ تعريب أحمد فتحى زغلول ـ مصر

(ن)

نثر الآلىء على نظم الامالى ـ السيد عبدالحميد الآلوسى ـ بغداد •
نزهة الدنيا ـ عبدالباقى العمرى ـ مخطوطة مكتبة الآثار ـ بغداد •
نشوء الفكرة القومية ـ ساطع الحصرى ـ القاهرة ـ ط ٢
نشوء الشمول فى السفر الى اسلامبول ـ لابى الثناء الآلوسى ـ مطبعة الولاية ـ بغداد ـ سنة **١٢٩١**هـ •
نشوء المدام فى العودة الى مدينة السلام ـ أبو الثناء الآلوسى ـ مطبعة الولاية ـ بغداد ـ سنة **١٢٩١**هـ •
النهضة العربية فى العصر الحاضر ـ محاضرة لشكيب ارسلان ـ
نهضة العراق الادبية فى القرن التاسع عشر ـ الدكتور محمد مهدى البصير ـ مطبعة المعارف ـ بغداد •
نيل الامانى فى الدستور العثمانى ـ عبدالمسيح الانطاكى ـ مطبعة العرب ـ القاهرة •

(ي)

اليزيدية ـ صديق الدملوجى ـ مطبعة الاتحاد ـ الموصل •

المراجع الاجنبية غير المترجمة :

تاريخ جودت ـ المؤلف التركي ـ استانبول ـ ط ٢ •

حروب الايرانيين ـ سليمان فائق (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار ـ بغداد •

دوحة الوزراء ـ رسول حاوي ـ (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار ـ بغداد •

الرسالة التسع عشرية ـ أحمد سهراب (فارسي) مطبعة السعادة ـ مصر •

رسالة في تاريخ الكوله من (المالك) ـ سلمان فائق (تركي) مخطوطة مكتبة الآثار ـ بغداد •

مرآة الزوراء (تركي) ـ سلمان فائق ـ مخطوطة مكتبة الآثار ـ بغداد •

Baghdad Thecity of Peace
By Richard Coke. 2 no
London 1935.

Travels In Mesopotamia
By —J—S—Bucingham.
Lonon 1827.

Travels In Koordistan - Mesopot. Amia Etc
By Baillie Fraser.
London 1840.

Travels of Robertker Porter.
London 1830 - 31.

Modern Trends In Islam-
By: A.R. Gibb. 1950.

الدوريات والجرائد

الاساس ـ جريدة ـ القاهرة •

البصرة ـ جريدة ـ صدرت فى البصرة ـ العراق سنة ١٨٩٥م •

بصيرت ـ جريدة ـ تركية ـ الاستانة •

تقديم وقائع ـ جريدة ـ تركية ـ الاستانة •

حولية الثقافة العربية ـ لساطع الحصرى ـ أصدرتها جامعة الدول اعربيه •
القاهرة السنة الاولى ١٩٤٩م •

دار السلام ـ جريدة ـ بغداد سة ١٩١٨م •

الرسالة ـ مجلة ـ القاهرة ـ سة ١٩٤٧م •

الزمان ـ جريدة ـ بغداد ٢٩ـ٤ـ١٩٥٠م •

الزوراء ـ جريدة ـ بغداد •

سومر ـ مجلة ـ بغداد •

سالنامه ـ تقويم سوى ـ بغداد سة ١٣٢٩هـ

سالنامة ـ تقويم سوى ـ انصرة سة ١٣٠٨هـ ـ ١٨٩١م •

سالنامة ـ تقويم سنوى ـ الموصل سنة ١٣٣٠هـ ـ ١٩١١ ـ ١٩١٢م •

الشعب ـ جريدة ـ بغداد العدد الصادر بتاريخ ٢٩ـ٢ـ١٩٥٥م •

الطليعة ـ مجلة ـ دمشق ـ ج ٧ س ٥ سنة ١٩٣٩م •

العرب ـ جريدة ـ بغداد سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٩م •

لغة العرب ـ محلة ـ بغداد مجموع السوات •

مجلة المجمع العلمى العراقى ـ بغداد ج ١ م ٣ سنة ١٩٥٤م •

مجلة مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ج ٧ سنة ١٩٥٣م •

اليقظة ـ جريدة ـ بغداد ١٩ـ٢ـ١٩٥٠م •